سلاح الفرسان

إسحاق بابل

◆ المؤلف: إسحاق بابل
◆ العنوان: سلاح الفرسان
◆ ترجمة: يوسف نبيل
◆ طبعة آفاق الأولى 2019
◆ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
◆ مستشار النشر: سوسن بشير
◆ المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:
٢٠١٩/١٠٨٣١
الترقيم الدولي: ISBN
978-977-765-214-8

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

إسحاق بابل

سلاح الفرسان

مجموعة قصصية

ترجمة

يوسف نبيل

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

بابل، إسحاق.

إسحاق بابل : سلاح الفرسان

ترجمة: يوسف نبيل

ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2019

240 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 10831 / 2019

الترقيم الدولي 8 – 214 – 765 – 977 – 978

1 – الأدباء (مجموعة قصصية)

2 – بابل، إسحاق

مقدمة

إسحاق بابل (١٨٩٤ - ١٩٤٠) واحد من أهم كُتَّاب القصة القصيرة في روسيا في القرن العشرين، تُرجمت أعماله إلى الكثير من اللغات، وقد اشتهر في الأساس بمجموعتيه القصصيتين: سلاح الفرسان - حكايات من أوديسا.

فى الحقيقة يمكن للمتمعن في حياة إسحاق بابل أن يرى مدى تعقد وتشابك العلاقات بين المثقف والسلطة الشمولية التي لا ترضى من المثقف حتى بالصمت... لا تقبل إلا بالخضوع الكامل وبيع الضمائر الكلي، صدرت مجموعة «سلاح الفرسان» في عام ١٩٢٦، وهي تتناول فترة الحرب السوفييتية البولندية التي اندلعت أعقاب الثورة البلشفية.

يعود زمن العلاقات البولندية - الروسية إلى القرن السادس عشر، أو حتى قبل، وهو تاريخ صراعات لا تنتهي، في البدء، واجهت الدولة البولندية، والتي كانت قوة حقيقية في القرن السادس عشر الذي توسعت خلاله شرقًا، وفي مواجهة مقاومة ضعيفة وغير منسقة من موسكو، تمكن الجيش البولندي من غزو موسكو في عام ١٦١٠، تغير الاتجاه

بعد ذلك، وبدأت بولندا تفقد المزيد من الأراضي لصالح روسيا حتى فقدت استقلالها كاملًا في عام ١٧٩٥، اختفت بولندا عن خريطة العالم لمدة ١٢٣ عامًا. كانت تحت سيطرة ثلاث قوى: مملكة بروسيا، الإمبراطورية الروسية، والإمبراطورية النمساوية، بعد استعادة الاستقلال في عام ١٩١٨، اضطرت الدولة البولندية الشابة للقتال من أجل استعادة حدودها. كان هدف البولنديين إنشاء اتحاد فيدرالي مكون من دول شرق أوروبا ليكون تحت قيادتهم. لهذا السبب، دعمت بولندا الجيش الأوكراني بقيادة بتليورا، الذي أراد إنشاء دولة مستقلة. وصلت هذه القوات حتى كييف. في يونيو عام ١٩٢٠، وقف الجيش الأحمر بالقرب من وارسو، التي شكلت إحدى أهم المعارك في أوروبا ذاك الوقت.

تناولت بعض الأعمال الأدبية في ذلك الوقت الحملة السوفييتية على بولندا، لكنها كانت تتغنى ببطولات المحاربين في إبادة الأعداء الذين يقفون في وجه الثورة الشيوعية... باختصار كانت كتابات مؤدلجة تمامًا تتغنى بالمجتمع الاشتراكي اليوتوبي، وتصور المقاتلين الشيوعيين في صورة تقترب من صورة ملائكة شيوعيين!

صحيح أن المجموعة حين ظهرت لم تثر كثيرًا من المشكلات، بل اعتُبرت -على رغم كل شيء- تمجيدًا للثورة، ولكن بعد سنوات قليلة، مع استشراء حملات التطهير الستالينية، ستُعتبر المجموعة نقدًا حادًّا للثورة وسيحاسب بابل عليها حسابًا عسيرًا.

قصص المجموعة غير منفصلة، فهي تُعدّ نموذجًا مبكرًا في الأدب الروسي للمتتالية القصصية، التي تضم قصصًا متنوعة تجمعها وحدة

موضوع، وتتكرر الشخصيات في أكثر من قصة، إنها تشكل شبكة مترابطة من الأحداث والشخصيات والوقائع، وعلى حد تعبير الكاتب إبراهيم العريس: «تكشف في آن واحد انبهار الراوي بتلك الحياة وبصانعيها -من الجنود القوزاق خصوصًا-، من ناحية، ورعبه واشمئزازه مما كان يرصده من ناحية أخرى، ويتعلق هذا، بخاصة بما يرويه عن تصرفات الجنود القوزاق الذين يقدمهم إلينا في كل فقرة وسطر، إنهم شجعان يقدمون على الموت ولا يهابونه، لكنهم في الوقت نفسه يشعرون بقدر كبير من الاحتقار إزاء المثقفين -الذين يؤكد لنا بابل أنهم كانوا هم الذين يشكلون كوادر القوات المسلحة والكوادر الحزبية- وكانوا لا يتورعون عن الإساءة، وبأبشع الأشكال إلى أسراهم. وحين يقبضون على الموجيك الإقطاعيين لا يتورعون عن البدء بضربهم بالسياط قبل أن «يحققوا» معهم، كما أنهم كانوا لا يتورعون عن اغتصاب النساء وتعذيب أي يهودي معاد يقع في أيديهم... لكنهم في الوقت نفسه كانوا لا يهابون الموت، بل ينخرطون في القتال دون حساب»[1].

اتهم البعض بابل بالسادية من فرط وصفه للوقائع الدموية بحيادية ملفتة، وكأنه يسرد وقائع عادية ومألوفة إلى أقصى درجة، والبعض الآخر انبهر بهذه المجموعة، وصفها «همنجواي» قائلًا: «إنها كالجبن الذي عُصِرَ بشدة ليخرج منه الماء تمامًا»، فهي تحوي نصوصًا كثيفة مركزة إلى أقصى حد، تجمع بين الشعرية والتغني بالطبيعة، وفى الآن ذاته الدموية الشديدة.

---

(١) إبراهيم العريس - فرقة الخيالة الخامسة - جريدة الحياة.

إن موقف بابل من الثورة البلشفية يشبه الراوي في المجموعة حيث يؤمن في البداية بأهداف الثورة ويتحمس لها، ويشهد وقائع الحرب من منظور الصحفي، فيفزع من فرط الدموية والعنف، ويتساءل عن مكان المثقفين وسط كل هذا الازدراء من قِبل الجنود القوزاق.

تتنوع قصص المجموعة بين مشاهد حربية، ومشاهد مكثفة لعلاقات متنوعة بين الجنود وسكان المناطق التي يجوبونها، ويلجأ بابل إلى وصف شعري فائق الجمال، وينزع ببصيرة نفسية إلى تحليل العنف بصورة عميقة، فيرى فيه رغبة مقيتة إلى الولوج لسر الإنسان. هذا ما جعل عالم النفس والاجتماع إريش فروم يستشهد ببابل في إحدى مقالاته قائلًا: «الحب إنجاز ليس من السهل الوصول إليه. كيف يحاول الرجل الذي لا يمكنه أن يحب أن يخترق سر جاره؟ ثمة طريقة أخرى... طريقة بائسة للوصول إلى معرفه كنه السر، إنها السلطة الكاملة على شخص آخر، السلطة التي تجبره على فعل ما أريده وأن يشعر ويفكر فيما أريده، يتحول إلى شيء خاص بي؛ شيء أملكه. أقصى درجات هذه المحاولات من أجل المعرفة تكمن في السادية المتطرفة التي تستمتع بجعل الآخر يعاني، وفي تعذيبه وإجباره على خيانة سره في معاناته، أو بتدميره في النهاية. ثمة دافع أساسي للقسوة والتدمير الشديدين في الرغبة الشديدة للولوج إلى سر الإنسان. وقد عبَّر الكاتب الروسي إسحق بابل عن هذه الفكرة....» ويذكر فروم هذا المشهد: «لكنك لا يمكن أن تصيب روح الإنسان بطلقة، فأنت لا تعرف أين مكمنها، وماهيتها في حقيقة الأمر، لكن هناك أوقات أنسى فيها

نفسي ولا أشفق عليها، وأنهال بالضرب على العدو لساعة أو أكثر. أريد أن أفهم طبيعة الحياة وما هي حقيقتها فعلًا».

لم يمهل الوقت بابل كثيرًا، وتم القضاء عليه في حملة التطهير الستالينية، ولم يعرف أحد سببًا واضحًا لقتله، وباءت كل محاولاته للتواؤم مع الدولة الشمولية بالفشل. لقد حاول أن يكتب كما يشاء دون التعرض بشكل صريح للنظام السوفييتي، لكن ذلك لم يكن كافيًا، فلا شيء يكفي النظام سوى الخضوع الكامل، والكتابة وفقًا لقواعده.

أعتقد أن قراءة بابل يمكنها يقينًا أن تحقق المتعة والدهشة؛ فهو كاتب فذ له أسلوب مميز، يكتب أدبًا حديثًا جدًّا بالنسبة إلى وقته، صالح في زماننا هذا لإثارة الإعجاب، وقد انتقل بالأدب الروسي إلى حقبة أخرى فارق فيها الأدب حقبته الذهبية القديمة من حيث طبيعة الموضوعات وطريقة عرضها، إلا أن تفرد أسلوبه المكثف إلى أبعد حد والمحمل بالأوصاف الغريبة المبتكرة، قد زاد من صعوبة الترجمة إلى أقصى حد ممكن.

بقي أن أشير إلى استقائي بعض المعلومات في هذه المقدمة من بعض المقالات عن بابل لجودت هوشيار وإبراهيم العريس، وأرجو أن أكون وُفقت في ترجمة هذا العمل إلى اللغة العربية.

* * *

عبور نهر زبروتش[٢]

أبلغ قائد الكتيبة السادسة أن نوفوجورود - فولينسك[٣] قد تم الاستيلاء عليها اليوم قرابة الفجر، انسحبت القيادة من كرابيفنو[٤]، وها هي صفوف الجياد تحمل أمتعتنا والضجيج يتعالى منها على الطريق الممتد من بريست[٥] إلى وارسو[٦]، إنه طريق قد شيَّده نيقولاي الأول فوق عظام الفلاحين الموجيك[٧].

من حولنا تزدهر حقول الخشخاش الأورجوانية، وتهب رياح الظهيرة حاملة في هوائها حبوب الجاودار الصفراء، وتلوح حبوب الحنطة اليانعة من خلف الأفق وكأنها جدار دير بعيد. تتباعد فولينيا[٨]... تتلاشى عن أعيننا من خلف سحابة ضبابية متلألئة بحبوب الحنطة

(٢) أحد الفروع النهرية بغرب أوكرانيا ويمتد ٢٤٧ كيلو مترًا.

(٣) منطقة أوكرانية.

(٤) قرية قديمة داخل قطاع لينينجراد.

(٥) مدينة في بيلاروسيا.

(٦) عاصمة بولندا.

(٧) صغار الفلاحين.

(٨) منطقة قديمة في وسط وشرق أوروبا تمتد بين جنوب شرق بولندا، وجنوب غرب بيلاروسيا.

اليانعة، وتتلوى خلال التلال والأكام الزهرية، وتتقدم متعثرة وهي تشق طريقها بيديها الضعيفتين بين غصون نباتات الجنجل. تتدحرج الشمس البرتقالية في كبد السماء كرأس قد اقتُلعت عن جسدها، ويتوهج ضوء لطيف بين شقوق السحابة... إنه مشهد غروب أصيل يتوالى فوق رؤوسنا. ما زالت رائحة دماء الأمس والجياد القتيلة تسري في برودة المساء. يضج نهر زبروتش الأسود، ويلوح الزَّبَد الذي تحمله مياهه بين منحدراته. الجسور مُهدَّمة، وعلينا أن نعبر النهر. تلمع أضواء القمر الساحر فوق صفحة المياه، وتصل المياه إلى ظهور الجياد، ويتناهى إلى الآذان رنين المياه المتصاعد من بين أقدام مئات الجياد التي تعبر النهر. أحدهم يغرق فيلعن العذراء المقدسة بصوت عال، وتتناثر عربات سوداء مربعة على صفحة المياه، ويتعالى الأزيز والهمهمة والغناء، وتملأ أضواء القمر المتلوية المتلألئة تجاويف النهر.

نصل إلى نوفوجراد في وقت متأخر من الليل، ثم أجد في الشقة التي سأقيم فيها امرأة حبلى، ويهوديين بشعر ضارب إلى الحمرة وأعناق نحيلة، وثالثًا نائمًا، قد غطى جسده كاملًا حتى رأسه ووجَّهه إلى الحائط. أجد في غرفتي خزائن ثياب ممزقة، وبقايا معطف نسائي من الفرو على الأرض، وبرازًا بشريًّا، وبقايا أوعية يستخدمها اليهود مرة واحدة فقط في العام؛ في عيد الفصح.

أقول للمرأة:

– نظِّفي الحجرة من فضلك. كيف تعيشون وسط هذه القذارة؟!

ينهض يهوديان من أماكنهما، ويرتديان أحذيتهما الملبدة، ويزيلان

القذارة التي على الأرض. يتمان الأمر في هدوء، كالقرود، كألعاب اليابانيين في السيرك، وأعناقهم تدور في مختلف الاتجاهات. يضعان على الأرض مرتبة ممزقة كي أنام عليها، فأستلقي بجوار اليهودي الثالث ووجهي موجهًا صوب الحائط، وتكتنفني أجواء الفقر المخيفة حتى أنام.

اكتنف الصمت القاتل كل شيء، ولم يبقَ سوى القمر، وهو يمسك رأسه بيديه المستديرتين اللامعتين الزرقاوين، متسكعًا بالقرب من نافذتي.

أحك قدميَّ العاريتين، مستلقيًا على هذه المنامة الممزقة ثم أغفو. يزورني قائد الكتيبة السادسة في أحلامي. يطارد قائد اللواء على جواده الثقيل، ويطلق رصاصتين في عينيه، وتمزق الرصاصات رأس قائد اللواء، وتسقط عيناه على الأرض. يصرخ قائد الكتيبة سافيتسكي في قائد اللواء الجريح: لماذا انسحبت بالقوات؟ وهنا أستيقظ لأن المرأة الحامل تتحسس وجهي بأصابعها.

تقول لي:

– يا سيد... أنت تصرخ أثناء نومك وتتقلب بعنف. سأضع لك فراشك في زاوية أخرى لأنك تصطدم بي أثناء نومك.

ترفع قدميها النحيلتين من على الأرض، وتنهض ببطنها المستديرة، وتُزيل الغطاء من فوق النائم. هناك يستلقي شيخ عجوز ميت على ظهره، عنقه مذبوح، ووجهه مشقوق نصفين، والدماء الزرقاء متجلطة على لحيته.

تقول اليهودية وهي تُعدِّل من وضع المرتبة على الأرض:

- ذبحه البولنديون يا سيدي، وكان يتوسل إليهم قائلًا: «اقتلوني في الساحة الخلفية حتى لا تراني ابنتي وأنا أموت»، لكنهم ذبحوه كما تراءى لهم. انتهى أمره في هذه الغرفة وهو يفكر فيَّ.

وفجأة قالت المرأة بقوة مرعبة:

- الآن أريد أن أعرف: أين يمكن أن أجد في هذا العالم كله أبًا كهذا؟

* * *

الكنيسة في نوفوجراد

بالأمس توجهت بتقرير إلى القائد العسكري المقيم في منزل كان يقطن فيه سابقًا كاهن كاثوليكي. التقيت في المطبخ بالسيدة إليزا، وهي مدبرة المنزل، وتنتمي إلى الطائفة اليسوعية[٩]. قدَّمت لي شايًا كهرمانيَّ اللون وبعضًا من الكعك الإسفنجي ينضح برائحة الصَّلب[١٠]، ويخفي الكعك بداخله عصير الخبث وغضب الفاتيكان الفوَّاح[١١].

كانت الأجراس تصلصل بجنون في الكنيسة التي بجانب المنزل. حلَّ المساء، والسماء مفروشة بنجوم يوليو. استمرت السيدة إليزا في ملء طبقي بالكعك وهي تهز شعرها الرمادي، وشعرت بالابتهاج من هذا الطعام اليسوعي.

---

(٩) واحدة من أهم الرهبانيات الفاعلة في الكنيسة الكاثوليكية، ومن أكبرها، تأسست على يد القديس إغناطيوس دي لولا.

(١٠) المقصود صلب المسيح، والمعنى الكامن يشير إلى شدة تعلق اليسوعيين بموضوع الصلب، فكافة ترانيمهم وخطبهم ووعظهم يتمحور دائمًا حول صلب المسيح.

(١١) يشير الكاتب إلى غضب الكنيسة الشديد من الاضطهاد الذي لحق بها من قبل الشيوعيين في تلك الآونة وفيما بعد.

كانت تلك البولندية العجوز تطلق عليَّ «بان»[١٢]، عند عتبة الباب كان بعض الرجال المسنين واقفين منتبهين بآذان متحجرة، بينما تتمايل غفارة كاهن وسط هذا الظلام الأفعواني، كان الكاهن قد هرب، لكنه ترك من خلفه مساعده السيد روموالد.

كان روموالد خصيًّا أخنفَ ممتلئ الجسد يخاطب كل منا بـ «أيها الرفيق[١٣]»، أشار بإصبعه الأصفر على الخريطة إلى الأماكن التي هُزِم فيها البولنديون، كان يحصي جروح وطنه بنشوة حقيقية، فلتشمل نعمة النسيان ذكرى روموالد الذي خاننا دون شفقة، ثم أردياه بعدها قتيلًا دون تفكير للحظة. لكن في هذا المساء رفرف رداء الكاهن الضيق الذي كان يرتديه عند كافة المداخل، واندفع ماسحًا الأرض في كافة الممرات بغضب، مبتسمًا لكل من أراد شرب الفودكا. في ذاك المساء أخذ ظل الكاهن يتسلل من خلفي يتتبعني دون كلل أو ملل، كان من الممكن لروموالد أن يصبح أسقفَ إن لم يكن جاسوسًا.

شربت الروم[١٤] بصحبته، وانبعثت من المكان رائحة حياة قد قُضِيَ عليها من أسفل منزل الكاهن المتداعي، وأوهنتني إغواءات روموالد الدمثة. آآه... يا لها من صلبان صغيرة كتعاويذ المومسات... آآه من أوراق تلك الثيران البابوية النفيسة، وذلك الساتان الذي يشبه ما تلف به النساء خطاباتها المشبوبة التي تبلى داخل صديريات الرجال الحريرية الزرقاء!

---

(١٢) سيد بالبولندية.

(١٣) نداء البلاشفة لبعضهم البعض، رغم كون القائل ينتمي إلى الكنيسة.

(١٤) شراب مسكر.

يمكنني أن أراك الآن أيها الراهب الخائن، مرتديًا غفارتك الأورجوانية، بيديك المتورمتين وروحك الرقيقة والوحشية في آن واحد كروح قطة... إني أرى جراح إلهك، ترشح بالمَنِيّ، والسم فوَّاح العبير، والذي يسكر العذارى.

شربنا الروم في انتظار القائد العسكري، لكنه لم يعد من مقر القيادة. تهاوى روموالد في إحدى الزوايا وغفا من فرط النعاس، انخرط في النوم وجسده يرتعش، بينما يتسلل من خلف النافذة زقاق صوب الحديقة المترامية أسفل السماء السوداء الولهانة، كان الورد العطشان يتمايل في قلب الظلام، والصواعق الخضراء تتقد في قبة السماء، بينما تتراءى للأنظار جثة عارية أسفل المنحدر، ويتدفق بريق القمر على الساقين الهامدين، وكل منهما تشير إلى جانب.

ها هي بولندا... ها هو الحزن المتغطرس للكومنولث البولندي[١٥]، بسطت المنامة القذرة في هذه الكنيسة كمحتل عنيف... تلك الكنيسة التي هجرها كهنتها، ووضعت صفحة من الورق أسفل رأسي مطبوع عليها صلاة شكر لجوزيف بيلسوديسكي[١٦] زعيم النبالة البولندية الشهير.

ها هي جماعات الفقراء تتسكع على طرق المدينة القديمة. «آه يا بولندا!» وتُدوِّي أغنية كافة المستعبدين فوق رؤوسهم، وكذلك أغنية

---

(١٥) Rzeczpospolita هو الاسم الرسمي لبولندا بعد عام ١٩١٨.

(١٦) ١٨٦٧ - ١٩٣٥ وهو أول رئيس لبولندا بعد استقلالها عن روسيا في عام ١٩١٨، وقائد الجيش البولندي.

الويل لبولندا... الويل لك أيها الأمير رادزيفيل[١٧]، وأنت أيها الأمير سابيجا[١٨] الذي نهض لساعة واحدة!

ولكن القائد لم يعد، أبحث عنه في مقر القيادة، وفي الحديقة وفي الكنيسة. بوابات الكنيسة مفتوحة، أدخل وأرى في طريقي جمجمتين فضيتين تتوهجان على سطح تابوت محطم، أندفع هابطًا من فرط الخوف إلى القبو بالأسفل. يقودني سلم مصنوع من خشب البلوط صوب الهيكل، هناك أرى نيرانًا متوهجة تتصاعد للأعلى حتى قبة الكنيسة. أرى قائدي العسكري؛ قائد الوحدة الخاصة، بصحبة بقية القوزاق، وجميعهم يحملون الشموع في أيديهم، يسمعون صرختي الواهنة ويخرجونني من القبو بالأسفل.

أتبين الجماجم الآن نقشًا على سطح التابوت، ولم تعد تخيفني. استمرينا جميعًا في البحث، لم تكن الشموع إذن للصلاة، بل كان القوزاق يفتشون المكان بعد أن وجدوا أكوامًا من المعدات العسكرية في شقة الكاهن.

واصلنا الطواف على متون جيادنا اللامعة المزخرفة ونحن نهمس لبعضنا البعض، والشمع يسيل على أيدينا، والمهاميز تصلصل على أجسادنا، بينما تراقبنا تماثيل مريم العذراء المغطاة بالأحجار الكريمة بأعينها الوردية التي تشبه أعين الفئران، وتنظر بقايا الشموع على أصابعنا، وتتلوى ظلالنا الحادة على تماثيل القديس بطرس والقديس فرانسيس

(١٧) ١٨٨٠ – ١٩٦٧ سياسي يتحدر من أسرة بولندية ليتوانية شهيرة.

(١٨) وزير خارجية بولندا في عامي ١٩٢٠ – ١٩٢١، وكان زعيم الحركة الملكية.

والقديس فنسنت، وعلى وجوههم المتوردة ولحاهم المجعدة الملونة.

ندور في المكان ونواصل التفتيش، وتتلمس أصابعنا سريعًا تلك المقابض العاجية، وفجأة تنقسم الأيقونات إلى نصفين لتكشف عن كهف تحت سطح الأرض مليئًا بالزهور والعفن، إنها كنيسة قديمة ومليئة بالأسرار، تخفي خلف حوائطها اللامعة ممرات سرية وشقوقًا وأبوابًا سحرية صامتة.

آه منك أيها الكاهن الأحمق! تُعلِّق حمالات صدر نساء أبراشيتك على المسامير التي تُثبت الصليب المقدس! وجدنا خلف البوابات الفخمة حقيبة تحوي نقودًا ذهبية وجوالًا من الجلد المغربي مليئًا بالنقود وصناديق من المجوهرات الفرنسية ملأى بالخواتم الزمردية.

بعدها ذهبنا لنعد المال في غرفة القائد؛ أكوام من الذهب، وسجاجيد ملآنة بالنقود، والرياح تهب على شعلات شموعنا، والجنون يلوح في عيني السيدة إليزا، وتنطلق قهقهة مدوية لروموالد، وتصلصل أجراس الكنيسة إلى ما لا نهاية، تلك الأجراس التي يدقها السيد روباتسكي المضطرب حتى أقصى حد.

قلت لنفسي:

– فلأهرب من هنا! فلأهرب من أمام هؤلاء المريمات الغامزات اللاتي تغوين الجنود!

* * *

خطاب

هذا خطاب مُرسل إلى الوطن أملاه عليَّ صبي من وحدتنا يُدعى كورداياكوف. إنه لا يستحق النسيان، إني أعيد هنا كتابته دون زخرفة أو تنميق، بل كما تم إملاؤه عليَّ في الحقيقة حرفًا حرفًا:

«أمي العزيزة يفدوكيا فيدوروفنا، أود أن أطمئنك في السطور الأولى من هذا الخطاب أني بفضل الله ما زلت حيًّا أُرزق، وبصحة جيدة، وأرجو أن تكوني أنتِ الأخرى في تمام الصحة والعافية. إني أنحني لكِ بكل احترام حتى تلامس جبهتي البيضاء الأرض الرطبة.

(يلي ذلك سؤال وتعداد للأقارب والعرابين والعرابات[١٩]، فلنترك ذلك الجزء وننتقل إلى المقطع الذي يليه).

أمي العزيزة يفدوكيا فيدوروفنا كودريوكوفا.. أكتب إليكِ في عجلة شديدة، فأنا ضمن قوات جيش الفرسان الأحمر تحت قيادة الرفيق بوديني، كما أن عرَّابكِ نيكون فاسيليتش هو الآخر هنا، وقد أصبح في الوقت الحالي بطلًا أحمر[٢٠] حقيقيًّا، لقد جعلني أصحبه في كتيبته:

---

(١٩) عند عماد الطفل في روسيا دائمًا ما كان يُعيَّن له من ضمن الأقارب عرَّاب أو عرَّابة، ومن المفترض أن مسؤولية تنشئة الطفل الدينية تكون على عاتقهما.

(٢٠) الأحمر هو لون الشيوعيين.

«البوليت أتديل»[٢١] والتي نقوم فيها بتسليم الدوريات والصحف إلى مواقع عديدة؛ دوريات من قبيل: أخبار موسكو (تسيك)[٢٢] وجريدة البرافدا الموسكوفية، وكذلك صحيفتنا التي لا ترحم «الفارس الأحمر» التي يتمنى كل مقاتل لديه آراء تقدمية أن يقرأها ثم يمضي ليمزق البولنديين إربًا بروح بطولية. أنا أعيش في يسر وراحة لدى نيكون فاسيليتش.

أمي العزيزة يفدوكيا فيدوروفنا... أرسلي لي كل ما تستطيعين إرساله، أتوسل إليكِ أن تذبحي خنزيرنا الصغير الأرقط وترسلي إليَّ طردًا يحوي بعضًا من لحمه إلى بوليت أتديل تحت قيادة الرفيق بوديني، باسم فاسيلي كورد‌ياكوف. أنام كل يوم جوعانًا دون ثياب، والجو هنا بارد للغاية. اكتبي لي عن ستيبان... أهو حي أم لا؟ أرجوكِ أن تستعلمي عن حاله وتخبريني ما إن كان لا يزال يحك في جلده أم توقف عن ذلك، وهل شُفِي من الجرب الذي في قدميه الأماميتين أم لا؟ أتوسل إليكِ يا أمي العزيزة يفدوكيا فيدوروفنا أن تغسلي له قدميه بالصابونة التي تركتها خلف البرواز، وإن كانت صابونة أبي قد استُعملت كاملًا فأرجوكِ أن تشتري واحدة من كراسنودار، ولن يهملكِ الله أبدًا. يمكنني أيضًا أن أصف لكِ كم هي البلاد فقيرة هنا. الفلاحون هنا يتوارون في الغابات هم وجيادهم عن نسورنا الحمراء، فالقمح هنا قليل جدًّا، وهو رطب

(٢١) **Политотдел** أحد الأقسام السياسية في الحكومة السوفيتية الجديدة، وكانوا يقومون فيها بتعليم إيدولوجي لأفراد الجيش أثناء الحرب الأهلية الروسية والحرب الروسية البولندية في عام ١٩٢٠.

(٢٢) صحيفة كانت تُنشر من قبل اللجنة المركزية التنفيذية في الحكومة البلشفية.

للغاية حتى إنه يثير ضحكنا. يبذر أصحاب الأراضي حبوب الجاودار والشوفان أيضًا. هنا تنمو نباتات الجنجل فوق عيدان الحقل، لذلك لا يمكنهم استخلاص المحصول إلا بعناية فائقة، ويصنعون منها نوعًا من الخمور.

أود أن أخبركِ في الجزء الآخر من خطابي عن أبي، لقد قطَّع أخي فيودور تيموفيتش إربًا منذ عام تقريبًا. لقد هاجمت قواتنا الحمراء تحت قيادة الرفيق بافليتشينكو مدينة روستوف بينما كانت الخيانة تعتمل بين صفوفنا. في هذا الوقت كان أبي يحارب خلف صفوف البيض تحت إمرة دينيكين. من رأوهم قالوا إنهم كانوا يحملون الأوسمة وميداليات الشرف كما كان الأمر قديمًا، ولكن بسبب هذه الخيانة تم أسرنا جميعًا، ورأى أبي أخي فيودور تيموفيتش، حينها بدأ أبي في تمزيق أخي إربًا قائلًا: «فلتهلك أيها الكلب الأحمر، يا ابن العاهرة» وشتائم أخرى، وظل يضرب فيه حتى حلول الظلام حتى فارق أخي فيودور تيموفيتش أخيرًا الحياة، حينها كتبت إليكِ خطابًا، أخبركِ كيف دُفِن أخي فيديا[٢٣] دون صليب فوق جثمانه، لكن أبي أمسكني والخطاب في حوزتي وقال: «أنتم أبناء هذه العاهرة، لقد حرثت فرج هذه العاهرة وسأظل أفعل ذلك طوال حياتي الفانية حتى لا تعود في جسدي قطرة واحدة من سائلي الحيوي. مكتوب عليَّ أن أعاني مثلما عانى مخلصنا يسوع المسيح». ثم تمكنت من الهروب من أبي، واللحاق بالقوات الحمراء ثانية تحت قيادة الرفيق بافليتشينكو. جاءت الأوامر لجماعتنا أن نذهب

(٢٣) صيغة تدليل لفيودور.

صوب مدينة فورونيوج حتى نحصل على الدعم، وهذا ما حدث فعلًا، وحصلنا أيضًا على جياد وحقائب ومسدسات، وكل ما كنا في حاجة إليه. بالنسبة لفورونيوج فيمكنني أن أصفها لكِ يا أمي العزيزة يفدوكيا فيدوروفنا. إنها مدينة عظيمة جدًّا، أكبر من كراسنادار، وأناسها جميلون حقًّا، ويمكن الاستمتاع بالسباحة في نهرها. كانوا يعطوننا هناك رغيف الخبز مقابل جنيهين في اليوم، واللحم مقابل نصف جنيه، وما يكفي من السكر لتحلية الشاي، والأمر ذاته في المساء حتى نسينا الجوع تقريبًا. في وقت الغداء كنت أذهب إلى أخي سيميون تيموفيتش كي أتناول الفطير أو الإوز، وكنت أستلقي بعد ذلك لأنعم ببعض الراحة. في ذلك الوقت أراد الجميع أن يكونوا تحت إمرة سيميون تيموفيتش، وذلك لشجاعته واستماتته في القتال، وصدر الأمر من الرفيق بوديني، وحصل على جوادين وثياب لائقة وعربة وكذلك علم أحمر، وكنت بالنسبة له كالأخ، فعندما يسيء أحد إليكِ يمكن لسيميون تيموفيتش أن يمزقه إربًا. بدأنا بعدها في مطاردة الجنرال دينيكين[٢٤]، ومزقنا قواته إربًا وطاردناهم حتى البحر الأسود، لكن أبي لم يظهر أبدًا، وبحث عنه سيميون تيموفيتش في كل مكان لأنه كان يشعر بالحزن الشديد على أخينا فيديا. الآن وقد عرفتِ يا ماما العزيزة عن بابا وعن شخصيته العنيدة فهل يمكنكِ أن تتوقعي ما فعله؟ لقد غيَّر بكل وقاحة لون لحيته الحمراء إلى الأسود وذهب إلى مدينة مايكوب، وكان يرتدي ثيابًا مدنية بحيث لا يعرف أحد هناك من السكان أنه كان يحارب في صفوف

(٢٤) أحد قادة الحرس الأبيض المعادي للبلاشفة.

النظام القديم. ولكن الحقيقة لا بد لها وأن تنجلي، رآه هناك بالصدفة عرَّابك نيكون فاسيليتش أمام الكوخ الذي يسكن فيه، وكتب لسيميون تيموفيتش خطابًا يُعلمه فيه عن الأمر. امتطينا صهوات جيادنا، وقطعنا بها مائتي فرست، أنا وأخي سينكا[٢٥]، ومن أراد أن يصحبنا من رفاقنا القوزاق من المحطة.

وماذا رأينا في مدينة مايكوب؟ رأينا هناك الناس لا يبالون على الإطلاق بما يحدث في الجبهة، والخيانة مستشرية، وكذلك اليهود، كما كان الأمر إبَّان النظام القديم. أخذ سيميون تيموفيتش يتجادل هناك مع اليهود الذين لم يجعلوه يصل إلى بابا، وكانوا قد وضعوا بابا في السجن وأغلقوا عليه الزنزانة جيدًا قائلين إنهم استلموا أمرًا بعدم قتل الأسرى، فنحن سوف نحاكمهم بأنفسنا، وقالوا لأخي ألا يغضب فهو سينال ما يستحقه من عقاب. لكن سيميون تيموفيتش أخذه بعد ذلك وأثبت فعلًا أنه قائد حقيقي، وأنه يستحق كل تلك الميداليات والعلم الأحمر من الرفيق بوديني، وهدَّد بتمزيق كل من يجادله بشأن أبي ولا يسلمه إياه، وكذلك أطلق رفاقنا من القوزاق التهديدات. وما إن حصل سيميون تيموفيتش على بابا حتى بدأ في جَلدِه بالسوط، وجمع كافة المقاتلين في الساحة بالأمر العسكري، ثم رش سينكا المياه على لحية بابا حتى لاح لونها الأصلي، وحينها سأل سينكا بابا قائلًا:

– أتشعر الآن أنك ما يرام وقد وقعت بين يدي؟

– لا... أشعر بالسوء.

---

(٢٥) صيغة تدليل لسيميون.

– وعندما قمت بتمزيق فيديا إربًا.. أكان يشعر أنه على ما يرام حينما سقط بين يديك؟

– لا... لم أفكر أني سأكون في هذا الوضع السيئ.

حينها التفت سينكا للجمع الحاضر وقال:

– وأنا أعتقد أني إن وقعت بين يديك فلن ترحمني. الآن سوف نُجهز عليك.

وحينها بدأ تيموفي في إلقاء السباب بوقاحة على سيميون... كان يشتمه بالأم ويسب العذراء المقدسة، وأخذني سيميون بعيدًا عن الساحة، ولذلك فأنا لا أستطيع يا أمي العزيزة يفدوكيا فيدوروفنا أن أصف لكِ كيف قتلوا بابا، فقد أبعدوني عن المكان.

بعد ذلك توقفنا في مدينة نوفوروسيسكى. يمكنني أن أقول لكِ عن هذه المدينة إنها لم تكن فيها قطعة أرض واحدة جافة، بل اكتنفتها المياه من كل جانب... إنه البحر الأسود، وقد مكثنا هناك حتى شهر مايو حتى التحقنا بالجبهة البولندية وتعاملنا مع السادة البولنديين كما يجب.

سأظل ابنكِ الحبيب فاسيلى تيموفيتش كورداكوف يا أمي العزيزة. اعتني بستيبان ولن يهملكِ الله أبدًا".

هذا هو نص خطاب كورداكوف، ولم أُغيِّر منه حرفًا واحدًا. عندما أنهيت كتابة الخطاب أخذه مني وأخفاه واضعًا إياه على صدره العاري. سألت الصبى:

– كورداكوف... هل كان أبوك رجلًا شريرًا؟

أجابني بوجه متجهم:

- لقد كان حقيرًا.

- وهل أمك أفضل حالًا؟

- أمي جيدة. إن كنت تود أن ترى صورة الأسرة فها هي.

وأراني صورة بالية، يبدو فيها تيموفي كورداكوف مقاتلًا عريض المنكبين، يرتدي القبعة العسكرية بلحية مشذبة. كان جامد الوجه، وعظام وجنته كبيرة، وعيناه واسعتان لامعتان غريبتان غير ملوّنتين. بجانبه جلست فلاحة ضئيلة الجسد على مقعد من الخيزران، ترتدي رداءً واسعًا، ذات وجه دقيق الملامح، مشرق خجول. بالقرب من الحائط عند هذه الخلفية البالية المثيرة للشفقة التي تحوي رسوم حمام وزهور يقف سيدان لهما قامة ضخمة بليدا الملامح بوجهين عريضين، جاحظا العينين جامدا النظرات، واقفان بانتباه شديد وكأنهما في وضعية عسكرية؛ إنهما الأخوان كورداكوف فيودور وسيميون.

* * *

قائد قوات احتياط الفرسان

الأنين يتصاعد من كافة أنحاء القرية. يبحث الفرسان عن الخبز، ويبادلون الجياد. يستولون على جياد الفلاحين القوية التي تعمل في الحقل بدلًا من جيادهم المنهكة. لا أحد يلومهم هنا، فلا جيش دون جياد.

لكن الأمر ليس سهلًا على الفلاحين، ولذلك فهم يتجمهرون دائمًا عند مقر القيادة، جارين معهم الجياد التي تترنح من فرط الضعف، تلك التي أخذوها بدلًا من جيادهم القوية. يشعر الفلاحون بالمرارة الشديدة، وقد فقدوا الجياد التي تعولهم، ولأنهم يعلمون أن الشجاعة لن تُجدي وقتًا طويلًا، فإنهم يسرعون من فرط اليأس للتحدث بوقاحة مع السلطات؛ مع الله ومع قسمتهم المُرَّة.

أما قائد القوات (ج) فيقف في الرواق في كامل زيه العسكري، يستمع لشكاوى الفلاحين غالقًا جفونه الملتهبة، لكنه لا يستمع بانتباه حقيقي، فهو مثله مثل أي موظف رفيع المنصب منهك من فرط العمل، يعرف كيف يمكنه أن يُوقف نشاط عقله تمامًا في لحظات تخلو من

الوجود الحقيقي. في هذه الدقائق البسيطة التي ينعم فيها بنعمة عدم التفكير، كان قائدنا يشحذ ماكينته لمواصلة العمل ثانية.

هذا ما يفعله هذه المرة أيضًا مع الفلاحين.

في رفقة هذه الدمدمة المتقطعة اليائسة للفلاحين، كان (ج) يتتبع هذه الأفكار المتمازجة التي تتصادم داخل عقله، وهي بمثابة مقدمة لفكر هادئ مليء بالطاقة. ينتظر اللحظة المناسبة التي يقطع فيها الحديث ويستقبل النشيج الأخير للفلاحين، ثم يصرخ بطريقة القادة ويعود إلى مكتبه للعمل.

لكن الصراخ لم يكن ضروريًّا هذه المرة. اقترب دياكوف من شرفته، على متن جواده العربي – الإنجليزي، ودياكوف لاعب سيرك سابق، أما الآن فهو قائد قوات الاحتياط من الفرسان الحمر، ولديه شوارب رمادية، ويرتدي معطفًا أسود وحمَّالة بنطال فضية وسروال فرسان أحمر.

– لعنة الله على كل شيء!

هكذا صاح دياكوف وهو يوقف جواده عن العدو، وفي هذه اللحظة تداعى أمامه جواد ضعيف من تلك الجياد التي بادلها القوزاق بجياد الفلاحين.

صاح أحد الفلاحين وهو يشير بيده يأسًا:

– ها قد حدث الأمر أمامك أيها القائد الرفيق[٢٦]، انظر إلى ما

(٢٦) تستخدم كلمة رفيق لا بالمعنى العادي، بل هو اللقب الذي أصبح مستخدمًا بين البلاشفة والشيوعيين، فالكل رفاق.

أعطاه رفاقك لرفاقي... أرأيت؟ ويفترض أن نستخدم هذه الجياد في العمل!

حينها صاح دياكوف بصوتٍ عال:

– مقابل هذا الجواد... لديك الحق يا رفيقي المحترم أن تطلب مقابل هذا الجواد خمسة عشر ألف روبل من احتياط الفرسان، وإن كان هذا الجواد أكثر قوة قليلًا لارتفع المبلغ يا رفيقي العزيز إلى عشرين ألف. أما بخصوص أن الجواد قد سقط، فهذا ليس أمرًا نهائيًّا، فقد يسقط الجواد ثم ينهض ثانية، ولكن إن سقط ولم ينهض ثانية، فحينها فعلًا لا يعود جوادًا صالحًا. لكني متيقن أني أستطيع أن أجعل هذا الجواد يقفز على قدميه ثانية.

حينها صاح الفلاح وهو يُلوِّح بيديه:

– آآه يا إلهى... يا سيدتي العذراء...كيف يمكن لهذا الجواد أن ينهض ثانية؟ إنه يحتضر!

أجابه دياكوف بصوت ينم عن قناعة عميقة:

– إنك تسيء لجوادك أيها الرفيق العزيز.... إنك تجدف تجديفًا صريحًا.

قال ذلك وخلع طاقم الفرس الجميل عن جواده. وهبط من على سرج جواده، باسطًا ساقيه الرشيقتين، وبدا أنيقًا جميلًا بحزامه الذي يطوق خصره، كما لو كان على خشبة أحد المسارح، وتقدم صوب الجواد الغارق في أنينه، تفرس الجواد بعينيه العميقتين العنيفتين

متجهمًا في وجه دياكوف، وبدا كما لو أنه يلعق بلسانه القرمزي أمرًا غير مسموع قد وُجِّه إليه، وشعر الجواد المنهك بقوة كبيرة انبعثت من يد هذا العجوز الذي بدا وكأنه «روميو»[٢٧] جديد، شاب ومتورد. تحركت الكمامة وارتجت أقدام الفرس، وقد شعر بنفاد صبر، واستبد به شعور بدغدغة لا تقاوم أسفل بطنه، فأخذ يرفس بقدميه ببطء، ونهض أخيرًا بحذر. شاهدنا جميعًا دياكوف يربت بيده الرقيقة وكمه الذي يهفهف فوق ذراعه، على الشعر المتسخ لعنق الفرس، والسوط ينهال على جانبه الدامي، ارتج جسد الفرس كاملًا، ونهض على أقدامه الأربعة تمامًا دون أن يبعد عينيه اللتين تشبهان عيني الكلب عن وجه دياكوف... هاتان العينان القلقتان الولهانتان.

حينها قال دياكوف للفلاح:

- هذا جواد حقيقي إذن!

ثم أضاف بنعومة:

- وأنت تشكو أيها الرفيق العزيز!

وألقى بعدته إلى جنديه المرافق له، وقفز قائد قوات احتياط الفرسان الدرجات الأربع لمقر القيادة في قفزة واحدة، وهو ينعطف ورداؤه الأوبرالي يهفهف من خلفه، ويختفي داخل مقر القيادة.

* * *

(٢٧) المقصود شخصية شكسبير الشهيرة في مسرحية روميو وجولييت.

السيد أبوليك

لقد أدارت حياة السيد أبوليك الفاتنة والحكيمة رأسي، كما تفعل الخمر العتيقة. بين حطام نوفوجراد فولينك... في تلك المدينة التي تنسحق سريعًا، ألقت الأقدار بإنجيل تحت قدمي... إنجيل قد حُجِب عن العالم! أمام هذا البريق المقدس الطاهر، وجدت نفسي أعطي نذرًا أن أتبع مثال السيد أبوليك. لقاء هذا النذر ضحَّيت بحلاوة الخبث الغامضة، والاحتقار المرير للأنذال والخنازير من البشر ونار الانتقام الصامتة والمبهجة.

ثمة أيقونة معلقة عاليًا على حائط شقة كاهن نوفوجراد الهارب، ومكتوب عليها: «موت المعمدان»[٢٨]. أدركت دون شك أني لا بد وأني قد رأيت هذا الوجه من قبل ذات مرة.

أتذكر خيوط العنكبوت الممتدة بين الحوائط المستقيمة والمشرقة في صباح صيفي، وقد ألقت الشمس بشعاعها على قاعدة الأيقونة، وثمة

(٢٨) المقصود يوحنا المعمدان، الذي ذُكِر في القرآن باسم يحيى بن زكريا.

طبقة لامعة من الغبار عليها، ووجدت جسد يوحنا فارع القامة يمتد أمامي من أعماق الصورة الزرقاء، ويرتدي هذا الجسد العنيد الهزيل إلى درجة مفزعة معطفًا أسودًا. تلمع قطرات من الدم فوق أزرة المعطف، أما رأس يوحنا فكانت منفصلة عن العنق المذبوح. كانت مستلقية فوق الصحن الخزفي الذي تمسك به تلك الأصابع الصفراء القوية للسيَّاف بقوة. بدا لي وجه يوحنا المذبوح مألوفًا. شعرت بالانفعال من هذا النذير الغامض. كان للرأس الميت المستلقي فوق هذا الصحن الخزفي وجه السيد روموالد، مساعد الكاهن السابق، وثمة جسد ثعبان صغير مرسوم بألوان زاهية يتدلى من داخل الفم. رأس الثعبان ملون بلون وردي رقيق، وبدت شديدة الحيوية على خلفية الرأس.

شعرت بالذهول من لوحة هذا الرسام، ومن قدرته المريعة على الابتكار. في اليوم التالي بدت لي صورة السيدة العذراء الوردية المعلقة فوق فراش الزوجية للسيدة إليزا أكثر مدعاة للدهشة. كانت السيدة إليزا زوجة الكاهن القديم. كلا اللوحتين من يد نفس الرسَّام. وجه والدة الإله السمين هو نفس وجه السيدة إليزا بالضبط. هنا وصلت إلى مفتاح لغز أيقونات نوفوجراد. لقد أوصلني اللغز إلى مطبخ السيدة إليزا حيث كان الحضور يحتشدون وتمضي ظلال الأمسيات العطرة لبولندا العجوز الذليلة، وعلى رأس الحضور أحد الفنانين الحمقى. ولكن هل كان السيد أبوليك أحمقَ حقًّا عندما رسم الملائكة بأوجه القرويين، وعبَّر عن القداسة بوجه يانيك ألكسي، المهتدي حديثًا إلى المسيحية؟

منذ ثلاثين عامًا وصل السيد أبوليك إلى هنا بصحبة جوتيفريد

الأعمى في أحد أيام الصيف الغامضة. اقترب الرفيقان أبوليك وجوتيفريد من حانة شميريل الواقعة على طريق روفنينسكي، على بعد ٢ فرست[٢٩] من المدينة. كان أبوليك يُمسك في يده اليمنى بصندوق يحوي ألوانه، وباليسري يقود صديقه الضرير. تهادت أصوات خطواتهم الرخيمة من مسامير نعال أحذيتهم الألمانية... تصاعد صوت يشي بالهدوء والأمل، وعلى العنق النحيل لأبوليك ثمة وشاح كناري، وثلاث ريشات بلون الشيكولاتة تتأرجح على قبعة الأعمى التيرولية[٣٠].

علَّقا اللوح والأكورديون على عتبات نوافذ الحانة. فكَّ الفنان الوشاح الملتف حول عنقه؛ ذلك الوشاح الذي بدا لا نهاية له وكأنه وشاح ساحر. ثم خرج إلى الساحة وخلع ثيابه كلها، وغمر جسده النحيل المريض بالمياه. جلبت زوجة شميريل لهما الفودكا والزبيب، وشرائح من اللحم. وبعد أن انتهى جوتيفريد من الطعام وضع الأكورديون على ركبتيه ناتئتي العظام. تنهد وأمال رأسه، وبدأ يحرك أصابعه النحيلة. ترددت أصداء نغمات أغاني هايدلبيرج على حوائط الحانة اليهودية. وانضم أبوليك إلى صاحبه الضرير بصوته الأبح. بدا الأمر كما لو أنهما قد جلبا الأورغان من كنيسة إنديجيلدا إلى حانة شميريل، واثنين من أرباب الشعر جاثمان بالقرب منه بأوشحتهما القطنية المبرقشة وأحذيتهما الألمانية.

أخذ الزبائن ينشدون حتى الغروب، ثم وضع بوليك ورفيقه

---

(٢٩) مقياس روسي للطول.

(٣٠) نسبة إلى تيرول وهي منطقة في غرب النمسا وشمال إيطاليا.

الكورديون في جرابه والألوان في حقيبتها، وانحنى أبوليك تحية لبراينا زوجة صاحب الحانة وقدَّم لها ورقة قائلًا:

– السيدة العزيزة براينا... من فضلك تقبلي من فنان متجول قد تم تعميده باسم أبوليناريوس هذه اللوحة المهداة إليكِ، دلالة على خضوعنا الذليل، امتنانًا لاستقبالكِ الكريم لنا. إن مدَّ ربنا يسوع في أيامي، ودعَّم من قدرتي الفنية، سأعود ثانية حتى أُلوِّن هذه اللوحة. سوف نضع اللؤلؤ على شعركِ، ونزين صدركِ بقلادة من الزمرد.

كانت تلك الورقة الصغيرة مرسومًا عليها بقلم رصاص أحمر ناعم وجه السيدة براينا الضاحك، محاطًا بتجعدات مرسومة بلون نحاسي.

حينها صاح شميريل بعد أن رأى صورة زوجته:

– نقودي!

وتناول عصا وأخذ يطارد بها ضيفيه. لكن أثناء المطاردة تذكر شميريل جسد أبوليك الوردي والماء منهمر عليه، والشمس تغرق ساحته بأشعتها، وصوت الأكورديون الهادئ. ابتهجت روح صاحب الحانة، وأخفض عصاه، وعاد إلى منزله.

في الصباح التالي عرض أبوليك على كاهن نوفوجراد شهادته التي تفيد بتخرجه من أكاديمية ميونخ، وعرض عليه اثنتي عشرة لوحة قد رسمها مستوحاة من موضوعات دينية. كانت تلك اللوح مرسومة بالزيت على لوح مصنوعة من خشب الأشجار. رأى الأب الكاهن على منضدته لوحات لعباءات أرجوانية اللون وحقول زمردية ومجموعات

كبيرة من الزهور قد أينعت في حقول فلسطين.

القديسون الذين يرسمهم بان أبوليك هم عبارة عن مزيج من الشيوخ الريفيين الجذلين، بلحى رمادية، ووجوه متوردة، يكتنفها الحرير وتشوبها قوة الأمسيات العظيمة.

في هذا اليوم حصل بان أبوليك على تكليف برسم أيقونات الكنيسة الجديدة، وأمر الكاهن بجلب الخمر للفنان، وقال له:

– يا أيتها العذراء المقدسة! من أي عالم رائع تتحدر عليك هذه النعمة الجذلة يا عزيزي أبولیناریوس!

كان أبوليك يعمل بحماسة شديدة، وفي غضون شهر تقريبًا كان الهيكل الجديد مليئًا بالقطعان[٣١]، ومشاهد الغروب المغبرة الذهبية، وضروع البقر باللون الأصفر الشاحب. كذلك ظهرت مناظر الجاموس ذوات الجلد البالي يكدحن أسفل النير، والكلاب بأفواههم الوردية يركضن أمام القطعان، ومهد الطفل يسوع متدلٍّ من جذوع الأشجار متأرجحًا، وبداخله جسد الطفل الممتلئ. رسم أبوليك أيضًا الرهبان الفرنسيسكان بعباءاتهم البنية وقد أحاطوا بمهد الطفل يسوع. كانت هناك أيضًا حشود المجوس[٣٢] برؤوسهم الصلعاء، وتجعداتهم الحمراء التي تبدو كالجروح. بين حشود المجوس تلألأت تلك الصلعة

(٣١) صورة الماعز والخراف مع راعيها هي أحد الصور المسيحية المنتشرة، فقد شبَّه المسيح نفسه بالراعي الصالح الذي يبذل نفسه عن الخراف.

(٣٢) المجوس هم بعض من حكماء فارس وإيران، وقد أتوا حسب القصة الإنجيلية إلى الطفل يسوع عند ولادته متتبعين نجمًا يشير إلى ولادة ملك، وقادهم النجم حتى مذود البقر الذي ولد فيه الطفل يسوع.

المضحكة التي للبابا ليو الثامن، وحتى كاهن كنيسة نوفوجراد الذي كلف أبوليك بالرسومات كان هناك أيضًا، ممسكًا بمسبحة صينية في يده اليمنى ، وباليسرى يرشم علامة الصليب على الطفل يسوع المولود لتوه.

خمسة شهور كاملة كان أبوليك يتقدم فيها من حائط للآخر، سجينًا لمقعده الخشبى أمام الحائط أو تحت القبة أو عند خورس الشمامسة.

ذات مرة قال له الكاهن بعد أن اكتشف وجهه بين أحد وجوه المجوس، وكذلك وجه السيد روموالد وقد مثلت ملامحه رأس يوحنا المعمدان المذبوحة:

– لديك ولع برسم الأوجه المألوفة يا عزيزي أبوليك.

ابتسم الكاهن العجوز، وطلب زجاجة كونياك للفنان العامل تحت القبة.

ثم أنهى أبوليك رسم العشاء الرباني الأخير، وكذلك مشهد رجم مريم المجدلية[٣٣]. في أحد أيام أعياد القيامة كشف عن رسوماته التي رسمها على الحوائط. اكتشف المواطنون البارزون والكهنة الزائرون أن الرسول بولس قد رُسم بوجه يانيك؛ ذلك الأعمى المتحول حديثًا إلى المسيحية، وأن وجه مريم المجدلية هو وجه تلك الفتاة اليهودية إلكا، وهي فتاة مجهولة النسب، وأم لحشد من الأطفال الذين يجوبون الشوارع. أمر المواطنون المبجلون بالتخلص من هذه اللوح النجسة.

(٣٣) لم تؤكد القصة الإنجيلية أن المرأة التي كانت سوف ترجم قبل إنقاذ المسيح لها هي مريم المجدلية.

توعد الكاهن ذلك المهرطق باللعنات، لكن أبوليك لم يطمس الصور التي رسمها على الحوائط.

وهكذا بدأت حرب غير مسبوقة بين الكنيسة الكاثوليكية العظيمة من جهة، وبين رسام الأيقونات المستهتر من جهة أخرى. استمرت الحرب لثلاثة عقود. أدى هذا الوضع لتحويل هذا الهائم في دنيا الله إلى مبتدع هرطقة جديدة. كان من شأن أبوليك أن يكون واحدًا من أصعب الهراطقة وأكثرهم إثارة للضحك في كنيسة روما بأكملها... مهرطق شديد المراوغة والشغب.... مهرطق يشعر بالجزل الشديد عندما يراقب نباتات الجنجل وهي تنمو من سطح الأرض، ولديه فأران أبيضان، واحد في صدره ، وآخر في جيب ثيابه البالية.

– ثمن لوحة مريم العذراء خمسة عشر زلوت[٣٤]، وخمسة وعشرون لصورة العائلة المقدسة، وخمسين للعشاء الأخير وتحوي وجوه كافة أسرة الزبون. من الممكن الاستعانة بوجه الأعداء في تصوير يهوذا الاسخريوطي[٣٥]، وهذا سيستلزم إضافة ١٠ زلوت أخرى.

هذا ما قاله أبوليك للفلاحين المحيطين به، بعد أن طردوه من الكنيسة الجديدة التي يجري تشييدها.

لم تنقصه الطلبيات أبدًا، ولذلك عندما وصلت لجنة من طرف أسقف جيتومير بسبب كم الاستدعاءات المسعورة التي كان يقوم بها كاهن نوفوجراد، وجدت هذه الصور العائلية الشنيعة الدنسة الساذجة

(٣٤) وحدة النقد البولندية.

(٣٥) التلميذ الخائن الذي باع معلمه يسوع لليهود كي يقبضوا عليه مقابل ثلاثين من الفضة.

في أكثر الأكواخ نتانة وفقرًا. كانت هناك صور عديدة ليوسف النجار، بشعره الرمادي المفروق إلى قسمين، وصور للمسيح داهنًا شعره بالزيت، والعديد من الصور لمريم وقد ولدت طفلها لتوها وتبدو في هيئة قروية، وهي تضع طفلها فوق ركبتيها.... كل هذه الصور كانت معلقة على الزوايا الحمراء، تحيط بها أكاليل من زهور ورقية.

- لقد جلب القداسة إلى حياتكم المدنسة.

هكذا صاح أسقف دوبنو ونوفوكونستانتينوف، مجيبًا الجمع الذي يدافع عن أبوليك. أكمل:

- لقد أحاطكم بقداسة لا يمكن التعبير عنها، لكنكم قد سقطتم في وحل خطايا: العصيان -تقطير الخمر- الربا الوحشي- الغش في الأوزان وبيع بناتكم البريئات!

حينها أجاب فيتولد الأعرج حارس المقابر، والذي يتدبر أمور البضائع المسروقة:

- أين حق الله كلي الرحمة قداستكم، ومن يوضحه للشعب الغارق في ظلمات الجهل؟ أليست لوحات السيد أبوليك التي تلائم كبرياءنا تحمل من الحق أكثر مما تحمله كلماتك المليئة بالانتقادات والغضب الذي يشي بالكبرياء؟

دفعت صيحات الجماهير الأسقف إلى الفرار. وانتشر مزاج عام في ضواحي المدينة هدَّدت أمن رجال الإكليروس. لم يستطع الفنان الذي استدعته الكنيسة عوضًا عن أبوليك أن يحسم أمره بطمس رسومات

إلكا ويانيك الأعرج. يمكن رؤية تلك الرسومات الآن في الجناح الجانبى من كنيسة نوفوجراد: يانيك في هيئة القديس بولس، كسيح رعديد ذو لحية سوداء مثل تلك التي لأحد الزنادقة، وتلك المومس في هيئة المجدلية... امرأة مريضة مجنونة ذات جسد متمايل وخدود غائرة.

استمرت الحرب مع الكاهن لثلاث عقود، ثم أدى تدفق القوزاق إلى طرد الراهب العجوز من كوخه الحجري عبق الرائحة، أما أبوليك، فيا لتقلب الأحوال والظروف! أقام أبوليك في مطبخ السيدة إليزا، وها أنا ضيف عابر أرتشف في الليالي خمر أحاديثه المُسكرة.

وعمَّ كانت هذه الأحاديث؟ عن تلك الحكايات الرومانسية القديمة لنبلاء بولندا القدماء، وعن النوبات المسعورة التي تصيب النساء، وعن الفنان لوقا ديلا روبيا[٣٦] وعن أسرة نجار بيت لحم[٣٧].

يقول لي أبوليك قبل العشاء:

– ثمَّ شيء أود أن أخبرك به سيدي الموظف.

– نعم... نعم... تفضل. كلي آذان صاغية.

ولكن السيد روباتسكي خادم الكنيسة المُكرَّس، وهو رجل عجوز قاسٍ نحيل، يحاول التصنت، ويجلس قريبًا جدًّا منا، وهو يشي لنا في صمت بحالة من العداء.

يهمس أبوليك وهو يتنحى بي جانبًا:

(٣٦) نحات إيطالي ١٣٩٩ – ١٤٨٢.

(٣٧) المقصود يوسف النجار خطيب السيدة العذراء مريم.

– يمكنني أن أقول لك يا سيدي إن يسوع ابن مريم كان متزوجًا من دبورة، وهي عذراء من أورشليم مجهولة النسب.

صاح السيد روباتسكي في يأس:

– يا له من رجل! لن يموت على فراشه... يستحق القتل.

دمدم أبوليك:

– بعد العشاء.... بعد العشاء، إن كان هذا يلائم سيدي الموظف.

وكان هذا يناسبني... وجدت نفسي أذرع أنحاء المطبخ مستثارًا من هذه البداية المشوقة لأبوليك، في انتظار ذلك الموعد المرتقب. الليل رابض خلف النافذة كعمود أسود، وتلوح للأنظار هذه الحديقة القاسية المظلمة. يبدو الطريق إلى الكنيسة أسفل ضوء القمر كنهر متدفق لبني. تدثرت الأرض بلمعة كئيبة، واكتست الأجمة بسوار من الثمار اللامعة. رائحة السوسن قوية وصافية كرائحة الكحول. يندفع هذا السم الطازج الثري المستعر إلى الموقد، ويقضي في طريقه على تلك الرائحة البليدة لخشب التنوب المتناثر في أنحاء المطبخ.

ها هو أبوليك يتسكع مرتديًا وشاحه الوردي، وسرواله البالي القرمزي، يتسكع في إحدى الزوايا كحيوان ودود رشيق. يملأ الغراء والألوان سطح منضدته، ويؤدي العجوز عمله بحركات طفيفة يكررها مرة تلو الأخرى، فتتهادى أصوات طفيفة متناغمة من الزاوية القابع فيها. يعمل العجوز جوتفريد بأصابع مرتعشة. يجلس الأعمى ثابتًا تحت ضوء المصباح الأصفر الزيتي. تنخفض رأسه الصلعاء، ويستمع لتلك

الموسيقى السرمدية التي تحيط بكل ضرير، وكذلك لتمتمات صديقه الأبدي أبوليك.

- الباباوات ورواة الأناجيل متى ومرقس لا يخبرونك الحقيقة يا سيدي، ولكن الحقيقة يمكن أن يُسدل عنها الحجاب لك يا سيدي الموظف، فأنا على استعداد لرسم القديس فرانسيس[٣٨] بوجهك أنت مقابل خمسين مارك على خلفية من الزروع الخضراء والسماء. لقد كان القديس فرنسيس بسيطًا للغاية، وإن كان لسيدي الموظف عروس في روسيا، فاعلم يا سيدي أن النساء يحببن القديس فرنسيس للغاية، مع أن النساء ليسوا جميعًا تـ.....

هكذا بدأت قصة زواج يسوع ودبورة[٣٩] في ذلك الركن الذي يعبق برائحة خشب التنوب. طبقًا لحكاية أبوليك، كان لدبورة عريسها بالفعل. لقد كان شابًّا اسرائيليًّا يعمل بتجارة العاج. لكن ليلة زفاف دبورة قد انتهت بالدموع والذهول. استولى الخوف على العروس عندها رأت زوجها يقترب منها، وأصابتها الحازوقة، فتقيأت كل ما تناولته من طعام على مائدة الزفاف. اكتنف الخزي دبورة وأبيها وأمها وكل أقاربها. فارقها عريسها، وهو يهزأ بها، وجمع كافة الضيوف. حينما رأى يسوع ضعف المرأة التي تنتظر زوجها وتخشاه، ارتدى ثياب عريس... إنه كلي الرحمة، ولذلك مضى واتحد بدبورة الغارقة

(٣٨) فرانسيس الأسيزي واحد من أشهر قديسي الكنيسة الكاثوليكية.

(٣٩) حسب القصة الإنجيلية لم يتزوج يسوع من أحد، أما اسم دبورة فهو يعود لاسم إحدى النساء اللاتي كن قاضيات لبني اسرائيل في الزمن القديم. لقد كانت بمثابة نبية. لذا فأبوليك هنا يروي قصصًا تفيض بالغرابة.

في قيئها. بعد ذلك خرجت دبورة إلى الضيوف ببهجة صاخبة كامرأة تفتخر بذبولها. وحده يسوع من تنحى جانبًا. كان متعرقًا بفظاعة، وقلبه يستشعر وخزات حادة كوخزات النحل. فارق المكان دون أن يلاحظه أحد، ومضى إلى الصحراء في شمال اليهودية حيث كان يوحنا في انتظاره. أنجبت دبورها وليدها الأول.

حينها صحت:

- وأين هو؟

- لقد أخفاه الكهنة.

هكذا أجاب أبوليك بجاذبية خاصة وهو يُوجِّه إصبعه المرتجف الصغير صوب أنفه السكرانة.

صاح روباتسكي فجأة:

- أيها الرسَّام! ماذا تقول؟ لم يسمع أحد عن ذلك من قبل.

ولاح من قلب الظلام، وتحركت أذناه الرماديتان. وحينها ارتجف أبوليك وقال وهو يجذب جوتفريد:

- حسنًا... حسنًا...

وأمسك بصديقه الأعمى وتوجها معًا صوب باب الخروج، لكنه تباطأ قليلًا عند عتبة الخروج، وأشار لي بإصبعه وهو يقول لي همسًا ويغمز لي بعينه:

- القديس فرنسيس... وسأرسم أيضًا طائرًا على يديك؛ حمامة أو

حسونًا[٤٠] أو ما يرغب فيه سيدي الموظف.

واختفى مع صديقه الأبدي، ذلك الأعمى. حينها صاح روباتسكي خادم الكنيسة:

- يا للحماقة! هذا الشخص لن يموت على فراشه أبدًا.

وفتح السيد روباتسكي فاه على آخره وتثاءب كالهريرة. ودَّعته وغادرت صوب أصدقائي اليهود اللصوص كي أنام.

كان القمر يتسكع فوق المدينة شريدًا بلا مأوى، فمضيت معه، وتدثرت بأحلام خيالية وأغانٍ متنافرة كي أشعر بالدفء.

* * *

(٤٠) نوع من العصافير.

شمس إيطاليا

بالأمس جلست ثانية بصحبة السيدة إليزا، نستدفئ بحرارة سيقان شجر التنوب. جلست أمام الموقد الدافئ الحيوي. إنه موقد عنيد حقًّا. عدت بعدها إلى ليلي العميق. بالخارج أسفل الجرف، كانت مياه نهر زبروتش الهادئة تتدفق في موجات معتمة هادئة.

المدينة المحروقة... الأعمدة المكسورة العالقة في الأرض، والصنارات الشريرة، والأصابع العجوز... كل ذلك بدا لي وكأنه يتصاعد في الهواء إلى الأبد، ويبعث في الدفء كالحلم. أما اللمعان العاري للقمر، فكان يتدفق على صفحة النهر بقوة لا يمكن إطفاؤها. أزهرت هذه العفونة الرطبة من قلب الأرض كصف من الرخام فوق أرضية مسرح الأوبرا. انتظرت بروح يملأها الانزعاج خروج روميو من خلف السحاب... روميو لامع، ينشد أغاني الحب، بينما ينتظر كهربائي كئيب من خلف الكوابيس حتى يضغط بإصبعه على زر إطفاء القمر.

تدفقت الطرق الزرقاء بالقرب مني كجداول من اللبن تنهمر من أثداء عديدة. كنت أخشى أن ألتقي بجاري سيدوروف في طريق عودتي للمنزل، فهو يسقط عليَّ في الليالي ويصب عليَّ معاناته. لحسن الحظ، لم ينبس سيدور بشفة في هذه الليلة التي يمزقها ذلك القمر اللبني. وجدته منخرطًا في الكتابة وقد أحاط نفسه بالكتب. انبعث الدخان على منضدته من شمعة منحنية... شمعة متقدة بالنيران الشريرة التي للحالمين. جلست في إحدى الزوايا، وغلبني النعاس، وتقافزت من حولى أشباح النوم كالهريرات. لم أستيقظ إلا في وقت متأخر من الليل، وذلك على يد ذلك الرسول الذي أتى ليستدعي سيدوروف إلى مقر القيادة. غادرا معًا. هرعت حينها إلى المنضدة التي كان سيدوروف متكئًا عليها يكتب، وتفحصت الكتب. كان هناك كتاب لتعليم اللغة الإيطالية، وكذلك خريطة لمدينة روما. كانت الخريطة مليئة بالعلامات والصلبان. انحنيت مقتربًا من الخريطة وبقلب مرتجف وأصابع مرتعشة بدأت في قراءة خطاب آخر وجدته على المنضدة. لقد قام سيدوروف القاتل العليل بتمزيق خيالي الوردي، وجرَّ إنسانًا صحيح العقل إلى جنونه. بدأت بقراءة الصفحة الثانية، فلم أمتلك الشجاعة الكافية للبدء من الأولى:

«.... وأصابت الرئة، وشعرت بأني سأفقد عقلي، أو سأصاب بالجنون كما يقول سيرجي. حسنًا... عندما تُصاب بالجنون، فأنت لا تُصاب؛ بل تُبتلى. حسنًا... دعنا لا نخلط بين الجد والمزاح. فلنعد إلى ما حدث في هذا اليوم يا صديقتي فيكتوريا.

لقد شاركت لثلاثة أشهر في حملة ماخنو[٤١]، ولم أجد سوى الإنهاك والاحتيال. فولين وحده من بقي هناك. إنه ينتحل مظهر رسول، متسلقًا السلم ليصبح لينين الذي للأناركيين[٤٢]. إنه أمر مفزع حقًّا. ماخنو يستمع إليه ويربت على شعره المجعد المُغبِّر، وتلوح ابتسامته الأفعوانية من بين أسنانه النتنة. أنا لا أعرف الآن ما إن كانت هناك بذور أناركية خبيثة وسط ذلك أم لا، وما إن كان سيتوجب علينا بذلك أن نمسح أنوفكم؛ أنتم أفراد التسيكا[٤٣] المنتحلة في عاصمتكم المنتحلة خاركوف[٤٤]! لا يفضل أبطالكم ذوو الرداء المخطط أن يتذكروا خطايا الأناركية التي ارتكبوها في شبابهم، ويسخرون من أنفسهم على طريقة من اكتسبوا حكمة الدولة السامية.... اللعنة عليهم!

ثم انتهى بي الأمر في موسكو. كيف حدث ذلك؟ لقد أساء الرفاق إلى أحدهم. كان الأمر بخصوص عملية استيلاء أو شيء كذلك. حسنًا... كنت أحمقَ كفاية فدافعت عنه، وبسبب هذا نلت منهم ما يكفي. كان الجرح بسيطًا، لكني في موسكو... آآه يا فيكتوريا.... أصابتني الكوارث بالخدر. كانت الممرضات يجلبن لي كل يوم حساء

(٤١) نستور إيفانوفيتش ماخنو ١٨٨٩ – ١٩٣٤. أحد القادة الأناركيين.

(٤٢) هناك تناقض شديد في الرؤى بين الأناركيين والشيوعيين، فبينما يسعى الأناركيين لتدمير أي سلطة مركزية، سعى الشيوعيين إلى تركيز السلطة في يد طبقة البروليتاريا وإقامة نوع من رأسمالية الدولة، على أساس أنها سوف تكون خطوة قبل تلاشي نظام الدولة تمامًا.

(٤٣) تسيكا هي اللجنة المركزية للحزب البلشفي.

(٤٤) خاركوف مدينة في شمال شرق أوكرانيا، وعملية الانتحال المقصود بها هنا اختيار السلطة السوفيتية لخاركوف لتكون العاصمة بدلًا من العاصمة القديمة كييف، وذلك في أعوام ١٩١٧ وحتى ١٩٣٤.

الشعير. يأتين بالحساء بكل وقار على أطباق كبيرة، وكنت أمقت بشدة هذا الحساء الغريب، الذي يشكل نوعًا غريبًا من الطعام مُجهَّز خصيصًا لموسكو. التقيت بعدها في المجلس بحفنة من الأناركيين. إما تجدهم شيوخًا متأنقين أو مرتجفين. ذهبت إلى الكرملين وفي حوزتي خطة لعمل حقيقي. ربتوا علي رأسى، ووعدوني بإحدى الوظائف الجيدة إن غيَّرت من أساليبي. لم أغيِّر أساليبي. ماذا حدث أيضًا؟ أتى دور الحديث عن الجبهة: سلاح الفرسان والجنود ورائحة الدماء الطازجة والفضلات البشرية.

النجدة يا فيكتوريا.... إن هذه الحكمة اللعينة التي للدولة تكاد تبعث بي إلى الجنون والخمر من فرط الملل. إن لم تساعديني، سوف أموت دون أي خطة. من ذاك الذي يريد أن يموت موظفًا هكذا من تلقاء نفسه دون خطة؟ قطعًا لستِ أنتِ يا فيكتوريا يا فتاتي التي لن تصبح عروسي أبدًا! ربما أتحدث بشكل عاطفي مجددًا... اللعنة!

دعنا نتحدث الآن عن الأمور المهمة. أشعر بالملل في الجيش. لا يمكنني امتطاء الجواد بسبب إصابتي، وهذا يعني أني لا يمكنني أن أقاتل. استخدمي نفوذكِ يا فيكتوريا بحيث يرسلونني إلى إيطاليا. الآن أدرس الإيطالية، وفى غضون شهرين سوف أستطيع أن أتحدثها. الأجواء هناك مشتعلة، وكثيرون على أتم الاستعداد. كل ما هم في حاجة إليه هو قليل من الطلقات. سأطلق واحدة منها. علينا أن نجعل الملك هناك يلحق بأسلافه. هذا أمر شديد الأهمية. إنه رجل لطيف عجوز يلعب من أجل الشهرة ويجعلهم يلتقطون له الصور مع أولئك الاشتراكيين المروضين

كي تُنشر في المجلات من أجل القراءة العائلية!

لكن المرء لا يمكنه أن يقول شيئًا عن إطلاق النيران أو عن الملوك في التسيكا أو في مفوضية الشعب للشؤون الخارجية، فهناك سوف يربتون على رأسه ويقولون: «يا له من عاطفي!». قولي لهم ببساطة: إنه مريض.. إنه شرير... إنه يسكر من فرط الملل... إنه يريد أن ينعم بشمس إيطاليا وبشجر الموز! هل يستحق ذلك أم لا؟ سوف يسترد عافيته، وهناك أيضًا سيجد المكرونة الإيطالية. وإن لم يتعافَ فأرسلوه إذَنْ إلى التشيكا[٤٥] بأوديسا. إنهم هناك يتمتعون بالرجاحة الكافية.

يا للغباء الذي أكتب به يا صديقتي فيكتوريا! لقد استحوذت عليَّ إيطاليا كما تستحوذ الأوهام على المرء. مجرد التفكير في هذا البلد الذي لم أره أبدًا يمتعني جدًّا كما يفعل بي التفكير في اسمكِ يا فيكتوريا!».

أنهيت قراءة الخطاب ثم استلقيت على فراشي القذر، لكن النوم جافى عينيَّ. تناهى إليَّ من خلف الحائط صوت بكاء اليهودية الحبلى. كانت تبكي بحرقة، ويجيبها زوجها الطويل بتأوهات وتمتمات. كانا يتذكران ما سُرِق منهما، ويلوم كل منهما الآخر بحقد على سوء طالعهما. وبعدها، قرابة الفجر تقريبًا عاد سيدوروف. انطفأت الشمعة التي كانت على المنضدة، فأخرج واحدة من حذائه وأشعلها وهو مستغرق بعمق في الفتيلة الذابلة. كانت غرفتنا مظلمة وكئيبة، ولا تنبعث فيها سوى رائحة كريهة رطبة بالمساء. بها نافذة واحدة يلوح عبرها ضوء القمر،

(٤٥) لجنة تحقيقات أُنشئت بأوديسا في عام ١٩١٧ لتحقق في الأعمال المناهضة للثورة، وتحولت بعد ذلك إلى جهاز المخابرات السوفييتية.

فيبدو وكأنه الخلاص الوحيد.

وصل رفيقي الأبدي وأخفى الخطاب. انحنى إلى الأمام وجلس على المقعد، وبسط خريطة روما. لاح أمام وجهه الزيتوني الكئيب كتاب ذو إطار ذهبي. ولمعت على ظهره أطلال الكابيتول[٤٦] وحلبة الألعاب (الكولوسيوم) تحت ضوء الشمس الغاربة. كانت صورة الأسرة الملكية موجودة هي الأخرى هناك بين الأوراق الكبيرة اللامعة. على المفرش كانت هناك أوراق منتزعة من التقويم، مرسوم عليها الملك اللطيف الواهن فيكتور عمانوئيل[٤٧] بصحبة زوجته ذات الشعر الأسود الفاحم، ووريثه أومبيرتو ومجموعة كبيرة من الأميرات.

إنه المساء... مليء بالأصوات المجهدة البعيدة، ومربع الضوء في قلب الظلمة الحالكة، وداخل هذا المربع هناك وجه سيدوروف المربع، وقناع ميت يرفرف على ضوء لهيب الشمعة الأصفر.

* * *

(٤٦) معبد الإله جوبيتر في روما.

(٤٧) فيكتور عمانوئيل الثالث، آخر ملوك مملكة إيطاليا، وابن الملك أومبيرتو الأول وأبو الملك أومبرتو الثاني، ولد في ١١ نوفمبر ١٨٦٩، في مدينة نابولي في إيطاليا وتوفي في ٢٨ ديسمبر١٩٤٧ بمدينة الإسكندرية في مصر ودفن بها ثم أعيد جثمانه إلى إيطاليا بعد سبعين عامًا ليدفن في مدينة فيكوفورتي الإيطالية في ديسمبر ٢٠١٧

جيدالي

في أمسيات السبت[٤٨] دائمًا ما يضنيني حزن الذكريات... في الماضي في مثل هذه الأمسيات كانت لحية جدي الصفراء تربت على أطراف مجلدات بن عزرا، بينما تمضي جدتي بقلنسوتها المربوطة حول عنقها وأصابعها المعقودة وكأنها تلقي تميمة على ضوء شمعة السبت، وتنشج نشيجًا عذبًا. في مثل هذه الليالي يتمايل القلب الطفولي، كالقارب الذي يبحر في عباب المياه المسحورة.

أنعطف من عند جيتومير، وأبحث عن تلك النجمة الخجولة. بالقرب من المعبد القديم، ثمة بعض اليهود المسنين يبيعون الطباشير عند حوائطه الصفراء اللامبالية... يبيعون أيضًا ألوان الصباغة وفتائل الشمع... إنهم يهود ذوو لحى تشبه لحى الأنبياء، يرتدون خرقًا مريعة على صدورهم الغائرة.

يمكنني أن أرى أمامي السوق، وكذلك اندثاره. لقد قُتِلت تلك الروح الخصبة للوفرة. الأقفال الصامتة مُعلَّقة على أبواب المتاجر، والأرصفة الجرانيتية في الشارع نظيفة، كجثمان رجل أصلع... وها هو النجم الخجول يبرق ويخفت.

---

(٤٨) يوم السبت عند اليهود هو يوم مقدس مخصص للراحة كما أمر الرب في الأسفار المقدسة.

أصبت نجاحًا بعد ذلك، فلم يأتني النجاح إلا قبل غروب الشمس بقليل. كان متجر جيدالي متواريًا بين صفوف المتاجر المغلقة. آآه يا ديكنز[٤٩]... أين كان ظلك في هذه الليلة؟ لو كنت موجودًا لشاهدت في هذا المتجر أحذية ذهبية، وحبال سفن وبوصلة عتيقة ودمية على شكل نسر، وبندقية أنيقة من طراز وينشستر، محفور عليها تاريخ ١٨١٠، وكذلك قِدرًا مكسورًا.

ها هو جيدالي العجوز يتسكع حول كنوزه في هذا المساء الوردي الفارغ... إنه مالك صغير، يرتدي عدسات معتمة ومعطفًا أخضر طويلًا يلامس الأرض. يفرك يديه البيضاء، ويمسك بلحيته الرمادية، ثم يميل برأسه ويسمع أصواتًا لا يسمعها أحد غيره... أصوات تهفو إليه.

يبدو هذا المتجر كصندوق صبي فضولي، سوف يصبح في يوم ما أستاذًا في علم النباتات. كل شيء في هذا المتجر؛ بداية من الأزرة، وحتى الفراش الميت. أما صاحب المتجر فيُدعَى جيدالي. غادر الجميع السوق، وبقي هو وحده. ها هو يسير داخل متاهة من الكرات والجماجم والزهور الميتة، وينفض التراب بفرشاته الريشية من على الزهور الميتة.

نجلس على أحد براميل الجعة. يلوي جيدالي شعيرات لحيته الصغيرة ويعيد عدلها ثانية، وتهتز قبعته من فوقنا كبرج أسود. يهب تيار هواء بارد بالقرب منا، وتُبدِّل السماء ألوانها. يتدفق دم لطيف من زجاجة مقلوبة هناك بالأعلى، وتكتنفني روائح التحلل.

---

(٤٩) الإشارة إلى قصة ديكنز: **The Old Curiosity Shop**.

– دعنا نقول نعم للثورة. ولكن أهذا يعني أن نقول لا للسبت[٥٠]؟

هكذا يبدأ جيدالي الحديث، ويلفني بأشرطة حريرية وكأنها تنطلق من عينيه المعتمتين.

– نعم للثورة... سأقول نعم للثورة، لكنها تحجب نفسها عن جيدالي، ولا ترسل شيئًا للأمام سوى طلقات النيران.

أُجِيب الشيخ قائلًا:

– لا يمكن للشمس أن تخترق أعينًا قد أغلقت جفونها.

يهمس الشيخ بصوت خفيض:

– لقد أغلق البولندي عيني. البولندي! يا له من كلب شرير! إنه يقبض على اليهودي ويشد لحيته... آآه من هذا الكلب! الآن يضربون هذا الكلب الشرير. هذا أمر عظيم، وهذه هي الثورة! ولكن بعدها سيقول لي هذا الرجل الذي ضرب البولندي: «أعطنا الجرامافون الذي لديك يا جيدالي». حينها سأجيب الثورة قائلًا: «أنا أحب الموسيقى يا سادة». «أنت لا تعرف ماذا تحب يا جيدالي. إن عرفت سأطلق عليك النار، فأنا لا أستطيع إلا أن أفعل ذلك، فأنا الثورة».

حينها أجيب العجوز قائلًا:

– ولكن الثورة يمكنها أن تطلق النار، لأنها الثورة!

– ولكن البولندي فعل ذلك يا سيدي العزيز؛ لأنه مناهض للثورة. أنتم تطلقون النار لأنكم الثورة. ما الثورة سوى السعادة، والسعادة لا تحب أن

(٥٠) المقصود عد الحفاظ على شريعة يوم السبت المقدس.

يكون هناك أيتام في منزلها. الأفعال الصالحة تنتج إنسانًا صالحًا. الثورة هي فعل صالح لأناس صالحين، والصالحون لا يقتلون. إذَنْ هناك أناس أشرار يقومون بثورة. البولنديون هم أيضًا أشرار. من الذي يمكنه أن يخبر جيدالي أين هي الثورة وأين هي الثورة المضادة؟ منذ زمن كنت أدرس التلمود، وكنت أحب تعليقات راشي[٥١]، وكتب موسى بن ميمون[٥٢]. هناك كثيرون آخرون يفهمون ذلك في جيتومير. جميعنا -نحن المثقفون- نسقط على وجوهنا ونصرخ بأعلى صوت: «يا ويلنا! أين هي تلك الثورة الحلوة!».

صمت العجوز. شاهدنا النجم الأول يتهادى في مجرة درب التبانة.

قال جيدالي باهتمام شديد:

- السبت يقترب. على اليهود أن يذهبوا إلى المعبد. سيدي الرفيق...

تحدث وهو ينهض من مكانه، وقبعته تهتز فوق رأسه كبرج أسود، وأكمل قائلًا:

- فلتأت إلى جيتومير ببعض من الرجال الصالحين. لدينا نقص منهم في مدينتنا... آآه... نقص كبير. ائتنا ببعض الصالحين، وسنعطيهم كافة الجرامافونات التي لدينا. لسنة جهلة. نعرف ماذا تعني كلمة

(٥١) حاخام فرنسي من العصور الوسطى، تعد إسهاماته الأهم بين اليهود الإشكناز في دراسة التوراة. اشتهر بكتابة تفسير شامل للتلمود، بالإضافة إلى تفسير شامل للتاناخ. اعتُبر راشي «كأب» لكل التفسيرات التي تلت تفسيره للتلمود.

(٥٢) أبو عمران موسى بن ميمون بن عبيد الله القرطبي المشهور في الغرب باسم ميمونيديس ويشار إليه كذلك باسم «رمبم»، واشتهر عند العرب بلقب الرئيس موسى، كان فيلسوفًا يهوديًّا سفارديًّا ثم أصبح من أكثر علماء التوراة اجتهادًا ونفوذًا في العصور الوسطى. في زمنه، كان كذلك عالم فلك وطبيبًا بارزًا.

«إنترناشيونال»[٥٣]... نعرف جيدًا... أنا أريد لجنة إنترناشيونال مُكوَّنة من أناس صالحين. أريد أن تُحصى كل نفس وأن تأخذ مؤنتها من الدرجة الأولى. أريد أن اقول لكل نفس: تناولي طعامك... استمتعي بنصيبك من الحياة. ليست لديك فكرة أيها الرفيق كيف يلتهمون الإنترناشيونال.

- يأكلونها بالبارود، ويُتبِّلونها بأجود أنواع الدماء.

هكذا أجيب العجوز. ثم اعتلى يوم السبت الشاب عرشه. أقول:

- جيدالي... اليوم هو الجمعة، وقد حل المساء[٥٤]. أين يمكنني أن أجد بعض البسكويت اليهودي، وكوب شاي يهودي، وبعضًا من هذا الإله المتقاعد داخل كوب شاي؟

أجابني جيدالي وهو يلقي نظرة على صندوقه:

- لا يمكنك أن تجد ذلك. هناك مطعم قريب، وأناس صالحون يبيعون فيه، لكنهم لا يأكلون شيئًا هناك.. إنهم يبكون فقط.

قال ذلك وعقد أزرة معطفه الأخضر الثلاثة. أبعد التراب عن نفسه بفرشاة من ريش الديك، ونثر بعض الماء على راحتي يديه، ومضى بعيدًا بقبعته السوداء، وحيدًا، ضئيلا، حالمًا، ممسكًا بكتاب صلوات كبير أسفل ذراعه.

حلَّ يوم السبت. ومضى جيدالي للصلاة... جيدالي الذي أسس لجنة إنترناشيونال وهمية!

---

(٥٣) المقصود بها منظمة تأسست في موسكو من قبل أعضاء اثنتي عشرة دولة لنشر الشيوعية في العالم.

(٥٤) حسب الطريقة اليهودية ما إن يحل المساء حتى يعتبرون أن اليوم التالي قد بدأ، فحينما يحل المساء في يوم الجمعة، يكون بذلك السبت الطقسي قد بدأ.

إوزتي الأولى

ما إن شاهدني زافيتسكي؛ قائد الكتيبة السادسة، حتى نهض من مكانه. شعرت حينها بالذهول من جمال هذه القامة العملاقة. نهض بسرواله القرمزي، وقلنسوته الأرجوانية المائلة على أحد جانبيها، وميدالياته المعلقة على صدره، وشق الكوخ نصفين كعلم يشق صفحة السماء. كانت تنبعث منه رائحة عطر وصابون حلو بارد. بدت ساقاه الطويلتان كفتاتين محبوستين داخل أحذية طويلة الرقبة حتى الكتف!

ابتسم لي، وضرب المنضدة بسوطه، والتقط الأمر الذي أصدره للتو قائد القوات. كان أمرًا لإيفان تشيسنوكوف بالتقدم صوب تشوجونوف دوبريفودكا، بصحبة من يأتمنه من القوات، ومواجهة العدو وتدميره.

بدأ قائد الكتيبة يكتب على الورقة بينما يقول: «تلك المسؤولية يتحملها تشيسنوكوف كاملًا، وإن فشل فيها سيتعرض لأقصى درجات العقوبة، وبالطبع لا يمكنك الشك في ذلك أيها الرفيق تشيسنوكوف، وقد عملت معي على الجبهة منذ مدة».

وقَّع قائد الكتيبة السادسة الأمر بخط أنيق، وألقاه لجندي الخدمة الذي لديه ثم نظر إليَّ بعينيه الرماديتين اللتين تشعان بالفرح.

قدَّمت له أوراق تعييني بالعمل في مقر القيادة. قال لي:

- كيف أنفذ مثل هذا الأمر؟ كيف أرسلك إلى المتع بدلًا من المؤن[٥٥]؟ ألا تستطيع القراءة والكتابة؟

أجبته وأنا أحسده بشدة على شبابه الفَتِي:

- بلى... أستطيع. درست القانون في جامعة سان بطرسبرج وتخرجت منها.

صاح ضاحكًا:

- أنت واحد إذَنْ من هؤلاء المتأنقين! من هؤلاء الذين يضعون النظارات فوق أنوفهم! يا لك من وضيع! يرسلونك إلينا دون أن يسألنا أحد عن الأمر. هنا يمكن أن يمزقوك إربًا بسبب نظارتك وحدها. تعتقد إذَنْ أنك يمكنك أن تمكث معنا؟ ها؟

- نعم يمكنني.

هكذا أجبت، ومضيت إلى القرية مع جندي الإيواء لأبحث عن مكان لإقامتي.

حمل جندي الإيواء صندوقي على كتفيه، وامتد أمامنا شارع ريفي، والشمس الحارقة، مستديرة وصفراء كاليقطينة، قد شقت كبد السماء، وهي تنفث أشعتها الوردية.

اقتربنا من كوخ، مرسوم عليه إكليل من الزهور، وتوقف جندي

(٥٥) يتلاعب هنا قائد الكتيبة بالألفاظ فيستخدم كلمة **удовольствие** التي تعني الاستمتاع بدلًا من كلمة **продовольствие** التي تعني التموين. الاختلاف في الحروف بسيط.

الإيواء وقال فجأة وابتسامة تشي بالذنب ترتسم على وجهه:

- كما ترى فهم يفكرون هنا ببعض السذاجة حول النظارات، مع أن التخلص من النظارة مستحيل. إن وجدوا هنا رجلًا من منزلة رفيعة سوف يقضون عليه، ولكن اقض على سيدة... حتى إن كانت أجمل سيدة، وسيعاملونك كأعز مقاتل لديهم!

كاد أن يتعثر، حاملًا صندوقي على كتفيه، واقترب مني للغاية، ارتد على عاقبيه في يأس وركض صوب الساحة القريبة. كان القوزاق جالسين هناك على الحشائش، يشذب كل منهما لحية الآخر.

قال جندي الإيواء وهو يضع صندوقي على الأرض:

- أيها المقاتلون.. طبقًا لأوامر الرفيق سافيتسكي، فعليكم أن تضموا هذا الشخص إلى رفقتكم في السكن دون ارتكاب أي حماقات، فقد عانى بما يكفي في حقل العلم.

تورد وجه جندي الإيواء، ثم غادر المكان دون أن يلتفت لمرة. مددت يدي صوب قبعتي وأشرت بالتحية للقوزاق. اقترب أحد السادة الشباب منهم من الصندوق، كان ذا شعر متدلٍّ ناعم، ووجه ريزاني[٥٦] مليح، وألقى بها بعيدًا. ثم التفت صوبي، وأخذ يطلق صوبي أصواتًا شائنة[٥٧] ببراعة شديدة.

- لم يكن هذا شيئًا... مجرد ترحيب.

---

(٥٦) نسبة إلى ريزان - مدينة روسية.

(٥٧) أصوات مخزية تعد سبابًا وتجريحًا.

هكذا صاح أحد القوزاق الأكبر منه عمرًا، وهو ينفجر في الضحك.

مضى الرجل بعيدًا بعد أن فعل ما استطاعه. انحنيت على الأرض وأخذت أجمع شتات أغراضي التي تبعثرت من الصندوق. جمعتها ثم وضعت كل شيء في الطرف الثاني من الساحة. كانت هناك غلاية موضوعة على بعض ألواح الطوب داخل الكوخ، وبداخلها يطبخون لحم خنزير. كانت الغلاية تطلق الأبخرة كما تنطلق من بيت ريفي جميل في القرية، وتوقظ بداخلي الشعور بالجوع والوحدة على السواء. غطيت صندوقي المكسور ببعض الحشائش، واستلقيت على الأرض ساندًا رأسي على الصندوق، لأقرأ في جريدة البرافدا خطبة لينين في مؤتمر الكومنترن[٥٨] الثاني. ألقت الشمس بشعاعها عليَّ من فوق التلال الخشنة، وكان القوزاق يضغطون على قدمي في ذهابهم وإيابهم، وأخذ هذا الشاب يسخر مني دون توقف. لقد جاهدوا كي يضايقونى دون نتيجة. حينها نحَّيت الجريدة جانبًا ومضيت صوب صاحبة النُّزل التي كانت منهمكة في الحياكة في الشرفة. قلت لها:

– أريد أن أتناول الطعام يا سيدتي.

رفعت عينيها صوبي شبه الضريرتين بلونهما الأبيض ثم خفضتهما ثانية. قالت بعد صمت:

– أيها الرفيق! أود لو أشنق نفسي بسبب ثقل هذه الواجبات.

حينها تمتمت بخيبة أمل:

---

(٥٨) مؤتمر شيوعي دولي يستقبل وفودًا من ١٢ دولة لهدف نشر الشيوعية.

- اللعنة!

ودفعت صدر العجوز بعيدًا بيدي وأنا أقول:

- لست في مزاج يسمح لي بالجدال معكِ.

بعد أن تنحيت بعيدًا عنها رأيت سيفًا غريبًا على مقربة منا. كانت هناك إوزة متغطرسة تتهادى في الساحة، تنظف ريشها بهدوء. طاردت الإوزة حتى أمسكت بها على الأرض، وسحقت رأسها بحذائي... أخذت الرأس تنسحق وتنزف. غطى الروث ذلك العنق الأبيض، وانطوى الجناحان أسفل الطائر القتيل.

صحت وأنا أتفحصها بالسيف:

- اللعنة! اشويها لي يا سيدتي.

لمعت عينا العجوز البيضاء وكذلك نظارتها، ورفعت الطائر، ولفته داخل قماشة وذهبت به إلى المطبخ. قالت لي بعد فترة من الصمت:

- أيها الرفيق... أتمنى لو أشنق نفسي.

وأغلقت الباب من خلفها.

كان القوزاق جالسين في الساحة حول الغلاية دون حركة، بظهور مستقيمة كالكهنة، ولم يشهدوا ما حدث مع الإوزة.

قال واحد منهم عني وهو يغمس بعينه، ويملأ ملعقته بحساء الشّي[٥٩]:

(٥٩) حساء الكرنب، وهو شهير جدًّا في روسيا.

- هذا الفتى مناسب لنا تمامًا.

بدأ القوزاق في تناول عشائهم، وكل منهم يتمهل حتى يبدأ الآخر مثلما يفعل الفلاحون احترامًا لبعضهم البعض، أما أنا فقد أخذت أنظف السيف بالرمل، وخرجت من البوابة، ثم عدت مجددًا شاعرًا بالألم. القمر معلق في السماء فوق الفناء كقرط رخيص.

قال لي فجأة سوروفكوف، الكبير بين القوزاق:

- تعال وتناول الطعام معنا يا أخي، حتى ينتهي إعداد إوزتك.

وأخرج من حذائه ملعقة إضافية ومدَّها لي. اغترفنا جميعًا من حساء الشّي، وتناولنا لحم الخنزير. سأل واحد منهم ذو شعر يشبه الكتان وهو يفسح لي مكانًا:

- ماذا يكتبون الآن في الصحف؟

قلت له وأنا أتناول صحيفة البرافدا:

- لينين يكتب في الصحيفة الآن أننا في هذه اللحظة ينقصنا كل شيء.

وأخذت أقرأ بصوت عال وكأنني أطرش... أخذت أقرأ للقوزاق حديث لينين.

اكتنفني المساء برطوبته المفعمة بالحياة، تلك التي للغسق. ربت المساء براحته الأمومية على جبهتي المحمومة. أخذت أقرأ وأتهلل في انتظار ذلك التأثير الذي ستمنحني إياه تلك السطور الغامضة للينين.

عندما انتهيت من القراءة قال سوروفكوف:

– الحقيقة[٦٠] تدغدغ الأنف. ليس الأمر سهلًا كي تسحبها بهذه السهولة من قلب أكوام الأكاذيب، لكن لينين يسحبها على الفور، كما يمسك المرء بالدجاجة ويجذبها بعيدًا عن الحبوب.

هذا ما قاله سوروفكوف قائد السرية عن لينين، ثم مضينا جميعًا لننام على التبن. نمنا ست ساعات، يستدفئ كل منا بالآخر، بأقدام مضطربة، تحت سطح مليء بالثقوب، تلوح منها النجوم.

رأيت أحلامًا عديدة، وزارتني فيها نساء، أما قلبي المُكتنف بالقتل، فوحده من أخذ يعوي ويئن.

❊ ❊ ❊

(٦٠) اسم الصحيفة "برافدا" والكلمة تعني الحقيقة، لذلك تلعب هنا الشخصية على استخدام كلمة بنفس المعنى كاسم للصحيفة وبمعنى الحقيقة.

الحاخام

«الكل فانٍ. الحياة الأبدية مقدرة للأم وحدها. عندما ترحل الأم، فإنها تترك ذكراها التي لم يستطع أحد بعد أن يدنسها. ذكرى الأم تزودنا بالشفقة، كما يفعل المحيط... المحيط الهائل، عندما يمد الأنهار بالمياه، ويشق طريقه في العالم بأكمله».

هذه الكلمات لجيدالي. كان يقولها بلهجة تشي بالخطورة. أحاط به المساء الذي أوشك على الانتهاء.... أحاطه بضباب حزنه الرقيق الوردي. قال العجوز:

– لقد تحطمت النوافذ والأبواب في بناء الحاسيديم[٦١] المتقد، لكن الحاسيديم خالد كروح الأم. حتى الأعين الضريرة لا يزال بإمكانها أن ترى الحاسيديم على مفترق الطرق مع رياح التغيير.

هكذا كان يقول جيدالي ويصلي في المعبد، واصطحبني إلى الحاخام: موتالي، إنه الحاخام الأخير من سلالة تشيرنوبيل[٦٢].

(٦١) الحاسيديم هي حركة روحانية اجتماعية يهودية نشأت في القرن السابع عشر. يعد بعل شيم توف مؤسس الطائفة الرئيس، حيث نشرها في أنحاء شرق أوروبا. الفكر الحسيدي وخصوصًا في الأجيال الأولى تميزت بالدعوة إلى عبادة الرب وطاعته ومحبة إسرائيل وأتباعه الصالحين.
(٦٢) مدينة شهيرة بأوكرانيا.

صعدت بصحبة جيدالي صوب الشارع الرئيس. كانت الكنائس البيضاء تلمع مثل حقول الحنطة السوداء، وعند الزاوية ثمة عربة بنادق تئن، وخرجت امرأتان حبلتان من البوابة، تتعالى منهما أصوات رنين عقودهما، وجلستا معًا على إحدى الدكك. توهج النجم الخجول في لب معركة الغروب البرتقالية، ثم خيَّم ذلك الهدوء... هدوء السبت على الأسطح المحدبة بالجيتو اليهودي بجيتومير.

همس جيدالي وهو يشير إلى منزل بعيد ذي واجهة متهدمة:

– إلى هناك.

دلفنا إلى غرفة حجرية فارغة كغرفة الموتى. كان الحاجام موتالي جالسًا هناك حول طاولة مُحاطًا بالمعربدين والمزيفين. على الطاولة ثمة قبعة سوداء ورداء أبيض وحبل في وسطه. كان الحاخام جالسًا، بعينين مغلقتين، وقد غارت أصابعه النحيلة وسط زغب لحيته الصفراء.

رفع جفنيه ونظر إليَّ وسألني:

– من أين جئت؟

أجبته قائلًا:

– من أوديسا.

– إنها مدينة تقية. كالنجم في المنفى، كبئر عازف عن البلايا التي حلَّت بنا! وما هي حرفتك؟

- أنظم القصائد عن مغامرات جيرشي من أوستروبول[٦٣]

- إنه عمل عظيم.

هكذا همس الحاخام وأغلق عينيه ثانية، ثم أكمل:

- يعوي ابن آوي عندما يجوع، وكل أحمق لديه ما يكتفي به من الحماقات حتى يشعر بالكآبة، أما الحكيم وحده من تتمزق بطنه من فرط الضحك. ماذا يدرس اليهود؟

- التوراة.

- وعمَّ يبحثون؟

- المرح.

قال الحاخام وهو يُمسد لحيته:

- أيها الحاخام موردخاي... أفسح لهذا الشاب مكانًا على الطاولة، ودعه يتناول معنا الطعام في ليلة هذا السبت مع بقية اليهود. دعه يبتهج لأنه ما زال حيًّا... دعه يُصفِّق عندما يرقص رفاقه، ودعه يشرب الخمر عندما تُقدَّم إليه.

هرع الحاخام موردخاي نحوي، هذا المغفل العجوز ذو الجفون الملتهبة والظهر المحدودبة، وهو لا يتجاوز طول صبي يبلغ العاشرة من عمره.

قال الحاجام موردخاي وهو يغمس لي:

---

(٦٣) أحد المحتالين في تراث البيدية (البيدية هي لهجة ألمانية قديمة تحتوي على كلمات عبرية وسلافية يتكلمها بعض يهود أوروبا).

– آآه يا عزيزي الشاب! أنت لا تدرى كم من الأغنياء المغفلين أعرفهم من أوديسا! كم من الحكماء الفقراء عرفتهم هناك! اجلس على الطاولة أيها الشاب، واشرب الخمر الذي سوف يُقدَّم إليك.

جلسنا جميعًا بجانب بعضنا البعض؛ المعربدين والمزيفين وضعيفو العقول. عند إحدى الزوايا تصاعد أنين البعض من ذوي الأكتاف العريضة من اليهود وهم يصلون، وكانوا يشبهون صيادي السمك والرسل[٦٤]. غالب النعاس أجفان جيدالي الذي كان يرتدي عباءته الخضراء، فنعس عند الحائط كديك أرقط. فجأة شاهدت شابًّا خلف ظهر جيدالي، له وجه يشبه وجه سبينوزا؛ ذلك الوجه الذي يتمتع بجبهة عريضة... وجه راهب واهن. كان يدخن ويرتجف كإنسان قبضوا عليه يسوقونه إلى السجن بعد مطاردة طويلة. زحف موردخاي الأشعث صوبه، وانتزع السيجارة من فمه وهرع بها إليَّ.

– إنه ابن الحاخام إيليا.

هكذا دمدم موردخاي وهو يتوجه إليَّ بجفني عينيه المتورمين، وأكمل:

– ابن لعين... الابن الأصغر... ابن عاصٍ.

وهدَّد موردخاي الشاب مشيرًا له بقبضته، وبصق في وجهه. حينها فقط أتانا صوت الحاخام مورتالي براتسلافسكي:

– المجد لك يا رب!

---

(٦٤) جزء من تلاميذ السيد المسيح الاثني عشر، كانوا صيادين للسمك.

وشق رغيف الخبز بأصابعه الرقيقة:

– المجد لك يا إله اسرائيل الذي اختارنا من بين كافة شعوب الأرض.

بارك الحاخام الطعام، وبدأنا في تناوله. كانت الجياد تصهل من خلف النافذة، والقوزاق يصيحون. كانت الحرب المقفرة تتثاءب من خلف النافذة. كان ابن الحاخام وحده من يدخن السيجارة تلو الأخرى بين فترات الصمت وبين الصلوات. عندما انتهى العشاء كنت أول من فارق الطاولة. تمتم موردخاي من خلف ظهري وهو يجذبني من حزامي:

– عزيزي الشاب. إن لم يكن هناك إنسان واحد على هذه الأرض سوى حفنة الأغنياء الأشرار والفقراء المتسكعين، فكيف كان يمكن للأتقياء حينها أن يعيشوا؟

منحت العجوز بعض المال وخرجت إلى الشارع. افترقت عن جيدالي، فقد ذهبت صوب المحطة. هناك في قسم الدعاية داخل إحدى القطارات بجيش الفرسان الأول، كان بريق مئات الأضواء في انتظاري، وذلك الوهج الساحر لمحطة الراديو، والماكينات العنيدة داخل المطبعة، والمقالات التي لم أكتبها بعد لصحيفة: «الفارس الأحمر».

* * *

الطريق إلى برودي

أشعر بالأسى على النحل. لقد تم القضاء عليه من قِبل الجيوش المتعادية. لم يعد هناك نحل في فولين.

قضينا على الخلايا. أحرقناها ونسفناها بالبارود. هذه الخرق التي ينبعث منها الدخان قد أرسلت الروائح النتنة إلى جمهوريات النحل المقدسة. وبينما كان النحل يتعرض للموت، أخذ يطير ببطء، ويتعالى طنينه. وعندما لم يعد الخبز في متناول أيدينا، استولينا على العسل بسيوفنا. لم يعد هناك مزيد من النحل في فولين.

إن وقائع الفظائع اليومية التي تُرتكب تؤلمني بعنف، وكأن مرضًا قد أصاب قلبي. بالأمس اندلعت أول معركة كبيرة على برودي. تهنا في الأرض الزرقاء الواسعة، ولم تساورنا أي شكوك، لا أنا ولا صديقي أفونكا. حصلت الجياد منذ الصباح على الحبوب، فقد كانت حبوب الجاودار نامية، والشمس فاتنة، أما الروح التي لم تكن تستحق هذه السماء اللامعة الساحرة، فكانت تتوق إلى الآلام المتمهلة!

بدأ صديقي أفونكا قائد الفصيلة حديثه:

– في قرانا تحكي الفلاحات قصصًا كثيرة عن النحل وطيبته. إن كان الناس قد أساءوا للمسيح أم لا، فهذا أمر سيكتشفه الآخرون مع مرور الوقت، ولكن كما تقول الفلاحات في قرانا القوزاقية، فإن السيد المسيح قد شعر بالاشتياق إلى الصليب! وسرعان ما اقتربت منه كل ناموسة صغيرة حتى تستبد به! نظر إلى الناموس وسقطت معنوياته تمامًا، ولكن كل هذا العدد الهائل من الناموس لا يمكنه أن يرى عينيه. في نفس الوقت طارت نحلة حول المسيح. صرخت الناموسة في النحلة: «اقرصيه.... اقرصيه من أجلنا». أجابت النحلة: «لا أستطيع». ورفعت جناحيها فوق رأس المسيح وأكملت: «لا أستطيع. إنه من طبقة النجارين». ويختم أفونكا القصة قائلًا: «على المرء أن يتفهم النحل. أتمنى أن يتحملوا المزيد، فنحن نعمل لصالحهم أيضًا».

بعد أن لوَّح أفونكا بيديه بدأ يدندن أغنية عن فحل من الخيل زاهى اللون. شارك ثمانية من رجال الفصيلة أفونكا في الغناء.

– كان هناك فحل من الخيل يُدعى دجيجيت يملكه أحد شباب القوزاق الذي ثمل بالفودكا في يوم ذبحه.

هكذا كان يغني أفونكا بصوت ناعس ممدود كالوتر.

– كان دجيجيت فرسًا مخلصًا، ولكن القوزاق لم تكن لديهم حدود في احتفالاتهم بأيام الأعياد. قرَّر الرجل تناول خمسة أقداح من الخمر في يوم ذبحه. بعد القدح الرابع امتطى الجواد، وركض به صوب السماء. كان طريق الصعود طويلًا، لكن دجيجيت كان جوادًا مخلصًا.

وصلا إلى السماء، وهناك تذكر القوزاقي قدحه الخامس، لكنه كان قد تركه على الأرض. حينها بكى القوزاقي على ضياع جهوده. أخذ يبكي، بينما يحرك دجيجيت أذنيه وهو ينظر إلى صاحبه.

هكذا كان يغني أفونكا، ويدندن بصوت ناعس. كانت الغنوة تتهادى كالبخار، بينما كنا نقترب من الغروب. كانت أنهاره المحمومة على الحقول التي تبدو كمناشف مطرزة. استلقت الأرض كالقطة على ظهرها، تكسوها طبقة كثيفة لامعة من الخبز. يلوح طين قرية كليتكوف الصغيرة فوق الرابية الصغيرة. كان في انتظارنا بعد اجتياز الممر منظر برودي الميتة المهلهلة، لكن قذيفة مدوية عبرت أمام وجوهنا في كليتكوف. لاح جنديان بولنديان من خلف الكوخ. كان جواداهما مربوطين في الإسطبل، لكن وحدة مدفعية خفيفة للعدو استطاعت أن تصعد من خلف الرابية. تطاير الرصاص على طول الطريق. قال أفونكا:

– اركضوا!

وركضنا فعلًا.

آآه يا برودي... لقد نفثت مومياواتك سم عواطفها المسحوقة الذي لا يقهر في وجهي. لقد شعرت فعلًا ببرودة الموت في محجري عينيك المليئتين بالدموع. وها هو الفرس يعدو بي بعيدًا عن الصخور المسحوقة لمعابدك اليهودية.

* * *

نظرية تاشكانا[٦٥]

أرسلت لي القيادة حوذيًّا، أو كما يُقال عادة هنا: سائق مركبة. اسم عائلته جريشوك، ويبلغ من العمر ثلاثين عامًا. قضى خمسة أعوام في الأسر الألماني، ومنذ عدة شهور مضت هرب من الأسر، وعبر ليتوانيا وشمال غرب روسيا، ووصل فولين، وتم القبض عليه في بيلوف من قِبل لجنة التعبئة الأكثر تبلدًا في العالم كله، ومن ثم أرسلوه ثانية للخدمة العسكرية. كات قد تبقت له فقط خمسين فرست على وصوله لموطنه في مقاطعة كريمينتسكي. لديه هناك زوجة وأطفال. لم ير منزله منذ خمسة أعوام وشهرين. جعلته لجنة التعبئة حوذيًّا لديَّ، وكان القوزاق قد كفُّوا حينها عن نبذي.

– أنا لديَّ تاتشانكا[٦٦] وسائق خاص أيضًا! لقد أصبحت هذه الكلمة هي قاعدة المثلث الذي يستند عليه قتالنا الدائر اليوم: دمِّر –تاتشانكا– الدماء!

---

(٦٥) أحد قادة الأناركية الأوكرانية.

(٦٦) عربة يجرها جواد أو اثنان، وأحيانًا ما تحوي مدفعًا رشاشًا.

أبسط عربة صغيرة مفتوحة، من ذلك النوع الذي ترى فيها قسيسًا أو موظفًا مثيرًا للشفقة، قد أصبحت وسط كل هذا الصراع المرير آلة حربًا سريعة مريعة، تتطلب استراتيجيات وتكتيكات جديدة، وتحطم أساليب الحرب التقليدية، فيزداد أبطال وعباقرة التاتشانكا. هذا ما فعله ماخنو حينما جعل التاتشانكا محور استراتيجيته الماكرة السرية، وألغى قوات المشاة والمدفعية وحتى الفرسان، واستبدل كل هذه القوات الجبارة بثلاثمائة رشاش. إن ماخنو شخصية مبدعة كالطبيعة. لقد أدخل عربات مغطاة بالقش إلى العتاد العسكري لغزو المدن. يقترب موكب زفاف من قيادة اللجنة التنفيذية، وتُفتح النيران الكثيفة، ويُلوِّح لهم رجل ضئيل كرجال الدين، يحمل راية الأناركية، يطالب السلطات بتسليم البورجوازيين، وتسليم الخمر والموسيقى للبروليتاريا.

إنه جيش من التاتشانكا له قدرات على المناورة لم يُسمع عنها من قبل.

كشف بوديني عن ذلك ببراعة كما كان الأمر مع ماخنو. من الصعب القضاء على مثل هذا الجيش، ولا يمكن اصطياده. مدفع مخبأ تحت كومة من القش على تاتشانكا يستخدمها الفلاحون في الزراعة، وموجودة عند حظيرة ريفية... مثل هذا لم يشكل هدفًا عسكريًّا. هذه النقاط الحصينة، والمفترضة، ولكن غير المحسوسة في الآن ذاته، أصبحت إضافة إلى بناء القرية الأوكرانية الحديثة... إضافة ضارية متمردة جشعة. يمكن لماخنو أن يأتي بجيش كهذا، ويُخفي ذخيرته في كل الزوايا والأركان، ويجعله على أهبة الاستعداد العسكري في غضون

ساعة واحدة، وقد يحتاج لوقت أقل من هذا كي يقوم بتسريحه.

لا تحتل التاتشانكا لدينا هذه الأهمية الخاصة في قوات بوديني النظامية، إلا أن كافة مدافعنا الآلية تنتقل على متونها. تُميِّز الخرافة القوزاقية بين نوعين من التاتشانكا: تلك التي للمستعمر، والأخرى الرسمية البائسة. وهذا ليس مجرد تقسيم اعتباطي، بل على أساس حقيقي.

صُنِعت التاتشانكا الرسمية البائسة دون ولع أو إبداع حقيقي، تتأرجح فوق سهوب القمح بكوبان، وهي تحمل في داخلها موظفين ذوي أنوف حمراء بائسين؛ حشد من الناعسين الذين يسرعون لتشريح جثة ما أو إجراء تحقيق، بينما التاتشانكا التي للألمان قد جاءت لنا من المستعمرات الألمانية الغنية التي على ضفاف الفولجا في الأورال وسمارا. على ظهور خشب البلوط الواسعة المصنوع منها عربات المستعمر، يمكن أن تجد لوحة زيتية لزهور ألمانية وردية. وقد دُعِّمت ظهور المركبات القوية بالحديد. أشعر بحرارة أجيال عديدة في هذه الينابيع اللامعة الآن على طريق فولين المُدمَّر.

أشعر بنشوة الامتلاك الأولى. في كل يوم بعد تناول الغداء نُجهِّز عدة الفرس، ويقود جريشوك الجياد خارج الإسطبل. تتحسن حالتهم يومًا تلو الآخر. ألاحظ بفرح يشوبه الفخر ذلك اللمعان البادي على خصور الجياد. نفرك سيقان الجياد المرضوضة، ونُزيِّن أعرافها، ونضع على ظهورها عدة فرس قوزاقية، ونشبك خصورها بحزام رفيع، ونمتطيها ونغادر بها عدوًا من الساحة. يستند جريشوك بجانبه على صندوق. دكة

جلوسي مغطاة بقماش زاهي اللون وتبن تفوح منهما رائحة الصفاء. تصر العجلات المرتفعة فوق حبيبات الرمل البيضاء. يمكن للمرء أن يرى على الأرض بقع من نبات الخشخاش المسحوق، بينما يلمع حطام الكنائس فوق التلال. يرتفع تمثال بني للقديس أورسول على الطريق عاليًا، في هيكل قد حطمته القذائف، بيدين مستديرتين عاريتين. نسجت حروف قروية صغيرة سلسلة غير منتظمة على واجهتها الذهبية التي قد أصبحت سوداء الآن: "المجد ليسوع وأمه المقدسة".

تلوح أمام المرء الآن مدن يهودية لا تدب فيها الحياة تتلاصق حول قواعد ملكيات النبلاء البولنديين القدامى. ثمة طاووس يشي بالنبؤة يلمع فوق الأسيجة الطوبية، على خلفية من ذلك الاتساع الأزرق الهادئ، ويلوح معبد يهودي من بعد، وقد سقط وسط شبكة من الأكواخ رابضًا باليًا مستديرًا مثل القبعة التي يرتديها أفراد الحاسيديم، فوق الأرض القاحلة. ويحوم يهود ذوو أكتاف ضيقة بحزن عند منعطفات الطرق، بينما تتوقد في الذاكرة تلك الصورة القديمة عن يهود الجنوب المرحين، منتفخي البطون، وهم يلمعون كالخمر الرخيص. لا يمكن للمرء أن يقارن بينهم وبين هذه الظهور النحيلة الطويلة، وتلك اللحى الصفراء الحزينة. لا يبدو أن هناك دماء تنبض في هذه الهياكل المحمومة التي شكَّلها العذاب. إن حركات يهود جاليسيا[٦٧] وفولينسكي مستهترة متقطعة، تثير استياء الذوق العام، لكن القوة التي لدى حزنهم مليئة

(٦٧) منطقة تاريخية مقسمة بين بولندا وأوكرانيا. كانت مملكة جاليسيا ولودوميريا أو ببساطة جاليسيا الأكبر مساحة والأكثر سكاناً بين مقاطعات الإمبراطورية النمساوية المجرية.

بنوع قاتم من العظمة، والاحتقار الخفي الذي لديهم للسادة البولنديين غير محدود. بينما كنت أنظر إليهم فهمت هذا التاريخ المشتعل لتلك الضواحي البعيدة، ومتاجر دارسي التلمود الذين استأجروا هذه الحانات، وقصص الحاخامات الذين عملوا بالإقراض بالربا، وتلك الفتيات اللاتي اغتصبن من قبل مرتزقة البولنديين، والذين تسببوا في أن يطلق بعض كبار السادة البولنديين النار على أنفسهم.

❊ ❊ ❊

موت دولوجوشوف

أُزيلت الحجب التي كانت تفصل بين المعركة والمدينة. في منتصف اليوم تقريبًا وجدنا كوروتاشيف -قائد الكتيبة الرابعة الموصوم بالخزي- يهرع إلينا بمعطفه الملبد، وهو من قاتل سابقًا بمفرده بحثًا عن الموت. كان يصرخ فيَّ وهو يركض قائلًا:

- لقد انقطعت اتصالاتنا. لقد اشتعلت رادزيلوف وبرودي عن بكرة أبيها.

وركض بعيدًا... بدا كطائر مهتاج، بعينين زاويتين.

بدأت القوات تعيد تجميع صفوفها على الأرض المنبسطة الأفقية التي تشبه لوحًا مستويًا، والشمس تتهادى فوق التراب القرمزي. تناول الجرحى طعامهم في الخنادق، وكانت الممرضات مستلقيات على العشب ينشدن بصوت مبحوح، بينما تجوب كشافة أفونكين الميدان بحثًا عن الموتى والذخيرة. تقدم أفونكا خطوتين مني وقال دون أن يحرك رأسه:

– لقد ضربونا ضربة موجعة... إنه وقت صعب. يسخرون من القائد، حتى يصيب الشك قلوب محاربينا.

اقترب البولنديون من الغابة على بعد ثلاثة فرست منا، ونصبوا مدافعهم في مكان قريب. كانت النيران تئن وتعوي، حتى وصلت إلى درجة غير محتملة. كانت القذائف تنهال على الأرض وتحفر بداخلها وهي ترتج دون صبر. صرخ فيتاجايتشينكو قائد القوات وهو يغط في النوم ويشخر تحت أشعة الشمس، واستيقظ من نومه وامتطى جواده ومضى به إلى مقدمة القوات. كان وجهه مجعدًا، تغطيه علامات النوم الحمراء، وجيوبه مليئة بالبرقوق. قال بغضب بينما يخرج النواة من فمه:

– أولاد الكلب! هذا مجرد هراء ومضيعة للوقت. ارفع العلم يا تيموشكا!

فسأل تيموتشيك وهو يخرج قضيب العلم من ركاب السرج:

– أسنذهب إذَنْ؟

وكان يفك العلم الذي كان مرسومًا عليه نجمة ومكتوب عليه: الإنترناشيونال الثالث[٦٨].

قال فيتاجايتشينكو:

– سوف نراقب ماذا سيحدث.

ثم صرخ فجأة بوحشية:

– هيا يا فتيات على جيادكن... اجمعوا قواتكم يا قادة الخيَّالة.

---

(٦٨) راجع حاشية ٥٢.

ونفخ البروجية في أبواقهم. اصطفت صفوف الفرسان، وزحف الجرحى خارج خنادقهم، وهم يغطون أعينهم براحات أيديهم، وحينها قال فيتاجايتشينكو:

– تاراس جريجوريفيتش... يبدو وكأنك ستغادرنا.

ثم تمتم بصوت خفيض وهو يرفع جواده على قدميه الخلفيتين:

– لا تقلق... سوف ندحرهم.

حينها قال له أحد الجرحي من الخلف:

– نعتقد أننا لن نستطيع أن نقاتل يا تاراس جريجوريفيتش.

التفت فيتاجايتشينكو وقال:

– كف عن أنينك... بالطبع لن نترك الجرحى.

حينها جلجل صوت صديقي القروي أفونكا بيدي قائلًا:

– دعنا لا نمضي إليهم عدوًا يا تاراس جيرجوريفيتش. المسافة تبلغ ٥ فرست. كيف يمكننا أن نقضي عليهم والجياد منهكة؟ لن نستطيع أن نفعل حينها معهم شيئًا.

– حسنًا... سنمضي ببطء.

هكذا أمر فيتاجايتشينكو دون أن يرفع عينيه.

وغادرت القوات...

همس أفونكا بصوت خفيض:

– إن كان ما يقولونه عن القائد صحيح، وإن كانوا سيزيحونه بعيدًا،

حسنًا... حينها سنُذبح سريعًا.

وانسلت الدموع من عينيه. أمعنت النظر في أفونكا بدهشة كبيرة. كان يدور كالخذروف، ممسكًا بقبعته، وقد بدأ لهاثه يتعالى، ثم صاح عاليًا وانعطف بجواده.

ظللت في المؤخرة بصحبة جريشوك في التاتشانكا الغبية التي لديه، وحتى المساء ظللنا نتحرك وسط النيران. اختفت القيادة تمامًا. لم تقبل بنا وحدات أخرى غريبة. كانت قواتنا قد اندفعت إلى برودي، وتم دحرها بهجوم مضاد. اقتربنا من مقابر المدينة، ولاح بعض الحرس البولندي من خلف المقابر، ورفعوا بنادقهم وأخذوا يطلقون النار علينا. استدار جريشوك، وأطلقت عجلات التاتشانكا كلها صريرًا عاليًا.

صحت عبر الأزيز والصرير:

- جريشوك!

فأجابنى بحزن:

- إنها وقاحة!

- لقد انتهينا.... لقد انتهى أمرنا!

هكذا صحت فيه وقد اكتنفتني بهجة شريرة.

أجابني بشعور أكثر حزنًا:

- لماذا تكدح النساء؟ ما جدوى الزواج إذَنْ ولماذا نرقص في حفلات الزفاف؟

ولمع ذيل وردي في السماء ثم تلاشى ثانية، ولاح مجرى من بين النجوم.

قال جريشوك بحزن وهو يشير بسوطه إلى أحدهم جالسًا على طرف الطريق:

– إنه يثير ضحكي.... يثير ضحكي... لماذا تكدح النساء؟

أما هذا الرجل الذي كان جالسًا على طرف الطريق فكان دولجوشوف عامل الهاتف. حدَّق فينا طلبًا للمساعدة وهو يمد ساقيه أمامه. عندما مررنا به قال:

– لقد انتهيت... مفهوم؟

– نعم... مفهوم.

هكذا أجابه جريشوك وهو يوقف الجياد. ثم قال دولجوشوف:

– سيتوجب عليك أن تهدر رصاصة عليَّ.

كان جالسًا مستندًا على شجرة، وحذاؤه بجانبه. دون أن يُنحِّي عينيه عني قام بخلع قميصه. كانت بطنه مشقوقة، وقد تدلت أمعاؤه حتى ركبتيه، وكان بالإمكان رؤية قلبه وهو ينبض.

– عندما يظهر البولنديون سوف يعبثون بجثماني. هذه أوراقي... أكتب لأمي وأخبرها كيف مت وماذا حدث.

– لا.

هكذا أجبته ونغزت الجواد.

أسند دولجوشوف راحتي يده على الأرض وأخذ يحدق فيهما بارتياب، وتمتم خافض الرأس:

- أتهرب؟ حسنًا... اهرب أيها الوغد.

تعرق جسدي بأكمله. أخذت القذائف تنهال سريعًا بعناد هستيري. اقترب منا أفونكا عدوًا بفرسه، وهالة الغروب المقدسة تحيط برأسه. صاح بسرور:

- نحن نمزقهم إربًا. ماذا لديكم هنا؟

أشرت له إلى دولجوشوف وغادرت المكان.

تحدثا حديثًا قصيرًا، ولم أسمع شيئًا من حديثهما. مد دولجوشوف يده بأوراقه. أخذها أفونكا وأخفاها في حذائه وأطلق الرصاص على دولجوشوف في الفم. قلت بابتسامة مريرة وأنا أقترب من القوزاقي:

- أفونكا... لم أستطع أن أفعلها.

أجابني وقد شحب وجهه:

- ابتعد وإلا أطلقت عليك أنت أيضًا. أنتم أيها الحمقى بنظاراتكم تشفقون علينا كما تشفق القطة على الفأر!

قال ذلك ورد زناد سلاحه. مضيت سائرًا على قدمي دون أن ألتفت للوراء، شاعرًا بالبرودة والموت يكتنفان ظهري. صاح جريشوك بجانبي:

- هيا.. هيا... كفى حماقة.

وجذب أفونكا من يده، فصاح الأخير:

– آآه أيها الوغد. لن يفلت من يدي.

لحق بي جريشوك عند منعطف الطريق، ولم يكن أفونكا معه. رحل إلى الناحية الأخرى. قلت:

– كما ترى يا جريشوك... لقد فقدت اليوم أفونكا أول صديق لي.

أخرج جريشوك من تحت مقعده تفاحة وهو يقول لي:

– كُل... كُل من فضلك.

❊ ❊ ❊

قائد الفرقة الثانية

وقف الجنرال بوديني في سرواله الأحمر المقلَّم بالخطوط الفضية عند الشجرة. كان قائد الفرقة الثانية قد قُتِل لتوه. عيَّنوا مكانه الجنرال كوليسنيكوف.

منذ ساعة واحدة كان كوليسنيكوف قائدًا لإحدى الكتائب، ومنذ أسبوع واحد كان قائدًا لإحدى السرايا.

استُدعي كوليسنيكوف إلى قائد القوات. كان الجنرال بوديني واقفًا في انتظاره عند الشجرة. وصل كوليسنيكوف بصحبة مفوضه ألمازوف.

قال الجنرال بابتسامته اللامعة:

– الأوغاد يقتربون منا. نهزمهم أو نموت كالكلاب... ما من اختيار آخر. مفهوم؟

أجاب كوليسنيكوف وقد انتفخت عيناه:

– مفهوم.

– إن حاولت الهرب سأطلق عليك النار.

هكذا قال القائد وهو يبتسم، ملتفتًا صوب قائد القوات الخاصة، الذي أجابه قائلًا:

- تمام يا أفندم.

وتعالى صوت أحد القوزاق من مكان ما:

- تحرك إذَنْ يا كوليسو[٦٩]!

استدار بوديني بتصميم على كعبيه، وأدى التحية العسكرية للقائد. أما الأخير فرفع أصابعه الخمسة الحمراء على قبعته العسكرية، وتعرق جسده بشدة وغادر ليمضي عبر الحقل المحروث. كان الجواد في انتظاره على بعد مائة خطوة. أحنى رأسه ومضى بخطوات ثابتة بطيئة، واحدة تلو الأخرى. غمر الغروب المكان من حوله بلونه القرمزي، غير القابل للتصديق كموت وشيك!

وفجأة لم نعد نرى سواه على هذه الأرض المنبسطة ذات التربة الممهدة، العارية الصفراء... لم نعد نرى سوى ظهر كوليسنيكوف النحيل وذراعيه المتدليتين ورأسه المائل وعليه قبعته الرمادية.

أتى إليه الجندي بجواده.

امتطى الجواد وعدى به صوب قواته دون أن يلتفت إلى الخلف.

كانت قواته في انتظاره على الطريق الواسع المؤدي إلى برودسكي.

حينها حملت إلينا الريح زئير صيحة النصر: "هوراااااه".

---

(٦٩) كوليسو بالروسية تعني عجلة، وهي الجزء الأول من اسم كوليسنيكوف، لذا فالقوزاقي هنا يتلاعب بالألفاظ.

عندما نظرت عبر المنظار المكبر رأيت قائد الفرقة يطوف على جواده مثيرًا طبقة كثيفة من الغبار. حينها قال المراقب الجالس فوق رؤوسنا على أحد أفرع الشجر:

– لقد تولى كوليسنيكوف أمر قواته.

أجابه بوديني وهو يدخِّن سيجارًا مغلقًا عينيه:

– نعم... حقًّا.

انتهى تردد صيحة النصر، وذوت أصوات المدافع، وانفجرت بعض الشظيات الشاردة فوق الحقول، وحلَّ صمت عظيم.

قال قائد القوات:

– إنه فتى صالح. يبحث عن المجد. يبدو أنه سوف ينال مراده.

ثم طلب بوديني أن يأتوه بجواده، ومضى إلى ساحة المعركة، وتحركت القيادة من خلفه.

أُتيح لي أن أرى كوليسنيكوف مرة أخرى في هذا المساء، بعد مرور ساعة من دحر البولنديين. كان يسير في مقدمة قواته ناعسًا على جواده البني. يده اليمنى فوق حزام بندقيته. على بعد عشرة خطوات منه كان هناك أحد فرسان القوزاق يحمل العلم مفتوحًا، وكان الرجال في مقدمة القوات ينشدون بكسل أغانيَ فاحشة. بدا الغبار المنطلق من أسفل أقدام القوات كما لو أن لا نهاية له، كذلك الغبار الذي تثيره عربات الفلاحين في طريقها إلى السوق. في مؤخرة القوات كان رجال الموسيقى العسكرية ينفخون في آلاتهم بإنهاك شديد.

فى هذا المساء رأيته على جواده ويبدو عليه عدم الاكتراث العظيم الذي يمكن للمرء أن يراه في تتري عجوز، ورأيت فيه هذه اللباقة ذائعة الصيت التي لكنيجا، وعناد بافليتشينكو، وفتنة سافيتسكي.

❊ ❊ ❊

ساشكا المسيح

كان اسمه ساشكا، أما «المسيح» فقد أطلقوا عليه كذلك لوداعته الشديدة. كان أحد رعاة الغنم في قريته القوزاقية الصغيرة، ومنذ عمر الرابعة عشر لم يعمل بعمل شاق، منذ تلك اللحظة التي أصيب فيها بمرض خبيث. حدث الأمر كالتالي:

غادر تاراكانيتش -زوج أم ساشكا- إلى مدينة جروزني في الشتاء، ولحق بإحدى الجماعات هناك. كانت الجماعة تعمل جيدًا، فقد كانت مُكوَّنة في الأساس من فلاحين من ريازان. كان تاراكان يعمل لديهم بالنجارة، وازداد دخله. لم يستطع أن يكمل على هذا المنوال بمفرده، فأرسل للصبي كي يأتي ويساعده في العمل. يمكن للقرية أن تتدبر أحوالها في الشتاء دون ساشكا. عمل ساشكا لدى زوج أمه لمدة أسبوع، ثم حلَّ يوم السبت، وأنهوا عملهما، وجلسا معًا ليشربا الشاي. كان أكتوبر قد حلَّ، لكن الهواء ما زال خفيفًا. فتحا النافذة، وأشعلا النار تحت السماور مرة ثانية. أسفل النافذة كانت امرأة متسولة تتسكع في المكان. طرقت على إطار النافذة وقالت:

- مرحبًا أيها الفلاحان الغريبان. اعطفا على حالي.

– ماذا بكِ؟ تعالي يا امرأة.

هكذا أجابها تاراكانيتش. جاءت المرأة من خلف الحائط ودخلت الغرفة. اقتربت من الطاولة وانحنت بشدة. جذبها تاراكنيتش من وشاحها، وفكه عنها وأخذ يمسد على شعرها. كان شعرها رماديًّا أشيبَ مليئًا بالأسمال والغبار. قالت المرأة:

– كفى أيها الرجل الوسيم الشقي! أنت مهذار فعلًا، ولكن أرجوك لا تشعر بالتقزز من امرأة عجوز.

هكذا تمتمت، وهي تبتعد سريعًا صوب الدكة.

نام تاراكانيتش معها. أمالت المتسولة رأسها وأخذت في الضحك وهي تقول:

– آآه... الحظ الحسن ينهمر على حقل العجوز. سوف أحصد مائتي بود من الديسياتين[٧٠] الواحد.

وبعد أن قالت ذلك رأت ساشكا الذي كان يشرب الشاي، جالسًا صوب المنضدة دون أن يرفع عينه لينظر ما يحدث أمامه. سألت تاراكانيتش:

– أهذا ابنك؟

– مثل ابني. ابن زوجتي.

– إنه يحدق فينا. تعال هنا أيها الولد.

---

(٧٠) مقياس روسي للمساحة.

اقترب ساشكا منها، والتقط مرضًا شريرًا. لكن أحدًا لم يكن يفكر في المرض الشرير في ذلك الحين. أعطى تاراكانيتش المتسولة بعضًا مما تبقى من العظام، وكذلك عملة معدنية شديدة اللمعان بخمسة كوبيكات. قال تاراكانيتش:

– نظفيها جيدًا أيتها الأخت المقدسة بالرمال. يمكنها أن تلمع أكثر من ذلك. إن منحتيها للسيد الإله في ليلة مظلمة فسوف يجعلها تلمع بدلًا من القمر.

ربطت المرأة وشاحها، والتقطت العظام ورحلت. في غضون أسبوعين أدرك الفلاحون ماذا حدث بالضبط. لقد عانوا بشدة من ذلك المرض العضال، وأنفقا الشتاء كله في التداوي بالأعشاب. سافرا بالربيع عائدين إلى قراهم وعملهم بالفلاحة.

كانت القرية تبعد عن الطريق المُعبَّدة بتسعة فرست. سار تاراكانيتش وساشكا عبر الحقول. كانت الأرض تنضح برطوبة شهر إبريل، والنباتات الخضراء تلمع بين تجاويف الأرض المعتمة، وتصاعدت رائحة فاسدة من قلب الأرض، مثل الرائحة التي تتصاعد من زوجة الجندي عند الفجر. انتشرت القطعان الأولى فوق الروابي، وأخذت المهور الصغيرة تلعب على امتداد الأفق الأزرق الواسع.

سلك تاراكانيتش وساشكا طرقًا بالكاد يمكن رؤيتها. قال ساشكا:

– دعني أصبح واحدًا من رعاة الغنم يا تاراكانيتش.

– لماذا؟

– لا يمكنني أن أصبر على أن أنعم بحياة رائعة مثل تلك التي لرعاة الغنم.

– غير موافق.

– اتركني أصبح راعيًا لخاطر الله يا تاراكانيتش. كل القديسين كانوا رعاة غنم[٧١].

ضحك زوج الأم قائلًا:

– القديس ساشكا! لقد التقط السفلس من والدة الإله! هههه.

وسلكا الطريق الذي من عند منعطف الجسر الأحمر، وسارا عبر الأيكات ثم المرعى، وهناك شاهدا صليب كنيسة القرية يلوح للأبصار.

كانت الفلاحات لا زلن يتسكعن حول بساتينهن، بينما يجلس القوزاق بين أشجار الليلك يحتسون الفودكا وينشدون الأغاني. ما زال يتبقى نصف فرست على الوصول إلى كوخ تاراكانيتش.

قال تاراكانيتش وهو يرشم علامة الصليب:

– ندعو الله أن نجد كل شيء على ما يرام.

اقتربا من الكوخ، وتوقفا عند النافذة الصغيرة. لم يكن هناك أحد داخل الكوخ. كانت والدة ساشكا تحلب البقرة في الحظيرة. اقتربا منها دون أن يصدرا صوتًا. ضحك تاراكانيتش وصاح في زوجته مفاجئًا إياها من خلف ظهرها:

---

(٧١) في التراث اليهودي كثير من القديسين كانوا رعاة غنم، وعلى رأسهم داود النبي.

– يا سيدتي الكريمة موتيا... فلتأتي ببعض الطعام من أجل ضيوفكِ.

التفتت الفلاحة، وارتجفت من المفاجأة، وهرعت خارج الحظيرة وأخذت تدور حول الفناء. ثم عادت إلى مكانها، وارتمت على صدر تاراكانيتش.

– كم تبدين سخيفة وغير جذابة!

هكذا قال تاراكانيتش وهو يبعدها عنه بلطف، ثم سألها:

– أين الأطفال؟

أجابته بوجه شاحب:

– لقد خرجوا من الساحة.

وركضت إلى الخارج ثم عادت إلى الساحة ثانية وسقطت على الأرض وهي تصيح بوحشية:

– يا أليشونكا[٧٢]! لقد فارقنا أطفالنا.

لوَّح تاراكانيتش بيديه ومضى إلى جيرانه. حكى له جيرانه أن الله قد أخذ نفسيّ ابنه وابنته في الأسبوع الماضي بعد إصابتهما بحمى التيفوس. كتبت له موتيا خطابًا لكنه لم يصله. عاد تاراكانيتش إلى الكوخ. كانت امرأته قد أشعلت الموقد من أجله. حينها قال لها:

– أخيرًا استطعتِ أن تتخلصي منهما! سوف أمزقكِ إربًا!

(٧٢) تصغير تاراكانيتش

جلس على الطاولة واستغرق في التفكير بحزن عميق.... استغرق في حزنه حتى غفا. تناول اللحم وشرب الفودكا، لكنه لم يذهب للعمل بأرضه. نام مستندًا على الطاولة، ثم أفاق، وبعدها غفا ثانية. أعادت موتيا الفراش له ولزوجته ثانية، أما ساشكا فأعدت له فراشًا آخر في الزاوية. أطفأت المصباح واستلقت بجانب زوجها. أخذ ساشكا يتقلب على منامته، وظلت عيناه مفتوحتين. جافى النوم عينيه، ورأى كما لو في حلم، كوخًا، ونجمًا يلمع من النافذة، وكذلك طرف الطاولة والنير موضوعًا أسفل فراش والدته. استحوذ عليه في نومه رؤيا قوية. استسلم لحلمه، وشعر بالسرور عندما استيقظ. رأى في الحلم خيطين فضيين يتدليان من السماء، مضفرين في خيط سميك مُثبَّت فيه مهد مصنوع من خشب وردي اللون، وله مسند. كان المهد يتأرجح عاليًا عن الأرض، وبعيدًا عن السماء، ويلمع الخيطان الفضيان بينما يهتزان. كان ساشكا مستلقيًا داخل المهد، والهواء يلفح جسده، ويُدوِّي كموسيقى تهب من بين الحقول، وتلوح ألوان قوس القزح فوق زروع القمح التي لم تنضج بعد.

ابتهج ساشكا بحلمه عندما استيقظ، وكان لا يزال ناعسًا، وأغلق عينيه ثانية حتى لا يرى النير أسفل فراش والدته. ثم تهادى إلى أذنيه صوت لهاث، فظن أن تاراكانيتش لا بد وأنه يقضي وتره من والدته. قال بصوت عال:

– تاراكانيتش.. هناك أمر لا بد وأن أتحدث معك بخصوصه.

– في هذا الوقت المتأخر؟ نم... نم أيها الأبله.

– أقسم بالصليب المقدس أن هناك أمرًا مهمًّا. اخرج لي في الساحة.

بالخارج في الساحة أسفل ضوء النجوم التي لم تذوِ بعد، قال ياشكا لزوج أمه:

- لا تُصِب أمي بالعدوى يا تاراكانيتش... أنت مريض.

- وهل أنت تعرف جيدًا ما إن كنت مريض أم لا؟

- نعم أعرف... انظر إلى أمي... أرأيت كيف يبدو جسدها؟ لديها ساقان نظيفان، وصدر طاهر. لا تفسدها يا تاراكانيتش.. نحن مصابان بالعدوى.

- يا عزيزي.. ابعد نفسك عن دمائي، وعن غضبي... خذ هذه العشرين كوبيك، ونم، وسوف تستيقظ في حالة حسنة.

تمتم ساشكا:

- لا أريد أموالك... كل ما أريده أن تتركني لرعي الأغنام.

- أنا غير موافق على ذلك.

- أطلقني للرعي وإلا أخبرت أمي بالحقيقة. لماذا يتوجب عليها أن تعاني مع جسد مريض و...

التفت تاراكانيتش ودخل إلى السقيفة، وأتى بفأس. قال هامسًا:

- أيها القديس... باختصار سوف أمزقك إربًا.

أجابه الصبي بصوت مسموع إلى حد ما وهو يميل صوبه:

- أتمزقني بسبب امرأة؟ أشفق عليَّ وأطلقني للرعي.

فقال له تاراكانيتش وهو يلقي بالفأس بعيدًا:

– عليك اللعنة... اذهب للرعي.

ودخل الكوخ وعاد للنوم مع زوجته.

في هذا الصباح مضى ساشكا إلى القوزاق ليعمل لديهم راعيًا بالأجر، ومن هذه اللحظة فصاعدا أصبح راعيًا. ذاع صيته في المنطقة كلها لبرائته الشديدة، ونال من القوزاق الفلاحين تلك التسمية: ساشكا المسيح، وقضى أوقاته دائمًا في المراعي حتى استدعوه للخدمة العسكرية. كان الفلاحون العجائز الذين ليس لديهم ما يفعلونه يمضون إليه في عرباتهم لتبادل الحديث، وتلجأ إليه الفلاحات هربًا من أزواجهن المجانين، ولم يكن الغضب يساورهن من محبته أو من مرضه. كان استدعاء ساشكا للجيش في العام الأول من الحرب. قضى أربعة أعوام في الحرب ثم عاد إلى قريته حيث كان البِيض[٧٣] يسيطرون على مجريات الأمور. حثوا ساشكا على الذهاب إلى قرية بلاتوفسكايا، حيث كانت هناك فصيلة تُجمِّع شتاتها لقتال البيض. كان القائد سيميون ميخايلوفيتش بوديني هو من يقود تلك الفصيلة هناك، وكان لديه ثلاثة إخوة: يميليان – لوكيان – ودنيس. مضى ساشكا إلى قرية بلاتوفسكايا وهناك تقرر مصيره. انضم إلى قوات بوديني، وأصبح عضوًا في جيش الفرسان الأول. مضى لمساعدة المدينة الباسلة تساريتسين[٧٤]، وانضم للجيش العاشر تحت قيادة فوروشيلوف، وقاتل عند فورونيوج وكاستورنايا، وعند الجسر

(٧٣) مناصرو النظام القديم.

(٧٤) أطلق على المدينة بعد ذلك اسم ستالينجراد في عام ١٩٢٥ تكريمًا لستالين الذي لعب دورًا مهمًّا في الدفاع عن المدينة ضد قوات الجنرال دينيكين قائد قوات الحرس الأبيض الذي حاول الاستيلاء على المدينة. الآن تدعى المدينة فولجوجراد.

الشهير الذي عند الدونتس[٧٥]. لحق ساشكا بعدها بوحدة النقل، فقد اعتبروه مصابًا.

هذا ما حدث... في الآونة الأخيرة بدأت في التعرف على ساشكا المسيح، وأخذت صندوقي ووضعته في عربته. كنا نلتقي بين الحين والآخر، وكنا نشاهد الشروق معًا ونلتقي لنراقب الغروب أيضًا. وعندما كانت إرادة الحرب العنيدة تجمعنا ثانية، كنا نجلس في الأمسيات على الربوات اللامعة نحتسي الشاي من الغلاية التي تنفث بالدخان، أو نستلقي معًا فوق أرض الحقول، وجيادنا الجوعانة موثوقة بالحبال إلى أقدامنا.

* * *

(٧٥) منطقة بأوكرانيا.

حياة ماتفي روديونيتش بافليتشينكو

رفاقي وإخوتي الأعزاء... مواطنيَّ الريفيين... باسم الإنسانية أدعوكم للتعرف على حياة الجنرال الأحمر[٧٦] ماتفي بافليتشينكو. كان في الأصل راعيًا في حقول ليدينو، يعمل لدى السيد نيكيتينسكي، وظل يرعى خنازير سيده حتى حان موعد ارتدائه للكتافات العسكرية، وهي ما جعلته مالكًا بعد ذلك لقطيع من الماشية يتولى رعايته. من يعرفه جيدًا يذكر أنه قد وُلِد في النمسا، فصاحبنا ماتفي ابن روديونيتش يا أصدقائي كان يمكن أن يتطور الأمر معه لرعاية الأفيال... نعم... كان يمكن لماتيوشكا أن يصبح راعيًا للأفيال، ولكن للأسف لا وجود للأفيال في مقاطعتنا في ستافروبول. الحقيقة أن أضخم حيوان يمكن أن نراه هنا في منطقتنا هي الجاموسة الضخمة. والجاموس لا يمكنه أن يعزي صاحبنا البائس بشيء، فالروس بشكل عام يسخرون من رتابة الجاموس. فإن حصلنا نحن اليتامى على فرس في يوم القيامة فإني أضمن لكم أننا سوف نظل نسخر منها حتى تتمزق روحها تمامًا.

---

(٧٦) الأحمر رمز الشيوعيين.

حسنًا... ها أنا أرعى ماشيتي، وتحيط بي الأبقار من كل ناحية، مغمورًا في اللبن، تفوح مني رائحة ضروع الأبقار التي تخرج اللبن، والثيران الصغيرة تلهو من حولي، وكذلك الثيران الصغيرة الرمادية. الحرية من حولي بامتداد الحقول، وحفيف الأعشاب يتصاعد من مختلف الاتجاهات، والسماء مفتوحة بالأعلى كالأكورديون، والسماوات يا إخوتي شديدة الزرقة في ستافروبول. لذا فها أنا أرعى الماشية، وأعزف الناي على موسيقى الرياح، أتاني رجل عجوز وقال لي:

- اذهب يا ماتفي إلى ناستيا.

فأقول له:

- لماذا أيها العجوز؟ أم أنك تريد أن تسخر مني؟

- اذهب إليها... إنها تريدك.

- وها أنا قد جئتها. أقول لها والدماء قد اسودت كاملًا بداخلي:

- ناستيا... ناستيا... هل تسخرين مني؟

لكنها لم تلقِ لي بالًا، وركضت من أمامي... ركضت بكل ما لديها من قوة، فركضت أنا أيضًا، وظللنا نركض معًا حتى وصلنا إلى المرعى بأوجه حمراء من فرط التعب وانقطعت أنفاسنا من الركض. وهناك قالت لي:

- منذ ثلاثة أسابيع في يوم الأحد، عندما بدأ موسم صيد السمك الربيعي وامتلأت الشواطئ بالصيادين، كنت تسير معهم وقد ملت

برأسك قليلًا، فلماذا ملت برأسك؟ أم أن الفكر يمزق قلبك؟ أجبني.

أجبتها قائلًا:

– ناستيا... ليس لديَّ ما أجيبك به. رأسي ليست بندقية... ليست لديها فوهة أو مؤخرة، وقلبي أنتِ تعرفينه جيدًا... إنه خالٍ تمامًا يا ناستيا، سوى من بعض اللبن... من المريع أن تنبعث مني رائحة اللبن!

ويبدو أن ناستيا سوف تنفجر في الضحك من هذه الكلمات، تقول لي وهي تقهقه ضاحكة بكل ما لديها من قوة، وتتهادى ضحكاتها في السهول كما لو أنها طبول:

– أقسم بالصليب المقدس... أنت تعرف كيف تُحدِّث فتاة بمعسول الكلام!

تحدثنا حديثًا قصيرًا حول توافه الأمور، وسرعان ما تزوجتها. عشت مع ناستيا حياة حسنة بقدر ما أستطيع، وقد كانت حياة حسنة فعلًا. كنا نشعر بالحرارة طوال الليل، حتى في الشتاء، وكنا نظل عرايا طوال الليل، نتعانق بقوة. عشنا حياة مثيرة حتى تلك اللحظة التي جاء إليَّ فيها العجوز ثانية. يقول العجوز:

– ماتفي... منذ مدة قصيرة تحسس السيد جسد زوجتك في كل هذه الأماكن، وسوف ينالها ثانية.

– لا... لا... اغرب عن وجهي أيها العجوز وإلا قتلتك هنا الآن.

ابتعد العجوز دون أن ينبس بشفة، وفي هذا اليوم سرت على قدمي مسافة تقرب من العشرين فرست.... نعم... سرت في هذا اليوم مسافة

طويلة، وفي المساء وجدت نفسي قد وصلت إلى ضيعة ليدينو حيث منزل السيد السعيد نيكيتينسكي. كان العجوز جالسًا في غرفته منهمكًا في العمل على ثلاثة سروج: سرج انجليزي – سرج جندي في سلاح الفرسان – وثالث قوزاقي، ووجدت نفسي مغروسًا أمام بابه كالزرعة المغروسة في الأرض، لمدة ساعة كاملة دون أن تبدر مني أدنى حركة. بعدها وقعت عيناه عليَّ. قال لي:

– ماذا تريد؟

– أريد الحساب.

– هل هناك حساب تريد أن تُصفيه معي؟

– ليس لديَّ، لكني أود ذلك.

في هذه اللحظة أشاح ببصره عني صوب إحدى الزوايا... أشاح ببصره بعيدًا عن الطريق لينظر صوب الزقاق الصغير الموجود عند الحقل، ووضع السروج القرمزية على الأرض. كان لونها أكثر حدة من لون الأعلام القيصرية، ونهض العجوز ووطأ على السروج بغضب وعجرفة، وقال لي بغضب:

– فلتحيا الحرية! لقد قضيت وطري من أمهاتك جميعًا... جميعهن مسيحيات أرثوذوكسيات، ويمكنك أن تُصفي حسابك معي، ولكن ألست تدين لي بشيء صغير يا ماتيوشا العزيز؟

– آآه.. آآه... يا لك من مهذار! لعنة الله عليَّ إن لم تكن مهذارًا حقًّا! وكأنك أنت الذي تدفع لي أجري!

- أجرك؟

هكذا تعالى صياح السيد وهو يجبرني على الركوع، ويلوي ساقيَّ، ويصيح في أذني بالتجديف على الثالوث المقدس.

- أجرك! وهل نسيت النير الذي حطمته لي في العام الماضي؟ أين هو؟ أين نيري؟

- سوف أعطيك نيرك.

هكذا أجبته وأنا أنظر له بسذاجة جالسًا أمامه على ركبتي في وضع أدنى من أدنى المخلوقات، وأكملت قائلًا:

- سوف أعطيك نيرك، ولكن لا تغرقني بالواجبات أيها العجوز... امنحني بعض الوقت.

لذا يا أصدقائي... يا رفاقي من ستافروبول... يا إخوتي الأعزاء هكذا كان الأمر... لقد انتظرني سيدي خمسة أعوام كاملة كي أسدد ديوني... خمسة أعوام قد ضاعت مني حتى جاءنا عام ١٩١٨[٧٧] على متون الجياد، وقد جلب معه جيوشًا كبيرة وأغاني عديدة. آآه منك أيها يا عام ١٩١٨ الفاتن! آآه لو نتنزه معًا لبعض الوقت أيها العام الدموي! سوف ننشد أغانيك، ونشرب خمرك، ونؤسس لحقيقتك، ولكن كل ما قد تبقى منك هو عدد قليل من الكتبة... آآه يا عشقي! لم يكن الكتبة هم من طاروا في تلك الأيام عبر كوبان يُردون نفوس الجنرالات برصاصهم من على بعد خطوة واحدة! لا... أنا من فعل ذلك... أنا ماتفي روديونتش

(٧٧) العام الذي تلا اندلاع الثورة البلشفية في ١٩١٧.

الذي استلقى وقتها غارقًا في دمائه في بالقرب من بريكومسك... أنا ماتفي روديونيتش الذي ذهب إلى ضيعة ليدينو على بعد خمسة فرست من آخر تقاطع طريق. وقد ذهبت إلى هناك وحدي دون أن أصطحب أحدًا من قواتي، ودخلت إلى الغرفة بكل هدوء. كان بالغرفة بعض من أعضاء اللجان المحلية، ونيكيتينسكي يقدم لهم الشاي، ويمزح معهم، لكنه ما إن رآني حتى تغيرت ملامح وجهه تمامًا. خلعت قبعتي وقلت للحضور:

– مرحبًا.. مرحبًا. أتسمحون لي بالدخول، أم تُرى كيف سيمضي الأمر؟

أجابني واحد من الحضور بلهجة تنم عن كونه مسَّاحًا للأراضي:

– دعنا نعالج الأمر بهدوء ولطف، ولكن ما أراه يدل على أنك قد جئتنا أيها الرفيق بافليتشنكو من مسافة بعيدة، فقد غطتك الأتربة. نحن أعضاء اللجنة المحلية نخشى من هذه الهيئة المتربة، فلماذا تغطي الأتربة وجهك؟

– ذلك لأنكم باردو الدم... ذلك لأن أحد وجنتيَّ منذ خمسة أعوام وهو يشتعل... كان كذلك في الخندق، ومع امرأتي أيضًا، وسوف يظل كذلك في اليوم الأخير.

قلت «اليوم الأخير» وأنا أنظر إلى نيكيتينسكي بمظهر مزيف ينم عن الفرحة، لكن وجهه لم يعد يكشف عن وجود عينين... لم يعد في وجهه سوى محجرين فارغين، كما لو أنهما موجودان فقط أسفل جبهته، وهو يغمز لي بهاتين الكرتين الكريستاليتين بمظهر ينم عن الفرح، لكنه يشي

في الحقيقة بالهلع. قال لي:

- عزيزي ماتيوشا... نحن نعرف بعضنا البعض منذ زمن بعيد، بالإضافة إلى أن زوجتي ناديجدا فاسيليفنا التي أصابها الجنون بسبب ما حدث، كانت دائمًا طيبة معك. أنت كنت أكثر من يوقرها. ألا تود على الأقل أن تراها، حتى وإن كان الجنون قد أصابها؟

- حسنًا.

هكذا أجيبه ونمضي معًا إلى غرفة أخرى، وهناك يمسك بيدي اليسرى أولًا، ثم اليمنى، ويقول:

- ماتيوشا... هل أنت قدري أم لا؟

- لا، وكف عن استخدام مثل هذه الكلمات. لقد ألقى الله بنا في هذا العالم كالخدم وتركنا. إن مصيرنا أمر تافه لا يساوي كوبيكًا واحدًا. كف عن استخدام مثل هذه الكلمات، واسمع مني -إن شئت- خطاب لينين.

- لينين كتب لي خطابًا أنا نيكيتينسكي؟

- نعم.

قلت ذلك وأخرجت دفتر الأوامر، وفتحته على صفحة فارغة وأخذت أقرأ، مع إني جاهل لا أستطيع القراءة على الإطلاق.

- باسم الشعب... ومن أجل وضع قواعد حياتنا المستقبلية المشرقة، آمر الرفيق ماتفي روديونيتش بافليتشينكو أن يقتل البعض كما يتراءى له.

وقلت له:

– هذا هو خطاب لينين إليك.

– لا! لا يا عزيزي ماتيوشا، فحتى وإن صارت حياتنا في قبضة الشيطان، وأصبحت الدماء رخيصة في أمنا روسيا، ولكن بغض النظر عن حجم الدماء التي تريد إهراقها، فسوف تنالها في كل الأحوال، وسوف تنسى منظري وأنا أموت... أليس من الأفضل إذَنْ أن أكشف لك سري المُخبَّأ؟

– قد يكون ذلك من الأفضل حقًّا.

وغادرنا الغرفة ثانية، وهبطنا إلى قبو الخمور، وهناك انتزع أحد ألواح الطوب، فإذا بصندوق خلفه. كان الصندوق يحوي خواتم وأقراطًا وعقود أيقونة ذات لوح زمردي. أخرَج كل ذلك وقال لي وهو في حالة من الذهول:

– خذ كل ذلك. خذ أغلى ما لديَّ نيكيتينسكي، واذهب إلى عرينك في بريكومسك يا ماتفي.

حينها أمسكت به بعنف... أمسكت به من عنقه وشعره وقلت:

– وماذا عن وجنتي؟ كيف يمكن أن يكون الناس إخوة ويضرب أحدهم الآخر على وجنته؟

حينها انفجر في نوبة ضحك مدوية، ولم يستطع أن يتوقف. وقال أثناء الضحك:

– يا له من ضمير كلب! أتحدث معك كضابط بالإمبراطورية

الروسية، أما أنت فوغد ابن كلب... أطلق عليَّ النار يا ابن الكلب!

لكني لم أطلق عليه النار، فلم يكن يتوجب عليَّ فعل ذلك، لكني أطلقت النار عاليًا في البهو. هناك كانت تجلس ناديجدا فاسيليفنا المجنونة، ممسكة بسيف حاد، مستغرقة في النظر إلى المرآة. وعندما جررت نيكيتينسكي خارجًا إلى البهو، ركضت ناديجدا فاسيليفنا سريعًا إلى أحد المقاعد وجلست عليه، وكانت تتوج رأسها بإكليل مخملي، مزينًا بالريش. انزلقت على مقعدها ولوَّحت لي بالسيف. حينها بدأت أنهال على سيدي نيكيتينسكي بالضرب. أخذت أضربه طوال ساعة أو أكثر، وفي هذا الوقت عرفت تمامًا فحوى الحياة. دعوني أقول إنه بطلقة واحدة يمكن التخلص تمامًا من إنسان ما فقط، وستكون طلقة الرحمة له، وفي الوقت ذاته أمر شديد السهولة بالنسبة لي، لكنك لا يمكن أن تصيب روح الإنسان بطلقة، فأنت لا تعرف أين مكمنها، وماهيتها في حقيقة الأمر. لكن هناك أوقات أنسى فيها نفسي ولا أشفق عليها، وأنهال بالضرب على العدو لساعة أو أكثر. أريد أن أفهم طبيعة الحياة وما هي حقيقتها فعلًا.

* * *

مقابر كوزين

آآه من المقابر في البلدة اليهودية! إنها كآشور والفساد الغامض الآتي من الشرق! وآآه من ذلك العشب الضاري المتنامي في حقول فولينيا.

هناك يمكنك أن ترى الصخور الرمادية محفورًا عليها حروف منذ ثلاثمائة عام. ويمكنك أن ترى كلمات طلب الرحمة محفورة على الجرانيت بخط فج. على الصخور أيضًا يمكنك أن ترى بعض الرسوم للأسماك والماعز فوق رأس الميت، وبعض الرسوم للحاخامات بقبعاتهم المصنوعة من الفرو. يرتدي الحاخامات في الرسومات أحزمة تطوق خصورهم الضيقة. أسفل وجوههم التي تبدو بلا أعين يمكن رؤية تلك الخطوط التي تمثل لحياتهم المجعدة. في أحد الأركان أسفل شجرة البلوط التي حطمتها الصاعقة هناك مقبرة الحاخام إسرائيل الذي قتله قوزاق بوجدان خميلنيتسكي. أربعة أجيال مدفونة في تلك المقابر... أربعة أجيال من المعدمين في تلك المقابر الفقيرة التي تشبه كوخ حمَّال مياه، وهناك تلك الشهادات المكتوبة بالأخضر، كطلب

للرحمة على الطريقة البدوية:

إسرائيل بن عنانيا... فم يهوه[٧٨].

إيليا بن إسرائيل، الذي دخل معركة مع النسيان.

فولف بن إيليا... أمير قد انتُزِع من توراته في ربيعه التاسع عشر.

يهوذا بن فولف حاخام كراكوف وبراغ.

آآه من الموت الجشع... اللص الذي لا يشبع أبدًا... لماذا لا تشفق علينا لمرة واحدة فقط؟

❊ ❊ ❊

(٧٨) يهوه هو أحد أسماء الله عند اليهود، والمقصود بفم يهوه أي المتحدث باسمه.

بريشيبا

أشق طريقي إلى ليشنيوف حيث مقر القيادة. كالعادة يرافقني بريشيبا في طريقي، وهو قوزاقي من كوبان؛ عنيد لا يكل ولا يمل، شيوعي قد طُرِد من الحزب، جامع خرق في المستقبل، مريض مستهتر بالسفلس، يكذب دون تردد. يرتدي معطفًا قوقازيًّا قرمزيًّا من خامة جيدة من القماش، وقلنسوة ناعمة تميل صوب ظهره. في الطريق حكى لي عن نفسه...

منذ عام مضى هرب بريشيبا من قوات الحرس الأبيض. انتقموا منه بالقبض على والديه وإعدامهما بتهمة التجسس. سلب الجيران ملكية الأسرة. عندما تم دحر البيض من كوبان، عاد بريشيبا إلى بلده.

كان شروق الشمس قد بدأ، وما زال نوم الفلاحين يتنهد وسط هذه الأجواء الخانقة الفجة. استأجر بريشيبا عربة رسمية، ومضى إلى قريته ليجمع الفونوجرافات وصفائح الكفاس[٧٩] والمفارش المزخرفة التي كانت تصنعها أمه. خرج إلى الشارع مرتديًا معطفه الملبد الأسود،

(٧٩) نوع من الجعة الروسية.

وخنجرًا معقوفًا معلقًا في حزامه، والعربة تتأرجح من خلفه. مضى بريشيبا من جار إلى الآخر. في الأكواخ التي وجد فيها مقتنيات أمه أو غلايين أبيه، فارقها بعد أن علَّق كلاب النساء المسنات على الحائط ولطخ أيقوناتهن بالروث. تتبعه سكان القرية وهم ينفخون في غلاييهم بأعين عابسة. أما شباب القوزاق فقد تجمعوا في السهول كي يصفوا حسابهم. ازداد الحساب والقرية ما زالت صامتة. بعد أن انتهى بريشيبا من عمله عاد إلى منزل أسرته المهدَّم. حاول تنظيم الأثاث المكسور الذي كان يذكره منذ أيام طفولته، وأرسل في طلب الفودكا. أغلق على نفسه داخل منزله وأخذ يشرب لمدة يومين... أخذ يشرب ويبكي ويحطم طاولته بسيفه.

في الليلة الثالثة شاهدت القرية الدخان يتصاعد من منزل بريشيبا. خرج من كوخه والجروح والحروق تغطي جسده، وأخرج البقرة من الحظيرة، ووضع المسدس في فمها وأطلق النار. كانت الأرض تُدخِّن من أسفل قدميه، في الوقت الذي لاحت فيه حلقة زرقاء من اللهب من مدخنته ثم تلاشت، بينما بدأ العجل الصغير الذي هجرته أمه في النحيب في الإسطبل. كان الحريق يلمع كضوء القيامة في يوم العيد المقدس. حلَّ بريشيبا الحبل الذي يربط الجواد وقفز فوق سرجه، وألقى بحزمة من شعره في النيران، وسرعان ما توارى عن الأنظار.

* * *

قصة جواد

ذات يوم أخذ سافيتسكي قائد كتيبتنا جوادًا أبيضًا كان لخليبنيكوف قائد الفرقة الأولى. كان الجواد شديد الجمال، لكنه يبدو خشنًا بعض الشيء، وهو ما كان يبدو لي منفرًا. حصل خليبنيكوف في المقابل على فرس أسود من فصيلة جيدة يركض بسلاسة، لكنه أساء معاملته، فانتظر الجواد الفرصة السانحة للانتقام.

بعد انتهاء معارك شهر يوليو التي لم تحظَ بنجاح يُذكر، وعندما أبعدوا سافيتسكي عن القيادة وأرسلوه لقوات الاحتياط، كتب خليبنيكوف طلبًا إلى قيادة الجيش يطلب فيه عودة جواده إليه. أرفق قائد القوات قراره بالطلب كالآتي: «يُعاد الجواد إلى مالكه الأول». ابتهل خليبنيكوف وقطع مائة فرست كي يصل إلى سافيتسكي الذي كان يعيش وقتها في رادزيفيلوف في مدينة صغيرة بالية تشبه عاهرة عجوزًا شعثاء. كان يعيش هناك بمفرده، ولم يعد أولئك المتزلفون بالقيادة يعرفون عنه شيئًا. لقد كانوا مشغولين بإعداد الدجاج المشوي واصطياد ضحكات قادتهم، وعندما انشغلوا بمحاولاتهم الذليلة، أداروا ظهورهم للقائد اللامع السابق.

كانت الروائح الجميلة تنضح منه، وهو يشبه بطرس الأكبر، لكنه يعيش عيشة ذليلة مع امرأة قوزاقية تُدعى بافلا استولى عليها من أحد المندوبين اليهود بالإضافة إلى عشرين جوادًا أصيلًا اعتبرناها من ملكيته. كانت الشمس تغطي فناءَه، وتبعث الضيق بأشعتها الحارقة، بينما انهمكت المهور في ساحته في امتصاص اللبن من حلمات أمهاتهن، وانشغل العاملون بالحظيرة في ذر الشوفان بمذارٍ باهتة. مضى خليبنيكوف إلى الفناء المُسيَّج مجروحًا للغاية متلهفًا للانتقام مما حدث. سأل سافيتسكي الذي كان مستلقيًا على العشب:

– هل تعرف من أنا؟

أجابه سافيتسكي وهو يتثاءب:

– أعتقد أني رأيتك من قبل.

– في هذه الحالة فها هو قرار القيادة. من فضلك أيها الرفيق الذي من قوات الاحتياط، تعامل معي بطريقة رسمية.

– حسنًا.

هكذا تمتم سافيتسكي بطريقة استرضائية، وتناول الورقة واستغرق وقتًا طويلًا في قراءتها. بعدها استدعى فجأة المرأة القوزاقية التي كانت مشغولة بتصفيف شعرها في جو لطيف أسفل السقيفة. قال لها:

– بافلا... أقسم أنكِ مشغولة في تصفيف شعركِ منذ الصباح، لذا ائتينا بالسماور من فضلكِ.

نحَّت بافلا المشط جانبًا، وأمسكت بشعرها وطرحته إلى الخلف

على ظهرها، ثم قالت بابتسامة كسولة متغطرسة:

– أنت لم تفعل شيئًا طوال اليوم يا كونستنتين فاسيليفيتش سوى التشاحن. تريد في البداية هذا، ثم بعدها تريد ذلك!

ثم توجهت صوب سافيتسكي بصدرها الريان الذي يتأرجح كحيوان داخل حقيبة. كررت المرأة وهي في كامل بهائها بينما تزرر قميص زوجها:

– طوال اليوم لا تفعل شيئًا سوى التشاحن.

فقال سافيتسكي وهو يضحك ويمسك بكتفيها:

– فى البداية أريد هذا، وبعدها أريد ذلك!

وفجأة تحول وجهه وهو يلتفت لينظر إلى خليبنيكوف قائلًا:

– ما زلت حيًّا يا خليبنيكوف. ما زالت قدماي تحملاني، وما زالت جيادي تستطيع أن تقفز، وما زالت يداي تستطيعان أن تمسك بك، وما زلت أرتدي سلاحي ويدفئ جسدي.

وسحب مسدسه المعلق على بطنه العارية، واقترب من قائد الفرقة الأولى. أما الأخير فقد دار على كعبيه على الطريقة العسكرية، وصلصلت مهاميزه، وخرج من الفناء كجندي قد حصل على أمر مهم، وقطع مائة فرست أخرى كي يصل إلى قائد القوات، لكن الأخير طرده. قال له:

– لقد نظرت في أمرك بالفعل، وأمرت أن يُعاد إليك جوادك، أما الآن فلديَّ ما يكفيني من مشاغل.

ولم يعد يستمع لخليبنيكوف، وعاد في النهاية قائد الفرقة الأولى لفرقته. طوال أسبوع كامل ظل خليبنيكوف غائبًا. في هذا الوقت كانوا قد أرسلونا إلى غابات دوبنو لنقيم معسكرنا هناك. أقمنا هناك الخيام ومضت أمور المعيشة على ما يرام. ثم عاد خليبنيكوف على ما أذكر في صباح الأحد الثاني عشر من الشهر. طلب مني أن أجلب له أكثر من دستتين من الأوراق وبعض الحبر أيضًا. قطع القوزاق شجرة من أجله خصيصًا. وضع خليبنيكوف مسدسه على الجذع المقطوع، وكذلك الأوراق التي جلبتها له وظل يكتب حتى المساء، واستهلك كمية كبيرة من الأوراق.

في المساء قال له مفوض الفرقة:

– وكأنك كارل ماركس! ماذا تكتب بحق الجحيم؟

أجابه خليبنياكوف:

– أكتب عن كثير من الأفكار فيما يتوافق مع القسم الذي قمت به.

وقدَّم لمفوض الفوج بيانًا بخروج من الحزب الشيوعي للبلاشفة. كان نصها كالآتي:

"لقد تأسس الحزب الشيوعي على افتراض القدرة على حوز السعادة والحقيقة الصلبة التي تتخطى الحدود، وكذلك الحفاظ على حقوق صغار الناس. وهنا أريد أن أتحدث بشأن الجواد الأبيض الذي تم الاستيلاء عليه ذات مرة من قبل الفلاحين شديدي العداء للثورة، وهو جواد رث الهيئة حتى إن كثير من الرفاق أخذوا يسخرون منه بوقاحة،

لكني كنت قادرًا على تحمل هذه السخرية الحادة، فصررت على أسناني من أجل الصالح العام، وأخذت الجواد وحاولت إعادته إلى هيئة حسنة مرة ثانية، والسبب في ذلك أيها الرفاق، دعنا نقول إني شديد الحماسة للجياد، وقد كرَّست لها من تبقى لي من القوة بعد بذل الكثير في الحرب الإمبريالية والحرب الأهلية، وهذا الجواد يشعر بشعور جيد لملامسته ليدي، ويمكنني أنا أيضًا أن أشعر بما يحتاج إليه في صمت، وما يجب أن نوفره له، لكني لا يمكنني أن أشعر بما يحتاج إليه الجواد الأسود الجائر ولا يمكنني تحمله، وهو الأمر الذي يمكن أن يشهد عليه الرفاق، فلا أستطيع أن أتحمل سوى قدر معين من المشاكل. يبدو أن الحزب لا يمكنه أن يعيد لي رفيقي طبقًا للقرار الذي صدر، ولذلك فليس أمامي مخرج سوى كتابة هذا البيان، والدموع تنهمر من عيني، وهو أمر لا يليق بمقاتل، لكنها تتدفق رغمًا عني دون انقطاع وتضني الفؤاد وتعذبه".

هذا ما كان في البيان بالإضافة إلى كلمات أخرى. استغرق يومًا كاملًا في كتابته، وكان طويلًا للغاية. استغرق الأمر مني أنا والمفوض ساعة كاملة لقراءته. قال المفوض:

- يا لك من أحمق!

ومزَّق الورقة، ثم أضاف:

- عليك أن تحضر إليَّ بعد العشاء، فأنا أريد أن أتحدث معك.

أجابه خليبنيكوف مرتعشًا:

- لا داعي للحديث. لقد انتهى أمري.

كان واقفًا في وضعيته العسكرية، يرتعش ولا يتحرك من مكانه يحدق في إحدى الزوايا، كما لو أنه يحسب كم سيتوجب عليه أن يركض في الطريق. اقترب منه المفوض، لكن أعينهما لم تتلاق. تحرك فجأة خليبنيكوف وركض بكل ما لديه من قوة. كان يصيح بوحشية:

– لقد انتهى أمري!

وقفز من فوق جذع الشجرة، وهو يمزق رداءه ويضرب على صدره. ثم صاح وهو يسقط على الأرض:

– هيا اضربني يا سافيتسكي... اقض عليَّ فورًا!

بمساعدة القوزاق استطعنا أن نمسك به ونشده إلى داخل الخيمة. أسقيناه بعض الشاي، ولففنا له بعض السجائر. أخذ يدخن وهو يرتعش بشدة، ولم يهدأ قائدنا إلا قرابة المساء. لم يعد يتحدث عن بيانه المجنون، لكنه في غضون أسبوع كان قد رحل إلى روفنو، ليخضع للفحص من قِبل لجنة طبية، وتم استبعاده من الخدمة بدعوى أنه مصاب بستِّ إصابات.

هكذا فقدنا خليبنيكوف. شعرت بالأسف من أجله فقد كان إنسانًا هادئًا، بالإضافة إلى أوجه الشبه بين شخصيتنا. كان لديه سماور واحد، وكنا نشرب الشاي معه في هدوء. كان لدينا نفس الشغف، فقد كنا ننظر إلى العالم كما ينظر المرء إلى مرعى في شهر مايو... إلى مرعى تتجول فيه النساء والجياد.

كونكين

كنا نسحق البولنديين إذَنْ بالقرب من بيلايا تسيركوف. سحقنا أعدادًا وفيرة منهم، حتى إن الأشجار انحنت من هول المنظر. استقبلت ضربات قوية منذ بداية الصباح، لكني تمكنت من الاستمرار بطريقة أو بأخرى. كان اليوم يقترب من نهايته على ما أذكر. وجدت نفسي قد انفصلت عن اللواء التابع إليه، ولم يبق معي سوى خمسة من بروليتاريا القوزاق. كل شيء من حولي كان محطمًا، وكنت أفقد ما لديَّ تدريجيًّا، وجوادي لا يتوقف عن التبول... هل أحتاج لوصف المزيد؟

انتهى بي الأمر أنا وسبيركا زابوتي بعيدًا عن الغابة. أخذنا ننظر من حولنا ونحاول تعقل الأمر... نعم... تبقى أمامنا ثلاثمائة ساجن[٨٠]، لا أكثر، وكنا نرى سحابة من التراب، وهي إما من القيادة أو من قافلة النقل. إن كانت من القيادة فحسنًا يكون الأمر، وإن كانت القافلة فالأمر حينها يكون أفضل. لقد تحولت ثياب الرفاق إلى أسمال تقريبًا، بالكاد تغطي عوراتهم.

(٨٠) وحدة قياس روسية قديمة.

قلت لسبيركا وأنا أسبه قائلًا له إنه ابن عاهرة وإن أمه كذا وكذا... سأترك لك هذا الجزء تتخيله، فأنت أيها القارئ هنا المتكلم الرئيس:

– أهؤلاء ينتمون إلى قيادتنا؟

– يمكنك أن تراهن بحياتك على ذلك. المشكلة أننا اثنان، بينما هم ثمانية أفراد.

– الريح تهب حيث تشاء يا سبيركا... الأمر سيان... دعنا نلقي ببعض القذارة على ثيابهم البهية. فلنمت من أجل بعض الخيار المخلل والثورة العالمية!

ومضينا صوبهم. كان لديهم ثمانية سيوف. أصبنا منهم اثنين بأسلحتنا، ورأيت سبيركا يجر الثالث إلى مقر القيادة بدوخونين كي يفحص أوراقه. بينما انشغلت أنا في مواجهة زعيمهم. نعم يا رفاق... كان هو كبيرهم، وكان يرتدي سلسلة وساعة ذهبية. شددته صوب المزرعة، وكانت مليئة بأشجار التفاح والكرز. كان جواد الرجل جميلًا وممتلئًا كابنة تاجر، لكنه كان منهكًا. حينها وجَّه الجنرال بندقيته الماوزر إليَّ وأطلق على ساقي. حينها قلت في نفسي:

– حسنًا يا روحي! سوف أجعلك تفتح قدميك الآن كالعاهرة.

وأطلقت طلقتين على الجواد. شعرت بالأسى على الجواد. كان جوادًا بلشفيًّا عن حق! بلون النحاس الضارب إلى الحمرة كعملة النقود، بذيل قصير وساقين رشيقتين. كان من النوع الذي أود أن أقدمه هدية إلى لينين، ولكن ما من مفر! قتلت هذا الجواد، فتهاوى

كالعروس، وتهاوى الجنرال من فوق جواده. سقط على أحد جانبيه، ثم أطلق رصاصة أصابتني ثانية. لذا فلديَّ الآن -إن جاز التعبير- ثلاثة تذكارات في جسدي من العدو.

قلت في نفسي: "يا يسوع... راقبه فقط وهو يجهز عليَّ بالخطأ". عدوت صوبه، وكان قد انتزع سيفه بالفعل، والدموع على وجنتيه... دموع بيضاء، كحليب بشري. صرخت فيه:

- سوف تجعلني أنال ميدالية من الجيش الأحمر. استسلم يا سيدي بينما ما أزال حيًّا.

أجابني العجوز:

- لا أستطيع أن أقوم بذلك يا سيد. أجهز عليَّ.

وفجأة وجدت سبيركا واقفًا أمامي. كان وجهه متعرقًا، وقد بدت عيناه كما لو أنها تتدلى على خيوط من وجهه القبيح. صرخ فيَّ:

- فاسيا! الله وحده يعلم كم من البشر قد أجهزت عليهم! لديك جنرال رفيع المستوى، يرتدي نياشين مزخرفة. أود لو أنهي أنا حياته.

قلت له بغضب:

- اذهب للأتراك[٨١] إذَنْ إن كنت ترغب في مزيد من الدماء. أنا من يجب أن أهرق دمه... إنها دمائي تلك التي على نياشينه!

ودست بقدمي جوادي المكان الذي يدرسون فيه الحنطة هنا في المزرعة، وكان هناك مقدار قليل من التبن.

---

(٨١) الإشارة إلى العداوة التاريخية بين الإمبراطورية العثمانية والروسية.

ساد الهدوء وخيَّم الظلام، واشتدت برودة الجو.... قلت:

- يا سيد... أشفقْ على كهولتك، واستسلم لي بحق الله، ودع كلانا ينعم بالراحة.

تعالت صوت أنفاسه وهو مستند على الجدار بصدره، بينما يحك جبهته بأصابعه الحمراء.

- لا أستطيع. اقتلني، فإني لا أستطيع تسليم سيفي سوى إلى بوديني.

يريد الاستسلام لبوديني! آآه... يا لبليتي! يمكنني حقًّا أن أقول إن العجوز لم تعد لديه مزيد من القوة. صحت فيه بينما أنتحب وأصر على أسناني:

- أيها السيد! أقسم بشرف البروليتاريا إني قائد عسكري أنا أيضًا. صحيح أنك لن تجد نياشينًا عسكرية على ثيابي، ولكن لقبي العسكري مكتوب. أتريد أن تراه.. حسنًا: موسيقي غريب الأطوار ومقلد للأصوات من مدنية نيجنـ.... من مدينة نيجني جورود على ضفاف نهر الفولجا.

ثم تملكني الشيطان فجأة. بدت أعين الجنرال أمامي تومض كالمصابيح. لاح أمامي بحر أحمر. اخترقت إساءته جروحي وأشعلتها كما يفعل الملح، وذلك لأني أيقنت أنه لا يصدقني. حينها أغلقت فمي يا رفاق، وسحبت بطني إلى الداخل بينما أخذ نفسًا عميقًا، ووضَّحت له بطريقة مناسبة - أقصد طريقتنا نحن المقاتلون، طريقة أبناء نيجني جورود - كنه عملي بالضبط، وبدأت في تقليد الأصوات.

حينها شحب وجه العجوز، وتأثر بشدة وجلس على الأرض.

- أتصدق الآن فاسكا مقلد الأصوات، قائد كتيبة الفرسان الثالثة التي لا تُقهر؟

- قائد الكتيبة؟

- نعم... قائد الكتيبة.

- وشيوعي؟

- نعم.. شيوعي.

حينها صاح:

- قُل لي بحق ساعة موتي... بحق أنفاسي الأخيرة يا صديقي القوزاقي... أشيوعي أنت أم أنك مجرد أفَّاق؟

- أنا شيوعي.

حينها جلس العجوز على الأرض ثانية، ثم قبَّل تعويذة ما، ثم كسر سيفه إلى اثنين، ولاح بريقان على عينيه، فبدت عيناه وكأنهما مصباحان في قلب السهل المظلم. قال لي:

- سامحني، لكني لا أستطيع الاستسلام لشيوعي.

وأمسك بيدي يصافحها بينما يقول:

- سامحني... أجهز عليَّ كرجل عسكري.

هذه القصة قصها علينا ذات مرة في مخيم كونكين قائد فريق الفرسان، والحاصل على وسام العلم الأحمر لثلاث مرات، بكل ما فيها

من هزل.

- وكيف اتفقتما في النهاية يا فاسكا؟

- أتفق معه؟ وهل يمكن أن أتفق مع شخص كهذا؟ كان شديد الكبرياء. ترجيته مرة أخرى لكنه رفض. حينها أخذنا منه أوراقه، وكذلك بندقيته الماوزر، وكذلك سرجه الغريب، الذي أنا جالس عليه الآن، وبعدها رأيت حياتي كلها تنسل أمام عيني، وهاجمني إحساس نعاس مفزع، وامتلأ حذائي بالدم.

- أتعني أنك وضعت حدًّا لمعاناته أخيرًا؟

- نعم.. ارتكبت هذه الخطيئة.

* * *

بيريستيتشكو

كنا في طريقنا إلى بيريستيتشيكو، قادمين من خوتين. كان المقاتلون يغفون فوق جيادهم، وتتهادى أصوات أغنيات تشبه صوت نهر قد جف. بداخل التلال التي تبلغ من العمر آلاف الأعوام ثمة أعداد رهيبة من الجثث. كان الفلاحون الذين نمر بهم يرتدون قمصانًا بيضاء، ويرفعون قبعاتهم تحية لنا. كانت عباءة قائد الفرقة بافليتشينكو ترفرف فوق رؤوس الجنود كراية كئيبة، وتميل قلنسوته الزغبية على جانبها قليلًا صوب عباءته.

عبرنا مقابر القوزاق وحصن بوجدان خميلنيتسيكوف. كان هناك شيخ يزحف من خلف حجر الضرائح، ينشد على البندورا[٨٢] بصوت طفولي أغانيَ عن مجد القوزاق الذي كان. استمعنا لغنائه في صمت، ثم بسطنا الرايات، وتوجهنا بسرعة صوب بيريستيشيكو على أصوات المارش العسكري الرهيب. وضع السكان قضبان حديدية فوق أطر

(٨٢) آلة موسيقية أوكرانية.

نوافذهم، ثم ساد الصمت... ساد الصمت المهيمن واستوى فوق عرش المدينة.

جاء نصيبي في السكن لدى أرملة ذات شعر أحمر، تفوح منها رائحة حزن الأرامل. اغتسلت من تراب الطريق، وخرجت إلى الشارع. رأيت لافتات معلقة على العواميد تعلن عن إن الفونوجرافات العسكرية سوف تذيع في المساء تقرير الاجتماع الثاني للكومنترن. رأيت أمام المنزل مباشرة بعض القوزاق يستعدون لإطلاق النار على يهودي عجوز ذي لحية رمادية بتهمة التجسس. صاح العجوز وحاول الهرب. حينها أمسك كودريا من فريق المدفعية برأسه ووضعها تحت إبطه. صمت اليهودي وبسط ساقيه، أما كودريا فأمسك بالخنجر بيده اليمنى وذبح العجوز بحذر حتى لا يلطخ نفسه بدمائه. بعدها طرق على إحدى النوافذ المغلقة، وقال:

– إن كان هناك أحد يهتم به يمكنه أن يأتي ويأخذه. لكم الحرية في فعل ذلك.

ثم انعطف القوزاق من عند زاوية الشارع. تتبعت أثرهم وأخذت أتسكع في بيريستيتشكو. أغلب الناس هنا يهود، ولا تجد رُوْسًا من المدينة سوى في الضواحي، وأغلبهم من البرجوازيين أصحاب المدابغ. يعيشون حياة نظيفة في بيوت صغيرة بيضاء، من خلف ستائر خضراء. لا يشربون الفودكا؛ بل الجعة أو شراب الميد[٨٣]، ويدخنون التبغ المزروع في حدائقهم الصغيرة في غلايين متقوسة طويلة كفلاحي جاليسيا.

(٨٣) خمرة من عسل وجعة.

إنهم إذَنْ ثلاثة أجناس نشيطة وفعَّالة، يحملون جميعًا في داخلهم حبًّا عنيدًا للعمل، وهو ما يميز أحيانًا الإنسان الروسي طالما لم يصبح خسيسًا بعد، أو سقط في هوة اليأس، أو استسلم للخمر.

حاولت بيريستيتشيكا أن تصمد أمام العواصف الضارية، والغصون الصغيرة التي استطاعت الصمود لثلاثة قرون لا زال بإمكانها أن تكتسي بالخضرة في هذه النواحى الدافئة المتعفنة من فولين. استطاع اليهود هنا ربط الفلاح الروسي بالسادة البولنديين والمستعمرين التشيك ومصانع لودز بقيود الربح. بدأ اليهود هنا عملهم في الأساس كمهربين، وكانوا الأفضل على الحدود، ثم تحولوا إلى محاربين من أجل الإيمان. وقد استطاعت الحسيدية من الإبقاء على هذا الخليط المتململ من السكان من أصحاب الحانات والباعة المتجولين وبائعي الألبان. ما زال الصبية هنا يذهبون عبر هذا الطرق القديم إلى مدرسة الحسيديين بمعاطفهم الطويلة، وما زالت العجائز يجلبن زوجات أبنائهن إلى الشيوخ المعروفة عنهم كراماتهم، ليتلوا صلواتهم المحمومة من أجل إمداد الفتيات بالخصوبة.

يعيش اليهود هنا في بيوت واسعة مطلية بالأبيض أو الأزرق الرقيق. تعود هذه التصميمات المعمارية المتواضعة إلى مئات من الأعوام. تجد خلف كل منزل كوخًا من طابقين وأحيانًا من ثلاث طوابق. لا تدخل أشعة الشمس هذه الأكواخ أبدًا. إنها أكواخ كئيبة بدرجة لا توصف، وهي موجودة هنا بدلًا من الساحات الخلفية التي لدينا. هناك ممرات سرية تؤدي إلى الأقبية والحظائر. في أوقات الحرب يختبئ الناس

داخل هذه الأقبية من الرصاص والسرقة. يمكن أن يتراكم هنا روث البهائم وفضلات البشر لأيام عديدة، ويملأ الهلع والكآبة هذه الأقبية والسردايب برائحة لاذعة، بالإضافة لرائحة الغائط النتنة المريعة.

حتى هذه اللحظة تفوح رائحة نتنة من بيريستيتشيكو، تبدو وكأنها أبدية، وهي رائحة الأسماك المملحة التي تنبعث من الناس. تتعفن البلدة، وتنتظر عصرًا جديدًا، قبل أن يذوي الناس فيها كاملًا من تفكيرهم في المصائب التي تجلبها الحدود. بنهاية اليوم كنت قد اكتفيت منهم تمامًا، فمضيت نحو حدود المدينة وصعدت الجبل، واقتحمت قلعة آل راتسيبورسكي المهدمة المغلقة، وهم المالكون الحاليين لبيريستيتشكو.

لوَّن الغروب الهادئ لون العشب الذي عند القلعة بلون أزرق، والقمر يطفو فوق البحيرة الصغيرة، ويبدو لونه أخضر لازورديًّا. بالنظر من النافذة رأيت ضيعة آل راتسيبورسكي... رأيت المرج وبستان الجنجل مختبئين خلف أمواج الشفق الرائقة.

عاشت في هذه القلعة سابقًا كونتيسة تبلغ من العمر تسعين عامًا بصحبة ابنها. كانت تُعكِّر من صفوه لأنه لم يمنح سلالتهما الذاوية ورثة، وحكى لي الفلاحون أن الكونتيسة كانت تضرب ابنها بسوط الحوذي.

كان حشد من الناس يجتمعون في الميدان بالأسفل. وصل الفلاحون واليهود وأصحاب المدابغ من الضواحي. تعالى من هناك صوت فينوجرادوف الحماسي، وكذلك صليل مهمازه. ألقى خطبة عن الاجتماع الثاني للكومنترن، بينما كنت أتسكع بالقرب من الحوائط

حث كانت الحوريات ذوات الأعين الفاتنة يرقصن قديمًا رقصاتهن الدائرية. ثم وجدت في زاوية المكان على الأرض بقايا خطاب قديم باهت مدهوس. كان مكتوبًا فيه بحبر باهت الآتي:

Berestetchko, 1820. Paul, mon bien aime, on dit» que l›empereur Napoleon est mort, est-ce vrai? Moi, je me sens bien, les couches ont ete faciles, notre petit heros acheve sept semaines...« (٨٤)

تدريجيًّا يخفت صوت المفوض العسكري بالأسفل. أخذ يخطب بحماسة في البورجوازيين المرتبكين واليهود الأنيقين قائلًا: "أنتم السلطة.. السلطة هنا لكم. لا مزيد من السادة. سوف نبدأ في التحضير لانتخابات اللجنة الثورية".

* * *

(٨٤) بريستيتشيكو ١٨٢٠: حبيبي بول... يقولون إن الإمبراطور نابليون قد قضى نحبه.. حقًّا هذا؟ أشعر أني على ما يرام. مضت الولادة على ما يرام. بطلنا الصغير يبلغ الآن من العمر سبعة أسابيع.

الملح

عزيزي الرفيق المحرر...

أود أن أحكي لك قليلًا عن أولئك النساء اللاتي لا يتحملن المسؤولية ويسببن لنا الضرر. أعقد عليك الآمال، فأنت قد تجولت كثيرًا في بلادنا، لكنك لم تتجاوز محطة فاستوف القديمة الواقعة في بقعة بعيدة جدًّا حيث لا تسيطر عليها الدولة، وهي تتكون من مساحة كبيرة غير معروف قدرها تحديدًا، وأنا قد احتسيت بالطبع هناك جعة قوية بسرور وبهجة. يمكنك أن تكتب الكثير عن هذه المحطة المذكورة آنفًا، ولكن كما نقول بلغتنا الدارجة: «لا يمكنك أن تتخلص تمامًا من الخراء». لذلك فأنا لن أكتب إلَّا عما رأيته بأم عيني فقط.

كانت ليلة هادئة عظيمة عندما توقف قطارنا الجليل الذي لسلاح الفرسان هناك منذ سبعة أيام مضت، معبئًا بالمقاتلين. كنا جميعًا نتوق إلى تعزيز قضيتنا المشتركة، وكنا في طريقنا إلى برديتشيف. لكننا لاحظنا أن قطارنا لا يتوجه إلى أي مكان على الإطلاق، فجافريلكا لا يدخن، وبدأ الشك يساور المقاتلين، وبدأوا يتساءلون فيما بينهم: لماذا نتوقف هنا؟ الحقيقة أن المحطة هنا أثبتت أنها شديدة الأهمية لأجل

الصالح العام، وذلك لأن الباعة الجائلين – أولئك الأوغاد الذين تسري بينهم قوة جنس النساء غير المحدودة – كانوا يتعاملون بطريقة شديدة الوقاحة مع المسؤولين في السكك الحديدية. استولى أولئك الأوغاد دون خوف على درابزين محطة السكك الحديدية، وركضوا فوق الأسطح الحديدية، وهم يمرحون ويثيرون المتاعب، وفي يد كل منهم أكياس من ذلك الملح المسروق، قد يصل وزن كل كيس منه إلى ٥ بود[٨٥]. لكن الفرحة بما قد استولوا عليه لم تستمر طويلًا، فالحركة التي دبت بين المقاتلين الذين خرجوا من القطار ورأوا ما حدث، منحت سلطة السكك الحديدية الممتعضة الفرصة كي تُنفِّس عما يحتبس في صدرها من غضب. لم يكن هناك أحد قد تبقى على مرأى النظر سوى النساء حاملات أكياس الملح. شعر الجنود بالأسى على أولئك النساء فسمحوا للبعض بالدخول، ولم يسمحوا للبعض الآخر. كذلك كان الأمر في عربتنا التي تحوي الفصيلة الثانية، فقد دخلت فتاتان إلى عربتنا، وبعد أن دق الجرس الأول، ظهرت امرأة محترمة تحمل طفلها على يدها تريد أن تدخل قائلة:

– اسمحوا لي بالدخول أيها القوزاق المحترمون... طوال الحرب وأنا أكدح بين العربات، حاملة طفلي الرضيع، والآن أريد أن ألتقي بزوجي، لكن كما تعرفون لم يعد من الممكن السفر على السكك الحديدية. ألا أستحق بعض المساعدة منكم أيها القوزاق؟

قلت لها:

---

(٨٥) وحدة وزن روسية قديمة.

- ولكن أيًّا كان الطريق الذي سيسلكه القطار سيكون هذا قدرك.

ثم التفتُّ إلى بقية الفصيلة، وأخبرتهم أن هناك امرأة كريمة تطلب منا السماح لها بالدخول إلى القطار كي تستطيع أن تلتقي بزوجها، وهي تصطحب طفلها، فهل توافقون على دخولها أم لا؟

صاح الرفاق:

- دعها تدخل. بعدما ننتهي منها لن تعود راغبة في زوجها.

فقلت لهم بأدب:

- لا.. كلي احترام لكم أيها الرفاق، لكني أتعجب فعلًا من سماع هذا الكلام البذيء منكم. تذكروا أيها الرفاق ماضيكم وكيف كنتم أنت أيضًا أطفالًا ذات يوم تحملكم أمهاتكم، وحينها ستدركون أنه لا يتوجب عليكم التفوه بمثل هذه الألفاظ.

فقال القوزاق فيما بينهم: «بالماشيف مقنع حقًّا»، وبدأوا يفسحون المكان في عربتهم للمرأة، فدخلت العربة شاكرة. وعندما رأى المقاتلون صواب حديثي، بدأوا يتنافسون في مد يد العون لها قائلين:

- اجلسي هنا يا سيدتي في هذا الركن... لاطفي ابنك كما تفعل الأمهات. لن يُسبِّب لكِ أحد أي مشكلة وأنتِ في هذا الركن، وستصلين إلى زوجكِ سالمة كما تتمنين، ونحن نعتمد عليكِ في أن تنشئي جيلًا جديدًا يحل مكاننا، فكما ترين لقد هرمنا، والشباب هنا عددهم قليل. لقد عانينا من الأسى بما فيه الكفاية يا سيدتي، وعذبنا الجوع وكدنا أن نهلك من البرودة طوال مدة خدمتنا الطويلة. لذا يمكنكِ أن تجلسي هنا

يا سيدتي ولا تخافي شيئًا.

ومع دوي صوت الصفارة الثالثة بدأ القطار في التحرك، وبسط الليل الفاتن ستاره، ولاحت النجوم على هذا الستار كالمصابيح الصغيرة، وتذكر المقاتلون ليل كوبان[٨٦] ونجمه الأخضر. حلَّقت الذكريات كالطائر، أخذت عجلات القطار تصر، وتصر...

مع مرور الوقت، وعندما تلاشى الليل، بدأت الطبيعة في بسط لونها الأحمر على صفحة السماء مع اقتراب الفجر، وعندها اقترب مني بعض القوزاق، وقد رأوا أني لست نائمًا، وأشعر بالوحشة بشدة. قالوا لي:

- بالماشيف... لماذا تشعر بالوحشة ولا تستطيع النوم؟

- أُكِنُّ لكم عظيم الاحترام، ولديَّ طلب صغير منكم، فأنا أرجوكم أن تسمحوا لي بالتحدث لوهلة قصيرة مع هذه المواطنة.

نهضت من جلستي التي جافاها النوم، وجسدي يرتعش كاملًا، كذئب قد خلَّص نفسه من بين فكاك كلاب ضارية، وأقترب منها، وأخذ الطفل من يدها، وأخلع عنه هذه الخرق؛ فإذا هو كيس من الملح مخبأ في حفاظة.

- يا له من طفل مثير يا رفاق، فهو لا يطلب ثدي أمه، ولا يتبول على تنورة أمه ولا يزعج منام الآخرين.

تدخلت السيدة بهدوء في الحوار وقالت:

- معذرة أيها السادة القوزاق المحترمون. لم أكن أنا من خدعتكم؛ بل هي بليتي!

---

(٨٦) منطقة في روسيا تُدعى الآن كراسنودار.

أجبت المرأة قائلًا:

– بالنسبة لي فأنا أسامحك على هذه الخدعة. الأمر لا يهمني أنا بالماشييف كثيرًا، فالثمن الذي يشتري به بالماشييف شيئًا هو الثمن الذي يبيعه به! لكن عليكِ أن تتوجهي بالحديث إلى القوزاق يا سيدتي، الذين رفعوا من قدركِ كأم عاملة كادحة في جمهوريتنا. توجهي بحديثكِ إلى هاتين الفتاتين اللتين تبكيان الآن لما عانتاه منا في الليلة الماضية. توجهي بحديثكِ إلى نسائنا اللاتي يكدحن الآن في مزارعنا بكوبان، واللاتي تشع منهن قوة النساء اللاتي فارقهن أزواجهن، وإلى أزواجهم أيضًا الذين يعانون من الوحدة، والذين يجدون أنفسهم مجبرين بقوة شريرة أن يتعدوا على من يعبر طريقهم من الفتيات. أما أنتِ فلم يمسك أحد بسوء، مع أنه كان يجب أن تكوني أول من تمتد إليه الأيدي. توجهي بحديثكِ إلى روسيا التي يعتصرها الألم.

أجابتني قائلة:

– ما دمت قد فقدت ملحي، فلن أخشى أن أقول لك الحقيقة. إن روسيا لا تهمك في شيء، بل كل ما يهمك هم أولئك اليهود لينين وتروتسكي!

– لم نكن نتحدث عن اليهود أيتها المواطنة الشريرة، فالأمر هنا لا يخص اليهود في شيء. بالمناسبة... لن أتحدث عن لينين، أما تروتسكي فهو الابن المتهور لمحافظ تمبوف، وقد ولَّى ظهره إلى أصله وساند الطبقة الكادحة. إن لينين وتروتسكي يجذباننا صوب طريق الحياة، كمساجين مدانين، أما أنتِ أيتها المواطنة الشنيعة، فإنكِ أكثر معاداة للثورة من هذا الجنرال الذي بالحرس الأبيض الذي يُلوِّح بسيفه من فوق جواده المقدر

ثمنه بألف روبل. يمكنك أن ترى هذا الجنرال من كل صوب وحدب، وليس للكادح حلم سوى أن يذبحه، أما أنتِ أيتها المواطنة غير الأمينة، وابنك المزور الذي لا يطلب خبزًا، ولا يركض مع الريح، فأنتِ وحدكِ من لا يراه... أنتِ كالبرغوث... تقرصين... تقرصين... تقرصين.

أعترف حقًّا أني ألقيت هذه المواطنة على منحدر خارج القطار وهو يتحرك، لكنها كانت صلبة للغاية، فنهضت بعد سقوطها وأخذت تنفض تنورتها ثم مضت في طريقها. وما إن شاهدت أن هذه المرأة لم يصبها ضرر، وروسيا التي لا توصف من حولها، وحقول الفلاحين دون سنابل، والعذارى الممتعضات، وكذلك الرفاق الذين يذهب الكثير منهم إلى الجبهة، ولا يعود إلا القليل، شعرت أني أريد أن أقفز من هذه العربة، وإما أن أجهز على نفسي، أو أجهز عليها، لكن القوزاق أشفقوا عليَّ وقالوا لي:

- ببساطة أطلق عليها النار من بندقيتك.

فنزعت بندقيتي العزيزة من على الحائط، وأزلت هذا العار من على وجه الأرض الكادحة والجمهورية.

نقسم لك أيها الرفيق المحرر -نحن أفراد الفصيلة الثانية- ولكم أيها الرفاق المحررون، أننا لن نرحم أبدًا الخونة الذين يجذبوننا صوب هذه الهاوية، ويريدون تحويل مجرى التيار، ويغطون جسد روسيا بالجثث والعشب الميت.

أكتب هذا بالنيابة عن أفراد الفصيلة الثانية.

نيكيتا بالماشييف. مقاتل من أجل الثورة.

ذات مساء

آآه من قانون الحزب الشيوعي الروسي! لقد مددتم قضبانًا طائشة بين عجين كريه من السرد الروسي. لقد حوَّلتم ثلاثة من الحمقى، قلوبهم مليئة بالمشاعر القوية صوب يسوع ريازان[٨٧] إلى محررين بجريدة «الفارس الأحمر»، ولقد فعلتم ذلك بحيث يتمكنون كل يوم من إخراج جريدة جسورة مليئة بالشجاعة والمزاح الفظ.

الثلاثة هم جالين ذو العين الغائمة، سلينيكن المسلول، وسيتشيوف ذو الأمعاء الواهنة. يتهادى ثلاثتهم فوق الأرض القاحلة بمؤخرة الجيش، ينشرون النار والتقزز اللذين في أوراقهم بين صفوف شباب القوزاق بهدوء، وبين المحتالين بقوات الاحتياط الذين تم إحصائهم كمترجمين بولنديين، وكذلك بين العذراوات اللاتى أرسلهن البوليت أوتديل من موسكو من أجل القيام بعمليات التصحيح[٨٨].

(٨٧) مدينة روسية تقع على الساحل الأيمن لنهر أوكا.

(٨٨) كيان حكومي سوفييتي، يرسل قطاراته إلى أماكن مختلفة من أجل نشر الفكر الإيدولوجي الرسمي بين الجنود.

قرابة الليل تقريبًا تصبح الجريدة جاهزة، وكأن خيوط الديناميت تصبح أسفل أقدام الفرسان. يخفت ضوء شمس القرية الساطعة في السماء، وتلوح نيران المطابع، وكأنها قد اشتعلت هائجة دون سيطرة كما هو الأمر مع جموح الآلة. قرابة منتصف الليل يخرج جالين من عربته ويرتعش من فرط حبه لإيرينا التي تعمل بالغسيل في القطار.

يقول جالين الشاحب الأعمى ذو الكتفين الضيقين:

– في المرة الأخيرة... في المرة الأخيرة ناقشنا يا إيرينا أمر إطلاق النار على نيكولاي كروفافي الذي أُعدم من قِبَل بروليتاريا يكاترينبورج[٨٩]. لننتقل الآن بالحديث عن طغاة آخرين ماتوا ميتة الكلاب. قضى بطرس الثالث[٩٠] نحبه مخنوقًا على يد أورلوف عشيق زوجته، أما بافل فقد مزقه رجال حاشيته وابنه الوحيد إربًا. بالنسبة لنيكولاي بالكين فقد قتل نفسه بالسم، وهلك ابنه في أول مارس، ومات حفيده من فرط شرب الخمر... لا بد وأن تعرفي ذلك جيدًا يا إيرينا.

ثم يرفع عينه الغائمة إلى الغسَّالة بتوقير كامل، ويظل يكشف دون كلل أو ملل خبايا قبور الأباطرة الذين قضوا نحبهم. يقف في ضوء القمر بكتفيه المستديرين، وكأنه يحلق عاليًا كشظية عنيدة، بينما تتناهى من مكان ما قريب أصوات ماكينات الطباعة، وتلمع أضواء محطة الراديو لمعانًا رائعًا. تتكئ إيرينا على كتف فاسيلي الطباخ بينما تستمع إلى هراء كلمات الحب الموجهة لها، والنجوم السوداء تنجرف من فوق رأسها

(٨٩) إحدى مدن روسيا.

(٩٠) أحد أباطرة روسيا.

في السماء الآسنة، ويغالب النعاس الغسَّالة، فتتثاءب، ومن ثم ترشم علامة الصليب على فمها وهي تنظر إلى جالين بملء عينيها.

يتثاءب أيضًا فاسيلي ذو الوجه الحاد، الواقف بجوار إيرينا. إنه يزدري البشر مثله مثل كافة الطهاة، فهم مشغولون جدًّا بلحم الحيوانات المقتولة، ومن لم يُقتل منها بعد، لذا تجد الطهاة يبحثون في مجال السياسة عن أمور لا تخصهم بشيء. هكذا هو الأمر مع فاسيلي، فتجده رافعًا سرواله حتى صدره على طريقة الطباخين، بينما يسأل جالين عن القوائم المدنية لمختلف الملوك، وعن مهر ابنة قيصر ما، ثم يقول متثائبًا:

– لقد جاءنا الليل يا أريشا[٩١]، وغدًا يبدأ يوم جديد. هينا لنسحق بعض البراغيث.

وأغلقا باب المطبخ[٩٢]، وتركا جالين بمفرده والقمر من فوقه يبدو كشظية وقحة في السماء. جلست في ضوء القمر على المنحدر أمام البركة الناعسة، مرتديًا نظارتي، والدمامل على عنقي، وقدماي مضمدتان. أخذت أفكر في صراع الطبقات بعقل غائم شاعري، وحينها وجدت جالين يقترب مني بعينيه البيضاء اللامعة. قلت له وقد غلبني الأسى والوحدة:

– جالين... أنا مريض... لقد اقتربت نهايتي، وقد سئمت من هذه الحياة في جيش الفرسان.

---

(٩١) صيغة تدليل لإيرينا.

(٩٢) في المنازل الروسية القديمة هناك دائمًا باب خارجي يؤدي من المطبخ للخارج.

أجابني جالين والساعة المعلقة على رسغه النحيل تشير إلى الواحدة صباحًا:

- أنت ثرثار... وللأسف يتحتم علينا أن نتحمل ثرثارًا مثلك. نحن نسحق الجوز من أجلك، ولكن لن يمر وقت طويل حتى ترى الثمرة، وحينها ستخرج إصبعك من أنفك، وتتغنى بالحياة الجديدة بنثر مذهل، وحتى حين هذا الوقت ليتك تهدأ وتكف عن النشيج والثرثرة.

ثم اقترب مني، وعدَّل من وضع الضمادات التي كانت قد انزلقت عن جروحي، وأمال رأسه على صدره الصغير. أمدنا الليل بالعزاء من أحزاننا، وهبت الريح في وجهينا كما تتطاير تنورة الأم، ولمعت الأعشاب أسفل أقدامنا وكان يشي بالنداوة والانتعاش. خفَّ صرير آلات الطباعة حتى تلاشى تمامًا، ورسم الفجر خطًّا في أطراف الأرض، وتعالى صفير باب المطبخ ثم انفتح. تعالى صوت أربعة أقدام ذات كعوب سميكة في قلب هذه البرودة، ورأينا سمانتي إيرينا الجميلة، وإصبع فاسيلي الضخم وظفره القاتم المُقوَّس.

همست المرأة بصوت خافت ذاوٍ:

- فاسيليك[٩٣]... اخرج من فراشي أيها المشاغب.

لكن فاسيلي تلعثم قليلًا واقترب منها أكثر. حينها قال لي جالين:

- سلاح الفرسان... سلاح الفرسان عبارة عن بؤرة اجتماعية قد صنعتها اللجنة المركزية بالحزب. لقد أدى هذا المنعطف الذي تمر

(٩٣) صيغة تدليل لفاسيلي.

به الثورة إلى إظهار كل هؤلاء القوزاق الأوغاد، المثقلين بكل أنواع التحيزات المسبقة، لكن اللجنة سوف تناورهم ثم تقضي عليهم تمامًا.

ثم حدثني جالين عن التنشئة السياسية لأول فارس. أخذ يتحدث طويلًا وبوضوح كامل، بينما ينبض جفنا عينيه البيضاء.

❊ ❊ ❊

أفونكا بيدا

كنا نقاتل عند ليشنيوف، ووجدنا فجأة جدارًا من فرسان الأعداء قد ظهر من كل حدب وصوب. الاستراتيجية الجديدة الآن للبولنديين أن يظهروا فجأة في كل مكان مع صوت انطلاق الصفارة المتوعدة. كنا نتراجع، وكانت المرة الأولى التي نشعر فيها بهذه الضربات الشيطانية التي تأتينا من الأجنحة، وبتصدع خطوطنا، وبالخذلان من أسلحتنا التي عملت معنا سابقًا على أكمل وجه.

ملأ المشاة جبهة ليشنيوف. امتلأت الخنادق بجنود من فلاحي فولينسك الحفاة والشُقر. بالأمس استلم هؤلاء الجنود فؤوسهم الصغيرة حتى يشقوا طريقًا لاحتياطي جنود سلاح الفرسان. مضى الفلاحون تكتنفهم الرغبة. كانوا يقاتلون بأقصى حمية ممكنة. أذهلت ضراوتهم المريعة الجميع؛ حتى قوات بوديني. وكأن كراهيتهم لأصحاب الأراضي البولنديين مؤسسة على أساس غير مرئي لكنه شديد المتانة.

فى المرحلة الثانية من المعركة، عندما توقفت صيحاتنا عن إحداث الأثر المطلوب على العدو، وأصبح من المستحيل على فرساننا

أن يحدثوا فجوة بين صفوفهم، اتضح كيف يمكن للمشاة أن يحدثوا أكبر فائدة للفرسان، لكن الفقر الذي كنا فيه كان له اليد العليا، فقد كان المتوفر من السلاح بندقية واحدة لكل ثلاثة فلاحين، ولم تكن الذخيرة مناسبة للبنادق. كان محكومًا على هذه المجازفة بأن تنتهي، ومن ثم صرفوا هذه القوات الشعبية الحقيقية كي تعود إلى قراها.

لنعد الآن لمعركة ليشنيوف. تخندق المشاة على بعد ٣ فرست من المدينة، وركض أمامهم على طول الجبهة شاب يرتدي نظارات، بكتف نحيل، وسيفه يتدلى من جانبه. كان يتحرك في قفزات سريعة باستياء، كما لو أنه قد فقد حذاءَهُ. هذا القائد القوزاقي القروي، المختار من بين الفلاحين والمحبوب بينهم، كان يهوديًّا شبه أعمى ذا وجه واهن يشبه وجه المنكب على دراسة التلمود. أبدى في المعركة شجاعة متبصرة حذرة تنم عن أنه ليس مجرد إنسان حالم.

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية في يوم من أيام يوليو التقليدية. لمع في الهواء بيت عنكبوت بلون قوس قزح، ولمعت أعراف الجياد المضفرة بالأوشحة وكذلك السروج البهيجة من خلف التلال. أشار الشاب للقوات كي تستعد. أسرع الفلاحون بأحذيتهم البسيطة إلى مواقعهم وأخذوا وضع الاستعداد. لكن اتضح أن الإنذار كاذب، فقد لاحت على طريق ليشنوف قوات ماسلاكا[٩٤] المبهرجة. كانت جيادهم هزيلة لكنها نشيطة، وكانت تخبو بخطى واسعة. رفرفت

(٩٤) صيغة تصغير وتحبب لماسلياكوف، وهو قائد الكتيبة الأولى من الفرقة الرابعة، وهو محارب عنيد سرعان ما خان السلطة السوفييتية.

الأعلام الحريرية المؤطرة بلون ذهبي خلف الأتربة الضارية. مضى الفرسان على جيادهم يختالون بفخر وجرأة، انسل الجنود ذوو المظهر الرث من خنادقهم، فاغري الأفواه في ذهول، يرقبون تدفق الفرسان المتمهل.

كان قائدهم ماسلاك في مقدمتهم ممتطيًا جواد السهوب خاصته ذا الأرجل المتقوسة، سكرانًا بالدماء، وإفرازاته الدهنية المتعفنة. بطنه مستلقية أمامه على السرج كرمانة ملفوفة بلون فضي. وما إن شاهد ماسلاك المشاة، حتى اكتسى وجهه بحمرة سعيدة، وأشار لقائد السرية أفونكا بيدا كي يقترب منه. كان يدعوه «ماخنو»[٩٥] لأنه يشبهه كثيرًا. تهامسا معًا لبرهة من الوقت، ثم عاد قائد الكتيبة إلى قواته وقد انحنى بينما يأمرهم بصوت خفيض بعض الشيء قائلًا: «فلنتحرك». هرول القوزاق من خلفه. أثاروا حمية جيادهم، وتحركوا من عند الخنادق التي ابتهج فيها المشاة برؤيتهم. تصاعد صوت أفونكا وكأنه يتردد من بعيد:

- استعدوا للمعركة.

أما ماسلاك، فقد كان يلهث ويسعل، لكنه كان مبتهجًا، وتوجه إلى أحد الجوانب، واستعد القوزاق للمعركة. هرع جنود المشاة البائسون صوب المعركة، لكن الوقت كان قد تأخر، فقد كانت خطوط القوزاق البائسة قد اختُرِقت فعلًا. أحاط الفرسان بأرض المعركة وهم يمسكون سياطهم بين أيديهم بمهارة فائقة. صحت في أفونكا:

(٩٥) أحد أعلام الأناركية بأوكرانيا.

– ما الهدف من هذا الاحتيال؟

– للسخرية فقط.

هكذا أجابني وهو يتململ على سرجه، وأخرج أحد المختبئين خلف الأشجار من مكانه:

– للسخرية!

قالها ثانية وهو يضرب الرجل المرتعب.

انتهت المهزلة عندما لوَّح ماسلاك بهدوء بيده الصغيرة البضة. ثم صاح أفونكا وهو يحاول أن يُعدِّل من وضع جسده الضعيف بكبرياء:

– كفى كسلًا أيها الجنود... هيا امضوا لتلقطوا بعض البراغيث.

تبادل القوزاق الابتسامات، وتجمعوا في صفوفهم، وفرغت الخنادق تمامًا من الجنود. وحده اليهودي ذو الكتفين النحيلين من ظل واقفًا في مكانه السابق، وأخذ يرمق القوزاق من خلف عدستي نظارته، بانتباه وفخر.

لم يتوقف إطلاق النار من جانب ليشنيوف، فقد طوقنا البولنديون. وبالنظر من المنظار كان يمكن رؤية جياد العدو المتفرقة. كانوا يخرجون من المدينة ثم يعودون إليها وكأنهم يلعبون لعبة الاستغماية. نظَّم ماسلاك قواته ونظمهم على جانبي الطريق المؤدي إلى المدينة. لاحت السماء الرائقة فوق المدينة، وكانت صافية بطريقة لا توصف كما تبدو دائمًا في أوقات الخطر. أما اليهودي فقد أمال رأسه ونفخ بحزن وقوة في صفارته المعدنية، فعادت قوات المشاة إلى صفوفها.

تطاير الرصاص بكثافة صوب اتجاهنا، وتعرض قائدنا لنيران أحد المدافع الرشاشة. اندفعنا صوب الغابة وأخذنا نزحف بين الأجمات على الناحية اليمنى من الطريق. تنهدت الأغصان التي أصيبت بالرصاص من فوقنا. وعندما خرجنا من بين الأجمات لم نجد القوزاق في أماكنهم السابقة. لقد انسحبوا إلى برودي بأوامر من قائدهم، وأطلق الفلاحون وحدهم بعض الرصاص من خنادقهم، أما أفونكا الذي كان خلفنا فمضى ليلحق بقواته.

مضى أفونكا على جانب الطريق وهو ينظر من حوله ويتشمم الهواء. خفتت النيران فجأة، ففكَّر أفونكا القوزاقي في الاستفادة من هذا التوقف، فتقدم بجواده سريعًا. في هذه اللحظة بالذات أصابت رصاصة عنق جواده. تقدم مائة خطوة أخرى، ثم انهار الجواد أمامنا وسقط على الأرض.

أخرج أفونكا قدمه المصابة من أسفل السرج. تربع في جلسته، وتحسس جرحه بإصبعه نحاسي اللون، ثم نهض، ونظر من حوله بعين لامعة على الأفق الواسع. قال بصوت خشن وهو يتراجع عدة خطوات وينحني على بطن الجواد الميت:

– وداعًا يا ستيبان. كيف يمكنني أن أعود إلى قريتي الهادئة من دونك؟ أي جواد يمكنني أن أرمي فوقه سرجك؟ الوداع يا ستيان.

هكذا كررها أقوى من المرة الأولى، وتعالى منه صوت صرير مخنوق كذلك الذي يصدر عن فأر قد وقع في المصيدة، وأخذ ينشج. استمعنا إلى نشيجه ورأيناه يركع على الأرض كامرأة أصابتها نوبة

هيستيرية داخل الكنيسة. صاح عاليًا:

– لكني لن أخضع لهذا القدر اللعين...

وانتزع يده عن وجه الجواد المقتول وهو يكمل:

– سوف أمزق هؤلاء الأوغاد البولنديين إربًا دون رحمة... سوف أقتلهم جميعًا... سوف أقتل حتى والدة الإله إن تطلب الأمر. أقسم لك يا ستيان ويشهد عليَّ رفاقي وإخوتي الأعزاء.

ثم مال أفونكا بوجهه على جرح الجواد وهدأ. استمع الجواد إلى صاحبه وهو ينظر إليه بعينيه الأرجوانية اللامعة.. استمع إلى نشيج سيده. ثم حرَّك فمه المحطم على الأرض بهدوء شديد وذهول كامل، ولاحت خيوط الدماء. تدفقت كطرفي اللجام الأحمر... تدفقت على صدره الذي تغطيه عضلات بيضاء.

استلقى أفونكا على الأرض دون حركة. توجه ماسلاك صوب الجواد على قدميه السمينتين، ووضع مسدسه في أذنه وأطلق الرصاص. قفز أفونكا من مكانه ونظر صوب ماسلاك بوجهه المنقط. حينها قال ماسلاك بلطف:

– اخلع عنه السرج يا أفونكا، وعُد لقواتك.

ورأينا أفونكا على التلة الصغيرة تحت ثقل سرجه بوجه يخالط فيه اللون الرمادي اللون الأحمر، كقطعة لحم مشقوقة. كان في طريقه إلى قواته شاعرًا بوحدة مفزعة وهو يسير فوق الحقول المتلفة الملتهبة المتربة.

في وقت متأخر من المساء رأيته في القطار. كان نائمًا وشخيره يتصاعد في عربة تحوي كل ما له من سيوف ومعاطف وعملات ذهبية. كان رأسه مائلًا بذلك الفم الفاغر وكأنه رأس ميت لمصلوب. بجواره كانت عدة الفرس المقتول، وثياب قوزاقية مزخرفة بشكل بارع: قفاز، ودرع للصدر بزخارف سوداء، وأحزمة مرنة مرصعة بأحجار صغيرة ملونة ولجام بنقوش فضية.

اشتد الظلام من حولنا، وزحف القطار ببطء في طرق برودسكي، وشقت النجوم البسيطة طريقها في صفحة سماء مجرتنا اللبنية، وتوهجت القرى البعيدة في أعماق الليل البارد. كان مساعد القائد أورلوف وبوتسينكو ذو الشارب المفتول يجلسان هناك أيضًا في عربة أفونكا يتجاذبان أطراف الحديث حول بلية أفونكا. قال بوتسينكو:

– لقد أتى بالجواد من قريته، فأين يمكن للمرء أن يجد جوادًا كهذا؟

أجابه أورلوف:

– الجواد صديق المرء.

– الجواد أبو المرء. إنه ينقذ حياة صاحبه مرات لا تُحصى. لقد انتهى أمر بيدا دون جواده.

هكذا أجابه بوتسينكو متنهدًا.

فى الصباح اختفى أفونكا تمامًا. بدأت المعركة قرب برودي وانتهت، وتحولت الهزيمة في لحظة إلى نصر ساحق، ولم يظهر أفونكا. لم نعرف مدى صعوبة الطريق الذي اختاره إلا عبر الضوضاء المريعة

التي خرجت من القرى، وآثار سرقاته الشريرة التي ارتكبها هناك. "إنه يسلب الجياد"... هذا ما قالوه عنه في الفوج في أمسيات تجوالنا التي لا تنتهي، وحينها سمعت عنه بعض القصص الضارية المفزعة.

بعض الرجال من الوحدات الأخرى قاموا بمطاردته على بعد ١٠ فرست من موقعنا. إما إنه كان رابضًا لينصب كمينًا لبعض الفرسان البولنديين الذين شردوا بعيدًا عن زملائهم، أو إنه كان يطوف الغابة بحثًا عما يكون الفلاحون قد خبؤوه. كان يحرق القرى أو يقتل الضباط البولنديين من أجل الجياد. تناهت إلينا أصداء هذه المعارك الفردية العنيفة، وأصداء عمليات النهب التي يقوم بها ذئب وحيد ضد القطيع الهائل.

وانقضى أسبوع آخر... وانطفأ حقدنا المرير الذي أثارته الحكايات التي نسمعها عن وقاحة أفونكا الرهيبة، وبدأ ماخنو ينسى الأمر، ثم تناهت إلى أسماعنا إشاعة أخرى مفادها أن فلاحي جاليسيا قد ذبحوه في مكان ما بالغابة. وفي يوم توجهنا إلى برستيتشيكو مضى إيميليان بودياك من الفوج الأول إلى القائد كي يسأله ما إن كان في إمكانه أن يحصل على سرج أفونكا وحشية السرج الصفراء أم لا. كان إيميليان يود الاشتراك في العرض العسكري بسرج جديد، لكنه لم ينل مراده.

دخلنا بريستيتشيكو في السادس من أغسطس، وتقدم قائدنا كتيبتنا بردائه الآسيوي، ومعطفه القوزاقي الأحمر، ومن خلفه ليوفكا مساعده المتزلف الضاري يجر جواده المقاتل. كان عرضًا عسكريًّا مليئًا بالمخاطر طاف بشوارعنا الفقيرة الطموحة. كانت المدينة تشبه غابة

ملونة من أزقة متهدمة بالية وعوارض خشبية متداعية ومهتاجة، أما قلبها فقد تآكل بفعل الزمن، وبث فينا رائحة تحلله الكئيب. توارى المهربون والمنافقون في أكواخهم الواسعة الكئيبة، ولم يلتقينا أحد سوى السيد لودوميرسكي المسؤول عن دق جرس الكنيسة. جاءنا بسترته الخضراء أمام الكنيسة.

عبرنا النهر وتوغلنا أكثر في ضيعات صغار البرجوازيين. اقتربنا من منزل كاهن الكنيسة، وحينها ظهر فجأة أفونكا ممتطيًا جوادًا قويًّا. صاح بصوت قوي: "مرحبًا!" وبدأ يفسح بجواده مكانًا بين الجنود ليحتل موقعه السابق. تفرس ماسلاك في الأفق الواسع من أمامه، وصاح فيه بصوت عال دون أن يلتفت إليه:

- من أين أتيت بالجواد؟

- إنه ملكي.

هكذا أجابه أفونكا وهو يلف سيجارة ويبللها بلسانه قليلًا.

اقترب منه القوزاق واحدًا تلو الآخر يُحيُّونه، ولاح على وجهه ورم وردي مُنفِّر في مكان عينه اليسرى على وجه متفحم.

في الصباح التالي أخذ بيدا يتجول في المكان، وحطَّم المزار المقدس للقديس فالنتين داخل الكنيسة، وحاول أن يعزف قليلًا على الأورغان. كان يرتدي رداءً أزرق مطرزًا من الخلف بأشكال الزنابق، وقد صفف لفيفة[٩٦] شعره بحيث تقترب من عينيه الجاحظتين.

(٩٦) من الشائع لدى قوزاق أوكرانيا أن يقصوا شعورهم كاملًا عدا لفيفة صغيرة.

بعد تناول الغداء أسرج جواده، وأطلق النار من بندقيته على نوافذ قلعة آل راتسيبورسكي. شكَّل القوزاق حوله نصف دائرة. كانوا يمسكون بذيل الجواد ويفحصون قدميه وأسنانه.

قال أورلوف مساعد القائد:

- جواد قوي!

فأكد بيتسينكو ذو الشارب المفتول على حديثه قائلًا:

- جواد نموذجي!

* * *

في حضرة القديس فالانتين

مساء أمس استولت قواتنا على بريستيتشيكو. استقرت القيادة في منزل الكاهن توزينكيفيتش. تَخفَّى الكاهن في ثياب امرأة قروية وهرب من بريستيتشيكو قبل دخول قواتنا إلى المدينة. لا أعرف عنه شيئًا سوى أنه يخدم الرب منذ ٤٥ عامًا في بريستيتشيكو، وأنه كان كاهنًا طيبًا. عندما أراد السكان أن يوضحوا لنا ذلك قالونا لنا: «حتى اليهود يحبونه». إبَّان وقت خدمته قاموا بترميم الكنيسة القديمة، وانتهت الترميمات يوم احتفال الكنيسة بمرور ثلاثمائة عام على تأسيسها. حينها وصل أسقف جيتومير، وقامت مجموعة من كبار الكهنة بالصلاة، وقد ارتدوا غفاراتهم الحريرية. وقفوا مبتهجين وكروشهم العظيمة تتدلى منهم، وبدوا كالأجراس على العشب الندي. تدفقت مياه الأنهار والجداول المذعنة من القرى المحيطة. انحنى الفلاحون على ركبهم وقبَّلوا يد الكاهن، وفي هذا اليوم غطت السحب صفحة السماء مثلما لم يحدث من قبل أبدًا في المدينة. رفرفت الرايات المقدسة ابتهاجًا بالكنيسة القديمة. حتى الأسقف نفسه قبَّل جبهة توزينكيفيتش وألقى عليه «أبو بريستيتشيكا».

عرفت هذه القصة صباحًا في مقر القيادة حينما كنت أعد تقريرًا عن مهمة الاستطلاع التي قام بها رجالنا بالقرب من لفوف في ضاحية رادزيخوف. كنت أقرأ الأوراق، وغطيط جندي الخدمة المتصاعد من خلف ظهري يثير بداخلي شعورًا لا ينتهي بالحنين إلى الوطن. كان الكتبة الواهنين من فرط الأرق يُدوِّنون أوامر الكتيبة، ويأكلون الخيار ويغفون قليلًا. لم أنتهِ من العمل إلا قرابة الظهر، فاقتربت من النافذة ورأيت كنيسة بريستيتشيكو القوية البيضاء. كانت تلمع في ضوء الشمس الفاتر كبرج خزفي مصقول، وكذلك كانت أضواء شمس الظهيرة على جوانبها المشرقة. لاحت زواياها الناتئة من عند القبب الخضراء وهي تنحدر صوب الأسفل بنعومة. لمعت عروق وردية على حجارة واجهتها البيضاء، وكانت قمم الأعمدة نحيلة، تبدو كأطراف الشموع.

شُدهت حينما تناهت إلى آذاني أصوات الأورغان، وظهرت عند باب مركز القيادة امرأة عجوز بشعر أصفر أشعث. كانت تتحرك ككلب ذي قدم مصابة، فتدور قليلًا وهي تطأ الأرض بقدميها. لاح بياض العمى واضحًا في بؤبؤي عينيها المليئتين بالدموع. كانت أنغام الأورغان الكئيبة الطائشة تحوم حولنا وطواف النغمات بنا شديد المراس، فقد كانت أصداؤها حزينة طويلة. مسحت العجوز دموعها بخصلات شعرها الصفراء، وجلست على الأرض وبدأت تقبل حذائي العسكري الطويل من عند الركبة. توقفت أصوات الأورغان، ثم بدا كما لو أنه قد انفجر ضحكًا بنغمات جهيرة. أمسكت بذراع العجوز وأخذت أنظر من حولي. كان الناسخ منهمكًا في الكتابة على آلته، بينما غطَّ جنود الخدمة

في النوم، بينما كانت مهاميزهم تمزق حشية الأرائك المخملية. قبَّلت العجوز طرف حذائي العسكري برقة، واحتضنت ساقيَّ كما تفعل الأم بوليدها. جذبتها صوب الباب، وأغلقت الباب من خلفي. لاحت الكنيسة أمامنا ساطعة كمسرح مُزيَّن. كانت بواباتها الجانبية مفتوحة، بينما كانت جماجم الجياد فوق مقابر الضباط البولنديين الذين قضوا نحبهم.

أسرعنا إلى فناء الكنيسة، وسرنا في الممر الكئيب، ودخلنا الغرفة المربعة الملحقة بالمذبح. هناك وجدنا ساشكا الممرضة بالفرقة الـ ٣١. كانت تُقلِّب بين كومة من الحرير تركها أحدهم على الأرض. تدفقت رائحة الزخارف المميتة والزهور المتناثرة، ورائحة التحلل إلى منخري أنفها المرتعشين، وشعرت بخدر ودغدغة يكتنفانها. ثم دخل بعض القوزاق إلى الغرفة. انفجروا في الضحك، وأمسكوا بساشكا من ذراعها، وطرحوها بحيوية فوق كومة من الكتب والثياب. كان جسدها متوردًا كريه الرائحة، كقطعة لحم منتزعة من بقرة قد ذبحوها لتوهم. استلقى جسدها أمامهم، وكشفت تنورتها المرفوعة عن ساقي امرأة فارسة... كشفت عن ساقين حديديين رشيقين، أما كورديوكوف الصغير الأحمق، فاعتلى جسد ساشكا، وأخذ يرتعش كما لو أنه يمتطي جوادًا، متظاهرًا أنه في أوج النشوة. نحَّته جانبًا عنها، واندفعت صوب الباب. حينها فقط تجاوزنا المذبح ودخلنا إلى صحن الكنيسة.

كان الضوء يغمر صحن الكنيسة، حيث امتلأ الصحن بأشعة الشمس الراقصة، وتيارات من الهواء، وبرودة تبعث على السرور. كيف يمكنني أن أنسى هذه الصورة المعلقة على الجناح الأيمن التي رسمها أبوليك؟

تحوي اللوحة ١٢ أبًا متورِّد الوجه يهزون مهدًا مزينًا بوشاح، يحوي بداخله الطفل يسوع ممتلئ الجسد. أصابع قدمه ممدودة، وعرق الصباح يلمع على جسده، والطفل يتقلب على ظهره السمين، واثنا عشر رسولًا يرتدون تيجانًا ويميلون على المهد. وجوههم حليقة بعناية، وتلف عباءاتهم المتوهجة أجسادهم. تشع أعينهم بالحكمة، والعزم والسرور، وفي زوايا أفواههم آثار ضحكة خفيفة، ويمكن ملاحظة ثؤلولين متوهجين على وجنتي كل منهم، فيبدو الوجه كزرعة الفجل في مايو.

كانت المعاناة المميتة المرسومة على وجوه أبناء الإنسان[٩٧] بكنيسة بريستيتشكو تمتزج بنظرة مغوية، فالقديسون في الصور هنا في طريقهم نحو الموت يشبهون مغنِّي الملاحم الإيطالية، وتبدو شعور القائمين بالإعدام المنسدلة على أكتافهم، كلحية هولوفيرنس[٩٨]. رأيت فوق البوابات الملكية لوحة كافرة ليوحنا المعمدان لا بد وأنها مرسومة بفرشاة أبوليك الهرطوقية. يبدو المعمدان في هذه اللوحة جميلًا بطريقة غامضة متحفظة... تلك الطريقة التي تدفع محظيات الملوك لفقدان آخر ما تبقى لهم من شرف وحياة مزدهرة[٩٩].

لم ألحظ في البداية آثار التدمير الموجودة داخل الكنيسة، أو أنها

---

(٩٧) ابن الإنسان هو لقب نبوي أطلق في العهد القديم على المسيا الذي سيخلص الشعب اليهودي من معاناته، ومن ثم أطلقته المسيحية على المسيح الذي هو المسيا المنتظر من وجهة نظر الكنيسة.

(٩٨) قائد جيش الملك البابلي نبوخذ نصر، وهو الملك الذي قد سبى مملكة إسرائيل قديمًا.

(٩٩) الإشارة إلى قصة سالومي التي رقصت أمام الملك هيرودس وأغرته بتقديم رأس المعمدان هدية لها بإيعاز من أمها التي كانت تكره المعمدان لمعارضته زواجها من هيرودس الذي كان متزوجًا من شقيقتها.

بدت لي ليست ذات شأن. مزار القديس فالنتين وحده كان محطمًا، ومن حوله كان بعضًا من الصوف البالي متناثرًا هنا وهناك، وكذلك بقايا عظام القديس المضحكة، التي لا تشبه في الحقيقة أكثر من عظام دجاجة[١٠٠]. نعم... كان أفونكا بيدا يعزف على الأورغان. كان سكيرًا ممزقًا يائسًا. بالأمس فقط عاد إلينا بجواد قد استولى عليه من الفلاحين. كان يحاول أن يعزف مارشًا على الأورغان، وأحدهم يقول له بصوت ناعس: «كفى يا أفونكا... دعنا نمضي لتناول الطعام». لكن أفونكا لم يتوقف، فتبع اللحن بألحان أخرى. عزف ألحانًا كثيرة، وكل منها منفصل عن الآخر. استمر اللحن الأول لبرهة ثم انتقل إلى لحن آخر. استمعت إليه، وحدَّقت من حولي في آثار الهدم داخل الكنيسة، فبدت لي ليست ذات شأن. لكن السيد لودوميرسكي القائم على دق أجراس كنيسة القديس فالنتين وزوج السيدة العمياء لم يكن يعتقد ذلك.

ظهر لودوميرسكي فجأة من بقعة ما. دخل صحن الكنيسة بخطوات منتظمة برأس مائلة. لم يحسم أمره بتغطية الرفات المكشوفة للقديس لأن درجته كمسؤول عن دق الأجراس فقط لا تخوله للمس هذه الرفات المقدسة. انحنى العجوز على البلاط الأزرق لأرضية الكنيسة، ورفع رأسه، ولاحت أنفه الضاربة إلى الزرقة كعلم فوق جثمان ميت. كان أنفه يرتعش، وفي هذه اللحظة رفرف ستار المذبح الحريري وزحف صوب إحدى الزوايا. ركض شخص ما ملتحٍ يرتدي سترة برتقالية في

(١٠٠) في الكنائس عادة ما يحتفظون برفاة بعض القديسين، بدعوى أنها من بقايا أجسادهم الميتة وهي مصدر للبركة عند المسيحيين، وكثيرًا ما يكون الأمر مزيفًا، وهو ما يسخر هنا البطل منه.

قلب المحراب المكشوف، في ضوء السماء وأشعة الشمس المجعدة. كان حافي القدمين بفم ممزق نازف. حينها تناهى إلى آذاني صوت عواء أجش. كانت الكراهية العمياء تكتنف الرجل كاملًا، وقد ضربت قلبه مباشرة. لوَّح بيده، وكأنه يتفادى ضربة موجهة له، وانسلت الدماء الأرجوانية من يده. صاح القوزاقي الشاب الواقف خلفي، وأحنى رأسه، وركض سريعًا، مع أنه لم يكن هناك ما يجعله يركض لأن من كان بالمحراب كانت صورة يسوع المسيح، وهي أكثر اللوحات التي رأيتها طوال حياتي إثارة للذهول.

كان السيد لودوميرسكي يهوديًّا مجعد الشعر ذا لحية مهترئة وجبهة منخفضة ذابلة. وجنتاه الغائرتان كانتا قرمزيتين، ويلوح حاجباه الرفيعان الضاربان إلى الحمرة مقوسين فوق عينيه وكأنهما يُعبِّران عن شدة الألم.

كان فمه ممزقًا كفتحة فم جواد، وحزام ثمين يلف ردائه البولندي، وتلوح قدماه من أسفل القفطان حافيتين سمينتين، تختقرهما مسامير فضية.

وقف السيد لودوميرسكي بردائه الأخضر أسفل التمثال. كان يمد يده الذابلة نحونا يرمينا باللعنات. حدَّق فيه القوزاق ذوو خصلات الشعر الكتانية. ألقى علينا المسؤول عن دق الأجراس اللعنات بصوت هادر باللاتينية، ثم التفت إلى الناحية الأخرى وجلس على ركبتيه واحتضن أقدام المخلص.

عندما عدت إلى مقر القيادة، كتبت تقريرًا إلى قائد الكتيبة عن الإساءة إلى المشاعر الدينية للسكان المحليين هنا. جاءت الأوامر بإغلاق الكنيسة، أما المذنبون فتم توجيه الاتهامات إليهم وإرسالهم إلى محكمة عسكرية.

قائد الفرقة ترونوف

أحضرنا جثة ترونوف المثقوبة بالرصاص إلى سوكال ظهرًا. ترونوف هو قائد كتيبتنا. قُتل صباحًا في معركة مع طائرات العدو. كانت إصاباته جميعها في الوجه، فقد تناثرت الجروح على وجنتيه، وكان اللسان ممزقًا. غسلنا وجه الجثمان بقدر ما نستطيع، حتى لا يعود المنظر مريعًا إلى هذه الدرجة. وضعنا سرجه القوزاقي فوق رأس النعش وحفرنا مقبرة لترونوف في بقعة ممتازة؛ في الحديقة العامة في قلب المدينة بالقرب من السياج. مضت قواتنا هناك على متون الخيل، وحضر أيضًا قائد القوات والمفوض العسكري. في الثانية ظهرًا طبقًا لساعة الكاتدرائية أطلق مدفعنا الصغير البائس قذيفته الأولى. حيَّى المدفع القائد الميت من فوهته العتيقة ذات قطر الثلاثة إنش. إنها تحية كاملة، ومن ثم أنزلنا الجثمان إلى التجويف المفتوح في باطن الأرض. كان غطاء النعش مفتوحًا، وألقت شمس منتصف النهار المشرقة بضوئها على الجثمان الطويل، وفمه المليء بالأسنان المكسورة، وحذائه العسكري طويل الرقبة النظيف، وكان كعباه مضمومين إلى بعضهما البعض وكأنه يقف وقفته العسكرية المعتادة.

حينها صاح بوجاتشيف قائد الفوج وهو ينظر إلى الفقيد واقفًا على طرف المقبرة: «أيها المقاتلون». كان يتحدث مرتجفًا وهو يبذل مجهودًا جبارًا:

– ندفن الآن باشا ترونوف بطلنا العالمي، ونمنحه الشرف الأخير.

بعد أن رفع عينيه صوب السماء؛ عينيه المتوهجتين من فرط الأرق، ألقى خطبة عن المقاتلين الذين قضوا نحبهم من كتيبة الخيالة الأولى، وعن كبرياء هذه الكتيبة التي تدق المستقبل بسندان التاريخ. ألقى بوجاتشيف خطبته وهو يضغط على مقبض سيفه الشيشاني المعقوف، ويسحق الأرض بحذائه النظيف، ويرتدي مهمازه الفضي. بعد أن أنهى خطبته عزفت فرقة الموسيقى العسكرية نشيد «الإنترناشيونال»، وودع القوزاق باشكا ترونوف. اعتلى أفراد الفرقة جميعًا متون جيادهم، وأطلقوا دفعة من الرصاص في الهواء، وتعالى أزيز مدفعنا الصغير ذي الماسورة الثلاثة إنش مرة ثانية بقذيفة أخرى، وأرسلنا ثلاثة من القوزاق بإكليل من الزهور. عدوا بجيادهم سريعًا وهم يطلقون النار وينحنون من فوق السرج ويقومون بحركات أكروباتية، ثم أحضروا معهم حفنة من الزهور المحلية. نثر بوجاتشيف هذه الزهور فوق القبر، وأخذنا نرسل قبلاتنا الأخيرة لترونوف. مست شفتاي جبهته النظيفة التي يغطيها السرج، ثم غادرت إلى المدينة؛ مدينة سوكال القوطية، الغارقة في بحر من الغبار الكئيب والكآبة الجاليسيانية[١٠١].

كان الميدان الضخم يمتد على يسار الحديقة، وهو ميدان تحيطه

(١٠١) نسبة إلى جاليسيا

كثير من المعابد اليهودية. كان بعض اليهود يتشاجرون معًا في الميدان بمعاطفهم الرثة. بعض منهم كانوا يهودًا أرثوذكسيين يمتدحون تعاليم أداسيا، حاخام بلزا، وهذا ما أدى بالحسيديين من المدرسة المعتدلة بالهجوم عليهم، وهم من تلاميذ جوسياتين حاخام يهوذا. كانوا يتجادلون حول القبالة[١٠٢]، وذكروا وسط مجادلاتهم اسم إيليا جوان من فيلنا، وهو أحد أشهر مضطهدي الحسيديين.

نسي الحسيديون الحرب والرصاص، وأخذوا يلعنون إيليا رئيس كهنة فيلنا، أما أنا المعذب بالحزن على ترونوف أخذت أتسكع بينهم وأصيح فيهم حتى رأيت فجأة جاليسيانيًّا مميتًا وطويلًا يشبه دون كيخوتا.

هذا الجاليسياني كان يرتدي قميصًا كتانيًّا أبيض. كان يرتدي ثيابًا مناسبة لحفل جناز أو لتناول القربان المقدس، يقود بقرة صغيرة مربوطة بحبل بالٍ. كان رأسه الصغير الخفيف مغروسًا على جسده الضخم وكأنه رأس ثعبان، تغطيه قبعة تتأرجح فوقه ذات حافة واسعة مصنوعة من القش القروي. سارت البقرة البائسة خلف الرجل الجاليسياني، وكان يجرها بعناية، ويمضي جسده الطويل أسفل بريق السماء المتوهجة.

كان يتقدم بخطوات استعراضية صوب الميدان، ودخل الزقاق المتعرج الغارق وسط أدخنة كثيفة منفرة. ولاحت نساء يهوديات يشبهن الزنجيات يمرحن في منازل قد اسودت من الدخان، ومطابخ فقيرة... يهوديات ذوات صدور ريانة. مضى الجاليسياني بالقرب منهن

(١٠٢) معتقدات وشروحات روحانية فلسفية تفسر الحياة والكون والربانيات.

وتوقف في نهاية الزقاق أمام واجهة منزل متهدم.

هناك أمام واجهة المبنى بالقرب من عمود أبيض مشوه جلس قوزاقي حداد وصانع حدوات للجياد. كان يدق على حافر الحيوان بالمطرقة، ويهز شعره الدهني ويصفر ويبتسم. وقفت حوله مجموعة من القوزاق بصحبة جيادهم. اقترب منه الجاليسياني، وأعطاه بهدوء بعض البطاطس المطهية، ثم التفت صوب الناحية الأخرى دون أن ينظر إلى أحد. تتبعته، لكن أحد القوزاق الذين كانوا في انتظار دق الحدوة في قدم جواده أوقفني. كان اسم عائلته سيليفرستوف. في وقت ما فارق ماخنو، وخدم في وحدة الفرسان رقم ٣٣.

قال لي وهو يصافحني:

– ليوتوف... لا يمكنك أن تتوقف أبدًا عن مضايقة الجميع! شيطان ساكن بداخلك. لماذا أذيت ترونوف صباح اليوم؟

وأخذ سيليفرستوف يصيح فيَّ بكلمات أخرى حمقاء، قائلًا إني قد ضربت ترونوف هذا الصباح. وبَّخني بكل طريقة ممكنة على ذلك، وبسبب جميع القوزاق، لكنه لم يتفوه بأي شيء صحيح. الحق أننا في هذا الصباح تشاجرنا فعلًا مع ترونوف؛ لأنه كان يبدد وقتًا طويلًا جدًّا مع الأسرى، لكن باشكا مات... لم يعد بالإمكان توجيه مزيد من اللوم إليه، فأنا كنت آخر من وبخه، وسأخبركم الآن سبب ما حدث.

أخذنا بعض الأسرى فجر اليوم إلى محطة "المصنع". كان عدد الأسرى عشر أفراد. عندما أخذناهم لم يكونوا يرتدون شيئًا سوى الثياب الداخلية، وكانت كومة من الثياب معلقة، وفي هذا كانت الخدعة التي

يقومون بها حتى لا نستطيع أن نميز بين الضباط والجنود. لقد تخلصوا بأنفسهم من ثيابهم، لكن ترونوف كان قد قرَّر في هذه المرة أن يعرف الحقيقة.

- فليتقدم الضباط من بينكم!

هكذا أمر وهو يتقدم صوب الأسرى ويخرج مسدسه.

في هذا الصباح كان ترونوف مصابًا بالفعل في وجهه، والضمادة تغطي الجرح، والدماء تسيل منها كما يتدفق المطر عبر كومة من القش. ثم بدأ يدفع البولنديين بمسدسه وهو يصيح فيهم ثانية:

- فليعترف الضباط بهويتهم.

حينها تقدم من بينهم عجوز نحيل، عظام ظهره الكبيرة عارية، وكذلك تلوح بوضوح عظام الوجنتين الصفراء على وجهه، وشارباه المتدليان. قال العجوز بابتهاج غير مفهوم:

- إنها نهاية الحرب! كل الضباط يهربون... إنها نهاية الحرب!

ومد العجوز يديه الزرقاء إلى ترونوف، وقال وهو ينشج ويلوي بعنف يده الضخمة:

- بأصابعي الخمسة... بأصابعي الخمسة أعول عائلتي.

ثم سقط على ركبتي ترونوف لاهثًا مرتعشًا والدموع تنسل من عينيه، لكن ترونوف دفعه بعيدًا بسيفه، وقال:

- إن ضباطكم أوغاد. ألقوا بثيابهم هنا، لكني سوف أُجهِز على من يوافق مقاس جسده مقاس هذه الثياب. سوف نُجرِّبها الآن.

ثم أخرج ترونوف من وسط الأسمال قبعة ضابط ووضعها فوق رأس العجوز. ثم تمتم وهو يقترب منه:

– إنها تناسبك... تناسبك.

وغرز سيفه في عنق العجوز. سقط الرجل والتوت ساقاه، وانسلت من العنق جداول مرجانية اللون من الرغو. حينها تقدم أندريوشكا فوسميليتوف بقرطه اللامع في أذنه وعنقه القروي الممتلئ صوب القتيل، وفك زر سرواله، وأخذ يهز الجثمان بهدوء وينتزع السروال منه، ثم ألقى بالسروال فوق سرجه، وأخذ أيضًا ردائين عسكريين آخرين من وسط كومة الثياب، ثم فارقنا، وهو يضرب بسوطه فيتعالى الصوت. في هذه اللحظة بالذات لاحت أشعة الشمس من بين السحب، وأحاطت أشعتها جواد أندريوشكين، الذي يخبو مرحًا ويهز ذيله القصير باستهتار. شق أندريوشكا طريقه صوب الغابة حيث توقف قطارنا، وهناك أخذ السائقون يطلقون الصفير والصياح ويشيرون بعلامات إلى فوسميليتوف وكأنه أصم أبكم.

وصل القوزاقي إلى منتصف الطريق، لكن ترونوف سقط فجأة على ركبتيه، وصاح من خلفه ناظرًا إلى الأرض دون أن يرفع عينيه من عليها:

– أندريه... أندريه... نما زالت جمهوريتنا السوفييتية حية. ما زال الوقت مبكرًا كي نقتسم إرثها. أعد هذه الأسمال ثانية يا أندريه.

لكن فوسميليتوف لم يلتفت حتى إليه، بل واصل جواده الخبو على الطريقة القوزاقية، وهز ذيله بمرح، وكأنه يُلوِّح لنا بالرفض.

حينها تمتم ترونوف بتعجب:

- خيانة... خيانة...

ورفع بندقيته سريعًا إلى كتفه وأطلق النار مخطئًا هدفه من فرط السرعة. لكن أندريه توقف هذه المرة، والتفت بجواده صوبنا وهو يرتج فوق سرجه كامرأة، وقد احمر وجهه من فرط الغضب، واهتزت قدماه. صاح وهو يقترب بجواده:

- اسمع أيها الريفي.

وهنا هدَّأ من حدة صوته القوي العميق وأكمل قائلًا:

- كان عليَّ أن أجهز عليك أيها القروي. أمسكت بعشرة بولنديين وأثرت ضجيجًا حول الأمر، بينما أمسكت بالمئات ولم أطلب مساعدتك. إن كنت عاملًا فعليك إذَنْ أن تعمل... قم بما يتوجب عليك فعله.

وألقى من على سرجه بالسروال والسترتين العسكريتين وشخَّر وتنحى بعيدًا عن ترونوف وتقدم صوبي ليساعدني في إعداد قائمة بأسماء بقية الأسرى. أخذ يتسكع بالقرب مني وكالعادة أطلق شخيره بصوت عال جدًّا. صاح الأسرى وركضوا بعيدًا عن أندريوشكا، فأخذ يطاردهم، وجمعهم تحت ذراعيه كما يمسك الصياد بمجموعة من الخيزران ويفحصها ليرى ما إن كانت تضم بيوض طيور ثم يعيدها فجرًا إلى ضفة النهر.

أخذت أسبهم وألقي عليهم اللعنات وأنا أدور بجوادي حولهم، وتمكنت بطريقة ما من كتابة أسماء ثمانية أسرى، وأسماء وحداتهم، ثم

توجهت صوب التاسع. كان التاسع شابًّا يشبه لاعب سيرك ألمانيًّا من فرقة معتبرة... كان شابًّا ذا صدر ألماني أبيض وسوالف طويلة وقميص تحتي مرتق وسروال صوفي. التفت صوبي فرأيت حلمتي صدره القوي وسوَّى خصلات شعره المتعرقة وقال اسم وحدته. حينها أمسك به أندريوشكا من سرواله وسأله بصرامة:

– من أين حصلت على هذا السروال؟

أجابه مترنحًا:

– حاكته لي أمي.

– إنها حائكة عظيمة.

هكذا قال أندريوشكا وهو يتحسس السروال بأصابعه وأكمل:

– نعم.. حائكة عظيمة حقًّا. لم أر جودة مثل هذه من قبل.

أخذ يتحسس النسيج ثانية، وأخذ الشاب من يده ليفصله عن بقية الأسرى الذين تم تسجيل أسمائهم بالفعل. لكني في هذه اللحظة رأيت ترونوف يلوح من بين الآكام. كانت الدماء تتدفق من رأسه كما يتدفق المطر عبر كومة من القش، وقد تدلت الخرقة القذرة من رأسه. كان آتيًا ممسكًا ببندقيته. كانت بندقية يابانية مطلية بطلاء قوي. من على مسافة تبلغ عشرين خطوة تقريبًا حطم باشكا رأس الشاب تمامًا، ووجدت أشلاء مخه المتناثرة تلامس يدي. حينها ألقى ترونوف بالخزينة التي أفرغها في رأس الشاب بعيدًا، واقترب مني قائلًا وهو يشير إلى القائمة:

– امح هذا الاسم.

أجبته مرتعدًا:

– لن أفعل ذلك. من الواضح أنك لا تلتزم بأوامر تروتسكي.

– قلت لك امح هذا الاسم.

هكذا كرَّر ترونوف وهو يشير بإصبعه القذر إلى الورقة، فصرخت بكل قوتي:

– لن أفعل ذلك. كانوا عشرة، وأصبحوا الآن ثمانية. لن يتركوك في القيادة تفلت بذلك يا باشكا.

– في القيادة سوف يضعون في اعتبارهم تلك الظروف البائسة التي نمر بها.

هكذا أجابني ترونوف وهو يقترب مني ممزقًا، بصوته الأبح والسخام يُشوِّه مظهره، ثم توقف، ورفع رأسه الدامية صوب السماء، وقال بصوت تشوبه لجنة تأنيب مريرة:

– طنين... طنين... ها هو أحدهم يزعجني بطنين آخر.

ثم أشار لنا إلى أربع نقاط في السماء؛ أربع طائرات مقاتلة تلوح من خلف السحب العائمة في صفة السماء والتي تشبه شكل البجعة. كانت الطائرات من ضمن سرب الرائد «فونت لي رو»، وهي طائرات حربية ضخمة.

صاح قادة الكتائب عندما رأونا:

– إلى الجياد.

وقادوا القوات إلى الغابة، لكن ترونوف لم يذهب مع قواته. ظل عند بناية المحطة مستندًا على الحائط يحاول أن يُهدِّئ من نفسه. وقف

أندريوشكا فوسميليتوف واثنان من القائمين على المدافع يرتديان سراويل قرمزية حفاة الأقدام بالقرب منه في حالة قلق شديدة.

– هيا مزقوا البراغي يا رفاق. هذه رسالتي إلى بوجاتشوف.

هكذا صاح فيهم ترونوف، وقد عادت الدماء لتسري في وجهه. ثم كتب ترونوف الآتي على قطعة ورق مقطوعة بحروف قروية كبيرة الحجم:

"بما أني مضطر إلى أن أموت اليوم، رأيت أنه من واجبي أن أضيف قتيلين إلى قتلى العدو، وفي الوقت ذاته فإني أسلم مسؤولية قيادة قواتي إلى سيميون جولوف".

أنهى كتابة خطابه وجلس على الأرض، وخلع حذاءه العسكري بصعوبة. سلم الحذاء والرسالة إلى فردي المدفع قائلًا لهما:

– يمكنكما الاستفادة بالحذاء... إنه جديد.

أجابه المدفعجيان متلعثمين وهما يتململان على أقدامهما مترددين في الانصراف:

– حظًّا سعيدًا أيها القائد.

– وحظًّا سعيدًا لكما أيضًا أيًّا كان ما سيحدث.

واقترب ترونوف من المدفع الكائن عند الرابية عند قمرة المحطة، وهناك كان أندريوشكا فوسميليتوف الثرثار في انتظاره. قال له ترونوف وهو يوجه المدفع:

– ستظل معي إلى النهاية يا أندريه... أليس كذلك؟

أجابه أندريوشكا بخوف:

- يا إلهي!

وبدأ ينتحب وشحب وجهه، ثم انفجر في الضحك قائلًا:

- اللعنة على والدة الإله!

ووجَّه المدفع الثاني صوب الطائرات.

حلَّقت الطائرات فوق المحطة في دوائر ضيقة، وأخذت تصدر صوتًا مزعجًا من السماء، ثم بدأت تخفض من ارتفاعها مشكلة قوس، وأشعة الشمس الوردية تلمع على أجنحتها.

في تلك اللحظة كنا -نحن أفراد الفوج الرابع- في الغابة. كنا هناك في انتظار هذه المعركة غير المتكافئة بين باشكا ترونوف والرائد الأمريكي ريدجينال فونت لي رو، وقد كشف الرائد ومقاتلاته الثلاث عن قدراتهم القتالية في المعركة. هبطت الطائرات على ارتفاع ثلاثمائة متر، وأطلقت نيرانها في البداية على أندريوشكا ثم بعد ذلك على ترونوف، ولم يصب أي من الرصاص الذي أطلقناه الأمريكي بشيء، وحلقت طائراته بعيدًا دون أن يلحظ قواتنا من الأساس المختبئة داخل الغابة. بعد أن انتظرنا حوالي نصف ساعة استطعنا أخيرًا أن نلتقط الجثمانين. أخذ اثنان من أقرباء أندريوشكا فوسميليتوف جثمانه، وكانوا يخدمون داخل فوجنا، أما جثمان ترونوف قائد الفوج فقد مضينا به إلى مدينة سوكال القوطية، ودفناه هناك في بقعة ممتازة بالحديقة العامة وسط الورد في قلب المدينة.

الإيفانان

هرب الشماس أجِّييف من الجبهة مرتين. لذلك أرسلوه إلى فوج موسكو العسكري الموسوم بالخزي. تولى سيرجي سيرجيفيتش كامنيف التفتيش على هذا الفوج في موجايك قبل إرساله إلى الجبهة. قال حينها:

– لست في حاجة إليهم. أعيدوهم إلى موسكو لتنظيف المراحيض.

بطريقة ما قاموا في موسكو بنشر أفراد هذا الفوج الموسوم بالخزي داخل قوات المشاة. كان من بينهم أجِّييف الشماس. وصل إلى جبهة بولندا، حيث ادَّعى أنه أطرش. لم يستطع بارسوتسكي المساعد العامل بالفصيلة الطبية أن يكسر عناده بعد أن قضى معه أسبوعًا كاملًا. قال لزميله الممرض سويتشنكو:

– عليه اللعنة... اذهب إلى القافلة وانظر ما إن كان بإمكانك أن تأتي بعربة لكي نرسل هذا الشماس إلى روفنو كي يفحصوه هناك.

غادر سويتشنكو إلى القافلة وأحضر ثلاث عربات. تولى أكينفييف قيادة العربة الأولى. قال له سويتشنكو له:

- إيفان... خذ هذا الأطرش إلى روفنو.

- حسنًا.

- واحرص على أن تأتيني بإيصال الاستلام.

- مفهوم. وما سبب إرساله إلى هناك؟ لكي يفحصوا أمر صممه؟

- المرء يبالي بنفسه ولا يبالي بالآخرين. هذا هو السبب. إنه ينتمي إلى الماسونيين الأحرار، وليس أطرشَ.

- حسنًا...

وانطلق إيفان أكينييف بعربته خلف العربتين الأخريين. توقفت العربات الثلاث عند نقطة الإسعافات. صعدت إحدى الممرضات العربة الأولى، أرسلوها إلى الخطوط الخلفية للجيش، أما الثانية فكانت من أجل قوزاقي مصاب بتضخم في إحدى كليتيه، والثالثة جلس فيها الشماس إيفان أجِّييف.

بعد أن أنهى سوتشينكو كافة الترتيبات، استدعى المساعد الطبي وقال:

- ها هو صديقنا الماسوني سيرحل في إحدى عربات المحاكم الثورية[١٠٣]. سيتحركون الآن.

نظر باسوتسكي من النافذة وشاهد العربة، فمضى إلى الخارج مسرعًا بوجه أحمر دون أن يرتدي قبعته، وصاح في أكينفييف:

(١٠٣) نوع من العربات كانت تستخدم لنقل المساجين أو الإمدادات بين وحدات المحاكم العسكرية المختلفة.

– آآه... أعرف أنك سوف تذبحه... لا.. أريد أن أنقل الشماس إلى عربة أخرى.

فأجابه القوزاق الواقفين بالقرب منهم وهم ينفجرون في الضحك:

– انقله إلى أي عربة أخرى، وسينال إيفان منه على أي حال.

كان أكينفييف واقفًا بالقرب من جياده والسوط في يده. خلع قبعته وقال بأدب:

– مرحبًا أيها الرفيق المساعد الطبي.

– مرحبًا يا رفيق. انقل الشماس إلى عربة أخرى أيها الوحش.

حينها قال القوزاقي بصوت عالي النبرة، وشفته العليا ترتعش فوق أسنانه المصطكة:

– يسرني أن أعرف ما إن كان هذا السلوك لائقًا أم لا، وأقصد بذلك أنه في الوقت الذي يعذبنا فيه العدو إلى أقصى حد، وعندما يخنق فينا أنفاسنا الأخيرة، وعندما يلتصق بأرجلنا ويحيط بأذرعتنا كالأفعى، فهل يمكننا حينها أن نسد آذاننا في وقت كهذا؟

صاح كوروتكوف حوذي العربة الأولى:

– يبدو أن إيفان يفكر كما يفكر مفوض عسكري.

تمتم بارسوتسكي وهو يستدير:

– وماذا في ذلك؟ كلنا نفعل الأمر ذاته. علينا فقط أن نلتزم بالقواعد.

حينها قاطع أكينفييف الحديث فجأة قائلًا لاويًا السوط بين أصابعه السمينة:

- ولكن هذا المُدَّعِي ليس أطرشَ. إنه يسمع جيدًا.

وانفجر في الضحك وهو يغمز للشماس، أما الأخير فكان جالسًا في العربة وحرَّك كتفيه العريضين وهز رأسه.

حينها صاح المساعد الطبي في يأس:

- حسنًا انطلق، لكني أحملك المسؤولية يا إيفان.

- حسنًا... أنا موافق على تحمل هذه المسؤولية.

هكذا أجابه أكينفييف وهو مستغرق في التفكير، وأحنى رأسه، ثم قال للشماس دون أن يلتفت إليه:

- استرح في جلستك.... استرح تمامًا

كررها للقوزاقي ثم تناول سوطه.

انطلقت العربات في صف واحد عبر الطريق. احتل كوروتكوف المقدمة، بينما كان أكينفييف الثالث. أخذ يطلق صفيرًا للحن أغنية وهو يلوح بسوطه. هكذا قطعوا جميعًا خمسة عشر فرست، وقبالة المساء وجدوا أنفسهم فجأة في مواجهة مفاجئة مع العدو.

فى هذا اليوم، في الثاني والعشرين من يوليو، استطاع البولنديون بحركة سريعة أن يحاصروا خطوطنا، واقتحموا في إحدى الغارات مدينة كوزين وأسروا عددًا كبيرًا من المقاتلين من الكتيبة الحادية عشر. أسرعت الكتيبة السادسة إلى كوزين للقيام بهجوم مضاد. أدت هذه الحركات السريعة إلى إصابة حركة النقل بالفوضى، فوجدت عربات المحاكم الثورية نفسها وسط لهيب المعركة ليومين، وفي الليلة الثالثة

فقط تمكنت من التقدم صوب الطريق الذي كانت تتراجع منه القوات في المؤخرة. في هذا الطريق التقيت بهم.

التقيت بهم بعد المعركة المندلعة قرب خوتين، وكان اليأس قد تملكني كاملًا. قُتِل جوادي في هذه المعركة. بعد أن فقدته انضممت إلى إحدى عربات الإسعاف، وظللنا حتى المساء نجمع الجرحى. بعدها تم إبعاد كل القادرين عن العربة، فبقيت وحدي بالقرب من كوخ مهدم. جاءني الليل مسرعًا على متون جياد مرحة. كان ضجيج عربات السفر يملأ المكان من حولي، ثم بدأ صدى الصياح والأصوات يتلاشى بامتداد الطريق. تسللت النجوم عبر سطح الليل البارد، ولاحت القرى مشتعلة في الأفق البعيد. مضيت في الطريق المتاخم حاملا سرجي على كتفي، وتوقفت عند منعطف الطريق لأقضي حاجتي. انتهيت من الأمر وعدَّلت من وضع ثيابي وشعرت أني قد لطخت يدي ببعض الرذاذ. أشعلت الكشاف والتفت إلى الخلف فرأيت جثة أحد البولنديين قد غمرتها ببولي. رأيت بجانبها بعض الورق ونتفًا من منشور بيلسودسكي[١٠٤]. كانت بعض النفقات مُدوَّنة في كراسة البولندي، بالإضافة إلى جدول عروض مسرح كراكوفسكي، وموعد عيد ميلاد امرأة تُدعى ماريا لويزا. أمسكت بمنشور القائد بيلسودسكي ومسحت بورقه البول من على جمجمة أخي غير المرئي، ومضيت في طريقي منحنيًا أسفل ثقل السرج.

(١٠٤) جوزيف بيلسودسكي ١٨٦٧ – ١٩٣٥ القائد الأول لبولندا بعد استقلالها من روسيا في عام ١٩١٨، وقائد الجيش البولندي.

حينها تناهى إلى أذني أصوات عربات قريبة. صحت:

- توقف! من هناك؟

جاءني الليل مسرعًا على متون جياد مرحة، ولاحت أضواء بعض المصابيح في الأفق. ثم أجابني صوت من وسط الظلمات:

- إنها عربة محاكم ثورية.

ركضت إلى الأمام في اتجاه العربة وقلت بصوت مدوٍّ:

- لقد قُتِل جوادي. كان يُدعى لافريك.

لم يجبني أحد بشيء. صعدت العربة، ووضعت السرج أسفل رأسي ونمت حتى حلول الفجر مستدفئًا برائحة التبن النتنة وجسد إيفان أكينفييف، الذي تصادف أن وجدته بجانبي. استيقظ القوزاقي في الصباح بعدي. قال وهو يخرج مسدسه من أسفل الصندوق ويطلق منه النار بجانب أذن الشماس:

- الحمد لله أن النور قد لاح ثانية.

كان الشماس جالسًا أمامنا مباشرة يقود الجياد، وبضعة شعيرات رمادية تتطاير فوق صلعة رأسه الضخمة. أطلق أكينفييف الرصاص ثانية بجانب الأذن الأخرى، ثم وضع المسدس في جرابه، وقال للشماس متنهدًا، وهو يرتدي أحد حذائيه:

- صباح الخير يا فانيا... ألن نتناول بعض الطعام؟

صرخت فيه:

- أيها السيد... ماذا تفعل؟

– ما أفعله ليس كافيًا. ثلاثة أيام كاملة وهو مُصرٌّ على التظاهر بغير الحقيقة.

هكذا أجاب أكينفييف وهو يخرج الطعام. حينها صاح كوروتكوف الذي أعرفه من الكتيبة ٣١، وحكى لي قصة الشماس كلها من البداية. استمع إليه أكينفييف باهتمام، ثم أخرج قطعة لحم ثور مشوية من أسفل السرج. كانت ملفوفة بقطعة قماش، ويغطيها التبن.

اقترب الشماس منا، وأخرج سكينه وقطَّع شريحة من اللحم الأخضر، وقدَّم لكل منا شريحة. بعد أنا أنهى أكينفييف إفطاره ربط قطعة العظم التي كان يأكل منها وأدخلها حقيبته ووضعها في قلب التبن. قال لأجييف:

– فانيا... علينا أن نتوقف في كل الأحوال؛ فالجياد تحتاج للارتواء.

أخرج من جيبه قنينة دواء ومحقنة تارنوفسكي[١٠٥] وأعطاهما للشماس. ثم انسلا من العربة وابتعدا حوالي عشرين خطوة. ثم صاح كوروتكوف من العربة الأولى:

– أيتها الممرضة! انظري بعيدًا وستعمين إن رأيتي عضو أكينفييف الجبار!

تمتمت المرأة قائلة:

– أنا أعرف حجم عضوك جيدًا.

ثم التفتت صوب الناحية الأخرى.

---

(١٠٥) حقنة تستخدم في علاج السفلس.

رفع أكينفييف قميصه. جلس الشماس على ركبتيه وأعطاه الحقنة، ثم مسح الحقنة بقطعة قماش ونظر إلى الضوء. رفع أكينفييف سرواله، وانتظر برهة من الوقت ثم مضى خلف الشماس وأطلق الرصاص ثانية بالقرب من نفس الأذن، وقال وهو يغلق سرواله:

– شكرًا يا عزيزي فانيا.

ألقى الشماس بالحقنة بعيدًا على العشب، ونهض من على ركبتيه، وتطايرت خصلات شعره الرقيقة، وقال بكدر:

– سوف أذهب للمحاكمة يا إيفان. لست أنت قاضيَّ.

هنا قاطع سائق العربة الثانية الحديث، وكان يبدو أحدبَ أنيقًا. قال:

– الآن الجميع يحاكم الجميع، بل إنهم يحكمون عليك بالموت ببساطة شديدة.

وقال إيفان أجييف:

– أو حتى قد يكون الأمر أفضل من ذلك. اقتلني يا إيفان.

اقترب منه كوروتكوف الذي أعرفه منذ وقت قائلًا:

– لا تتفوه بالحماقات أيها الشماس. أنت تعرف جيدًا من تسافر معه. إن كان إنسانًا آخر لأرداك بالرصاص فورًا كالبطة دون أن يتاح لك الوقت لتنطق بشيء، لكنه يريد أن يُخرج منك الحقيقة ويعلمك شيئًا أيها الكاهن المشلوح!

– أو حتى قد يكون الأمر أفضل من ذلك. اقتلني يا إيفان!

هكذا كرَّر الشماس حديثه وهو يتقدم للأمام.

أجابه أكينفييف شاحبًا، ناطقًا كلماته بلثغة:

– اقتل نفسك بنفسك أيها الوغد. سوف تحفر قبرك بنفسك، وتدفن فيه نفسك.

أخذ يلوح بيده ومزق ياقة قميصه وتهاوى فجأة على الأرض صائحًا بوحشية وهو ينثر التراب على وجهه:

– آآه يا عزيزتي! آآه يا عزيزتي المُرَّة يا سلطتي السوفيتية!

– إيفان!

هكذا قال كوروتكوف مقتربًا منه، وقد وضع يده بلطف على كتفه:

– إياك أن تنهار يا صديقي العزيز. علينا أن نرحل.

ثم صب كوروتكوف بعض الماء داخل فيه، ونثره على أكينفييف، وحمله إلى العربة. جلس الشماس ثانية في مكانه، وتحركنا.

كان قد تبقى لنا على الوصول إلى فيربا ٢ فرست على أقصى تقدير. احتشدت مجموعات هائلة من العربات في هذا الصباح بالمدينة. وصلت عربات من الكتيبة الحادية عشرة والرابعة عشر، وكذلك من الكتيبة الرابعة. وصل يهود يرتدون صديريات، ذوو أكتاف مرتفعة يقفون على عتبات الأبواب كطيور مسلوخة. مضى القوزاق في الساحات يجمعون المناشف ويتناولون ثمار البرقوق التي لم تنضج بعد. أما أكينفييف فما إن وصل، حتى حط في مكانه واستغرق في النوم، وتناولت غطاءً من عربته وبحثت عن مكان أغفو فيه في الظل.

لكن المكان كله على جانبي الطريق كان مغطى بالغائط في كل

مكان. نظر إليَّ أحد القوزاق، وكان ذا لحية، يرتدي نظارات نحاسية وقبعة تيرولية يجلس في أحد الجوانب منهمكًا في قراءة جريدة، وقال:

– نطلق على أنفسنا بشرًا، لكننا نملأ الأرض بغائط أسوأ من ابن آوى. النظر إلى الأرض يصيب المرء بالخزي.

ثم نحَّى بصره عني، وانهمك ثانية في القراءة عبر عدسات نظارته الضخمة. مضيت صوب الغابة على اليسار، وشاهدت الشماس يقترب مني. صاح فيه كروتكوف من العربة الأولى قائلًا:

– إلى أين تمضي؟

– لأقضى حاجتي.

هكذا تمتم الشماس وهو يتناول يدي ويقبلها هامسًا لي مرتعشًا لاهثًا:

– أنت سيد محترم. أتوسل إليك أن تكتب خطابًا إلى زوجتي في مدينة كاسيموف حتى يمكنها أن تنوح من أجلي.

صحت فيه قائلًا:

– هل أنت أطرش أيها الشماس أم لا؟

فأجابني وهو يشير إلى أذنه:

– عذرا؟ عذرًا؟

– هل أنت أطرش يا أجييف أم لا؟

– بالضبط... أطرش... حتى ثلاثة أيام مضت كنت أستطيع السمع

بوضوح، ولكن الرفيق أكينفييف أنهى على سمعي برصاصاته. كان من المفترض أن يقلني إلى روفنو، لكني أشك أنه سوف يفعل ذلك.

وتهاوى على ركبتيه وزحف بين العربات رافعًا رأسه إلى أعلى، وخصلات شعره الشعثاء متشابكة إلى أقصى حد. ثم نهض من على ركبتيه، وتملص من تشابك الأعنة، واقترب من كوروتكوف، الذي منحه بعض التبغ، ولفا سيجارتين وانهمكا في التدخين. قال كوروتكوف، وهو يفسح له مكانًا:

– هكذا أفضل!

جلس الشماس بجانبه، واستغرق كلاهما في الصمت.

استيقظ أكينفييف، وأخرج قطعة العظم من الحقيبة وقطع السكين اللحم الأخضر، وقدَّم للجميع. ما إن رأيت هذه العظمة المتفسخة حتى شعرت بالوهن واليأس وأعدت القطعة التي قدمها لي. قلت لهم:

– وداعًا يا رفاق... أتمنى لكم حظًّا سعيدًا.

أجابني كروتكوف:

– وداعًا.

تناولت سرجي من العربة ومضيت. بينما كنت أبتعد تناهت إلى أذنى تمتمات إيفان أكينفييف التي لا تنتهي. كان يقول للشماس:

– إيفان... لقد أخطأت خطأً كبيرًا. كان عليك أن تخاف عند سماعك اسمي، لكنك دخلت عربتي بكل بساطة. كان بإمكانك أيضًا أن تهرب قبل أن تلتقيني، لكني الآن سوف أؤذيك... يمكنك أن تراهن على ذلك!

تتمة قصة جواد

منذ أربعة شهور مضت استولى سافيتسكي قائد كتيبتنا السابق على جواد أبيض من خليبنيكوف قائد الفرقة الأولى. حينها ترك خليبنيكوف الجيش، وحصل سافيتسكي اليوم على خطاب منه:

من خليبنيكوف إلى سافيتسكي:

ولم أعد أستطيع أن أُكِنَّ أي كراهية لجيش بوديني، فالمعاناة التي مررت بها وأنا في هذا الجيش أحفظها داخل قلبي وأصونها أكثر من أي شيء آخر مقدس. أما بالنسبة لك أيها الرفيق سافيتسكي، فالجموع الكادحة بفيتبسك حيث أترأس هناك اللجنة الثورية للمقاطعة ترسل لك صيحتها الثورية قائلة: «فلتمنحنا الثورة العالمية!»، وهي ترجو أيضًا أن يخبو الجواد الأبيض أسفل سرجك لأداء واجباتك أعوامًا مديدة بكل خير من أجل حريتنا العزيزة وجمهورياتنا الأخوية، ولا بد وأن نوجه إلى سلطاتنا المحلية هناك عناية خاصة، ولا بد أيضًا أن نولي اهتمامًا أكبر بالسلطات القروية ووحداتنا في القطاعات الإدارية المختلفة.

من سافيتسكي إلى خليبنيكوف:

رفيقي الدائم خليبنيكوف...

الخطاب الذي أرسلته لي جدير بالثناء حقًّا بالنسبة لقضيتنا العامة، ناهيك عن القول، بعد الحماقة التي ارتكبتها بحجب الرؤية عن عينيك وتركك لحزبنا الشيوعي البلشفي. إن حزبنا الشيوعي أيها الرفيق خليبنيكوف عبارة عن ستار حديدي من المقاتلين الذين يضحون بدمائهم في الصفوف الأولى، وعندما تسيل الدماء من الحديد، فالأمر ليس مزحة إذَنْ أيها الرفيق، فالاختيار لا يكون سوى: النصر أو الموت. الأمر ذاته بالنسبة للقضية العامة التي لا أتوقع أن أرى ازدهارها، لأن القتال عنيف جدًّا وأنا أُبدِّل دائمًا الضباط كل أسبوعين تقريبًا. أقاتل منذ ثلاثين يومًا في المؤخرة محاولًا تغطية انسحاب فرقة الفرسان الأولى التي لا تقهر، وأجد نفسي واقعًا أسفل نيران مدفعية عنيفة، وكذلك نيران طائرات العدو. قضى تاردي نحبه وكذلك لوخمانيكوف وليكوشينكو ورووليفوي وترونوف، ولست أمتطي الجواد الأبيض الآن. إذَنْ لا تتوقع أن نلتقي ثانية، والسبب في ذلك هو تغير الظروف الحربية يا رفيقي خليبنيكوف، ولنقولها بشكل مباشر: لنتلاقى في مملكة السماء، وإن كانت الإشاعات التي تصلنا تقول إن الرجل العجوز بالأعلى لا يدير مملكة بل ماخورًا، وإن نلنا ما يكفي هنا على الأرض، فمن يعلم؟ ربما لن نلتقي.

الوداع يا رفيقي خليبنيكوف.

الأرملة

يحتضر قائد الفوج شيفيليف في عربة إسعاف. تجلس المرأة عند قدميه. زحف المساء بوميض تراشق المدافع البرونزي فوق وجه الميت. يسخن ليوفكا حوذي العربة الطعام في الغلاية، وتتأرجح عقصة شعره فوق النيران، بينما تسحق الجياد الأرض المليئة بالأجمة بأقدامها. يُقلب ليوفكا الطعام داخل القدر بفرع شجرة صغير ويقول لشيفيليف الممدد في عربة الإسعافات:

– لقد عملت في مدينة تومريك أيها الرفيق.. كنت أقود الجياد وأقوم بالحركات البهلوانية فوقها في السيرك، وكذلك مصارعًا للوزن الخفيف. بالطبع تشعر النساء بالملل في مدينة صغيرة كهذه، لذلك فعندما كانت النساء تراني، كان كل شيء يتداعى. تقول لي: «ليف جافريلتش.. يقينًا لن ترفض طبقًا من المشهيات. لن يُضيِّع ذلك من وقتك». ونذهب معًا إلى إحدى الحانات، ونطلب طبقين من لحم العجل وفودكا، ونشعر أننا في راحة تامة، ونرتشفها ببطء. ثم أنظر حولي، وأرى طيف أحد السادة يقترب مني، يرتدي ثيابًا لائقة، لكني ألاحظ فيه خيلاءً عظيمة، مع أنه لا يساوي شيئًا. يقول لي:

– عذرًا... ما هي جنسيتك؟

فأسأله:

– وما سبب سؤالك عن جنسيتي يا سيد بينما أنا في صحبة سيدة؟

– أأنت رياضي؟ في الحرب الفرنسية كانوا سيسحقونك في غمضة عين. أرني أوراق جنسيتك!

وصدق أو لا تصدق... حتى هذه اللحظة لم أكن أفهم حقيقة ما يحدث. قلت له:

– لماذا تحاول أن تثير سوء تفاهم بيننا بحيث يتوجب على أحدنا أن يهلك أو ينتهي أمره لافظًا أنفاسه الأخيرة، وأنا حتى لا أعرف من أنت؟

وأخذ ليوفكا يكرر بابتهاج وهو يمد يده صوب السماء «لافظًا أنفاسه الأخيرة» والليل يحيط به كهالة من القداسة تغلف وجوده. الريح تهب دون كلل أو ملل... تنشد ريح الليل الصافية أغانيها وتطرب لها الروح. تتوهج النجوم في صفة السماء المظلمة وكأنها خواتم الخطوبة، وتلمع أضوائها على وجه ليوفكا، وتتناثر خصلات شعره وتنطفئ الأضواء بين شعره الأشعث.

فجأة يهمس شيفيليف من بين شفتيه الزرقاوين، ويقول والجراح تثخن جسده:

– ليوفكا... تعال هنا. ما لدي من ذهب لساشكا؛ الخواتم والسروج... كل شيء لها. لقد قمنا بما نستطيع عمله، وأريد أن أكافئها. الثياب والسراويل وميداليات الشرف التي حصلت عليها لبطولاتي...

كل ذلك لأمي في تيريك. أرسل كل ذلك لها وأرفق مع كل ذلك خطابًا أكتب فيه: «يرسل القائد تحياته. لا تبكي. المنزل لكِ أيتها العجوز فعيشي كما تشائين. إن حاول أحدهم أن يمسكِ بسوء اهرعي فورًا لبوديني وقولي له أنا والدة ماتكا». أما جوادي أبرامكا فأنا أمنحه للفوج تذكارًا لروحي.

تمتم ليوفكا وهو يشيح بيده:

– لا تقلق... فيما يخص الجواد فقد فهمت الأمر.

ثم يصرخ في المرأة:

– ساشكا... أسمعتِ ما قاله؟ أقسمي أمامه: هل ستمنحين العجوز ما لها أم لا؟

وتجيب ساشكا:

– أنا أعرف العجوز جيدًا.

ثم تمضي بين الأجمات في خط مستقيم كالأعمى.

يلحق بها ليوفكا مسرعًا ويمسك بها من عنقها قائلًا:

– هل ستعطيها حصتها البائسة التي قال عنها؟

– سأعطيها... اتركني!

بعد أن ليوفكا نال إقرارها بفعل ذلك، يرفع القدر من على النيران، ويصب من الطعام في فم المحتضر المتصلب. انسل حساء الشِّي[١٠٦]

(١٠٦) شوربة ملفوف روسية شهيرة.

من فم شيفيليف، وتعالى رنين الملعقة بين أسنان المحتضر، وازداد صوت الطلقات كآبة وقوة وهي تدوي في صفحة الليل السميكة. قال ليوفكا:

– الأوغاد يطلقون النار من بنادقهم.

أجابه شيفيليف:

– آآه من أولئك الأوغاد الملاعين! إنهم يخترقون جناحنا الأيمن بقذائفهم.

ثم أغلق عينيه بشكل مهيب، كما تفعل جثة موضوعة فوق طاولة. أخذ ينصت لأصوات المعركة بأذنيه المليئتين بالشمع، بينما يمضغ ليوفكا الجالس بجانبه قطعة لحم، ويطحنها بين أسنانه بأنفاس لاهثة. ما إن انتهى منها حتى مصمص شفتيه وجذب ساشكا نحو خندق. قال لها مرتعشًا، وهو يحيطها بذارعيه ويتجشأ:

– ساشكا... ساشكا... أقولها والله شهيد عليَّ... إننا غارقون في الرذيلة كالكلاب الغارقة في الوحل. يعيش المرء مرة واحدة ثم يموت. دعي نفسك لي يا ساشكا، وسأخدمكِ حتى لو بدمائي! لقد حان وقته بينما أيامنا لم تنته بعد.

واستلقيا على العشب الجليل. لاح القمر الكسول من بين السحب، ولمع ضوؤه فوق ركبتي ساشكا العاريتين.

– يبدو أنكما تدفئان بعضكما في الوقت الذي ربما تكون الكتيبة الرابعة عشر قد اندحرت فيه.

هكذا تمتم شيفيليف.

تعالت جلبة ليوفكا وكذلك لهاثه من بين الأجمة بينما يتسكع القمر الداكن في صفحة السماء كالمتسول، وتلوح آثار القذائف في الأفق البعيد. تصاعد صوت حفيف العشب فوق الأرض المضطربة التي تلمع وقها نوم أغسطس.

عادت ساشكا إلى مكانها السابق، وانهمكت في تغيير ضمادات الجريح، ووجهت المصباح على الجرح المتعفن، ثم قالت وهي تمسح عرق شيفيليف البارد:

– سوف ينتهي الأمر بك غدًا.... سوف ينتهي بك الأمر غدًا، فالموت قد سكن أمعاءك فعلًا.

وفي هذه اللحظة اهتزت الأرض إثر ضربة ضخمة، فقد قامت أربع وحدات جديدة من العدو قد أُرسِلت إلى الأرض المعركة بإطلاق القذيفة الأولى على باسك، فقطعت خطوط اتصالاتنا ونسفت مستودع المياه. لاحت في الأفق نيران الحرائق، وتناثرت رشقات المدافع من قلب النيران. كانت باسك تحترق، فهرع ليوفكا إلى الغابة مرتديًا زي الكتيبة السادسة. بسط زمامه القرمزي، وقعقعت العجلات المطلية على قطع الخشب المتناثرة. اندفعت إثره العربة حاملًا شيفيليف بداخلها، وقادت ساشكا الجياد بحرص وقد قفزت من مكانها لتتولى القيادة.

هكذا توغلوا إلى بقعة آمنة داخل الغابة حيث وصلوا أخيرًا إلى نقطة إسعافات. نزع ليوفكا الطقم عن الجياد، ومضى إلى قائد النقطة ليسأله أن يمنحه طاقم جواد آخر. مضى داخل الغابة المليئة بالعربات،

ولاحت أجساد الممرضات من أسفل العربات، وكذلك ضوء الفجر الفاتر على جلود معاطف الجنود. كانت الأحذية العسكرية مستلقية على الأرض بغير انتظام، والأعين مصوبة إلى السماء، وتجاويف الأفواه السوداء مشوهة.

وجد القائد الطبي طاقم جواد، وعاد ليوفكا إلى شيفيليف، وقبَّل جبهته وغطَّى رأسه، وعندئذ اقتربت ساشكا من العربة. كانت متدثرة بدثار حول عنقها، ونفضت التبن من على ردائها. قالت:

– بافليك... يا ربي يسوع المسيح!

واستلقت بجانب جثمان الميت وقد غطته بجسدها. حينها قال ليوفكا لنفسه:

– لقد مات. لا تقل شيئًا، فقد عاشا معًا حياة حسنة. الآن سيتوجب عليها أن تحاول إغواء الفرقة كلها ثانية. الأمر ليس سهلًا.

ثم مضى في اتجاه نهر بوك حيث تعسكر قيادة فرقة الفرسان السادسة.

هناك، على بعد عشرة فرست من المدينة كانت المعركة مستعرة ضد قوزاق سافينكوفسكي. كان الخونة يقاتلوننا تحت قيادة ياكوفليف الذي مضى ليساند البولنديين. لقد قاتلوا بشجاعة. طوال يومين كاملين والقائد يقاتل بصحبة قواته، وبالتالي لم يجده ليوفكا في مقره فعاد إلى كوخه، ونظَّف الجياد وغسل العجلات واستلقى لينام في مخزن الحنطة. كانت السقيفة مليئة بالتبن النظيف، تفوح منه رائحة قوية.

نال ليوفكا قدرًا من النوم، ثم نهض ليتناول الغداء. طهت ربة البيت له بعض البطاطس، وأعدت له بعض اللبن الرائب. كان ليوفكا يتناول طعامه بالفعل على الطاولة عندما مرت جنازة أمامه في الشارع وتعالت أصوات الأقدام والجياد. مرت جماعة عسكرية بصحبة نافخي الأبواق وحملة الأعلام في الشارع الجاليسياني المتعرج. كان جثمان شيفيليف ساكنًا فوق عربة من عربات المدافع، يغطيه علم مخطط. مضت ساشكا خلف النعش على جواد شيفيليف، بينما تعالت نغمات أغنية قوزاقية من الصفوف الخلفية.

مضت القوات عبر الشارع الرئيس، ثم انعطفت صوب النهر. حينها اندفع ليوفكا راكضًا دون أن يرتدي قبعته خلف القوات، وأمسك بعنان جواد قائد السرية.

لم يستطع قائد القوات الذي توقف عند منعطف الطريق ليلقي التحية العسكرية للفقيد، ولا قواته من الاستماع لما قاله ليوفكا لقائد القوات. كل ما استطعنا سماعه من صياح ليوفكا كانت بعض الشذرات: "سراويل... أمه في تيريك". لم يستمع القائد إلى نهاية الحديث، وحرَّر زمامه وأشار بيده إلى ساشكا. هزت المرأة رأسها وأكملت مسيرها. حينها قفز ليوفكا خلفها ليمتطي جوادها، وأمسك بشعرها وأمال رأسها وانهال عليها بقبضته. جففت ساشكا الدماء السائلة على تنورتها وواصلت التحرك. هبط ليوفكا من فوق الجواد، وأبعد خصلة شعره من على وجهه، وربط وشاحه الأحمر على جانبه. مضت القافلة بعيدًا تلمع في طريقها إلى ضفاف نهر بوك.

سرعان ما عاد ليوفكا إلينا صائحًا بأعين براقة:

– قالت لي إنها سوف ترسله إلى أمه نظيفًا عندما يحين الوقت. لن أنسى إرساله. قلت لها: يجدر بكِ ألا تنسيه أيتها الأفعى الماكرة، فإن نسيتي سوف نأتي لنذكركِ بأنفسنا! وإن نسيتي ثانية سنأتي لنذكركِ ثانية!

❊ ❊ ❊

مدينة زاموسك

كان القائد بصحبة قواته في إحدى الحقول على بعد ٣ فرست من زاموسك. استعدت القوات لمهاجمة المدينة في الليل. صدرت إلينا الأوامر بأن نستولي على المدينة ليلًا، وانتظرت القيادة أن نرسل لها إشارة بنجاح الهجوم.

انهمر المطر. اكتنف الظلام والرياح الأرض المبللة، وانطفأت النجوم وسط مداد السماء الملبدة بالسحب. تنهدت الجياد المنهكة، وهي ترض الأرض بأقدامها واجمة. لم يكن لدينا ما نطعمها به. ربطت لجام الجواد بقدمي، والتحفت بمعطفي واستلقيت للنوم في حفرة مبللة تمامًا. فتحت لي الأرض أحضانها وأدخلتني إلى راحتها القبرية الهادئة. جذب الجواد اللجام فجذب قدمي. وجد حزمة من العشب وبدأ يتناولها. غفوت ثانية ورأيت في المنام غرفة مليئة بالحنطة. التراب الذهبي للحنطة المدروسة يطن في سماء الغرفة، وتتطاير حزم القمح في السماء، ثم يزحف المساء صوب ذلك اليوم من شهر يوليو، ويكتنف الغروب القرية.

كنت ممددًا فوق هذا الفراش الهادئ، أكاد أجن من فرط حلاوة مداعبة التبن لمؤخرة رأسي. أصدرت أبواب السقيفة صفيرًا. رأيت امرأة ترتدي زيًّا احتفاليًّا تقترب مني. حلت الشريط المربوط في صدارها لتخرج أحد ثدييها وتقربه مني بحذر كما تفعل المرضعة مع الطفل. وضعت ثديها عليَّ، وشعرت بالدفء يكتنف روحي ثانية، وقطرات من العرق... العرق العذب تنساب ساخنة بين صدرينا. أردت أن أصيح قائلًا:

- مارجو.. الأرض تجذبني بعيدًا بقيد بلاياها كما يفعل كلب عنيد، لكني لا أزال أراكِ.

- أردت أن أصيح بذلك، لكن برودة مفاجئة اكتنفت فكيَّ فلم أنبس بشفة.

حينها نحَّت جسدها عني وجلست على ركبتيها وقالت:

- يا يسوع... اقبل نفس عبدك الراحل.

وضعت عملتين باليتين من فئة الخمسة كوبيك[١٠٧] على جفني

(١٠٧) من المصريين القدماء إلى الأمريكيين والأفارقة أيضًا، جميع هذه الحضارات القديمة استعملت هذه الطريقة لإغلاق أعين موتاهم واختلفت الأسباب حسب اختلاف الثقافة. اعتقد أقارب الميت في بعض الثقافات أنه بوضع العملات المعدنية على أعين الميت، يتم دفع ثمن الدخول إلى عالم الأبدية! ثقافات قديمة أخرى اعتقدت أن هذه الطريقة تمنع الأحياء من أقارب المتوفى من رؤية الموت في أعين فقيدهم. وآخرون اعتقدوا أن الميت يبحث عن من يأخذه معه إلى الآخرة من أقاربه عند موته، لذلك تُغلَق الأعين بقطع معدنية نقدية لمنعه من النظر إلى الأحياء على حد اعتقادهم! آخرون وجدوا أن هذه الطريقة تزيد من جمالية الميت خاصةً أن الجثة كانت تُعرض لفترة طويلة أمام الناس وخلال الجنازة قبل أن يتم دفنها.

عيني، ورزمة صغيرة من التبن ذا الرائحة العطرة في تجويف فمي. عبثًا حاولت الصرخة أن تخرج من فمي، ووجدت عيني تنغلقان أسفل العملتين، ولم أستطع أن أحرك ذراعيَّ و.... واستيقظت!

وجدت فلاحًا ذا لحية متشابكة مستلقيًا أمامي، وسلاحه في يده. ولاح ظهر جوادي وكأنه يقطع صفحة السماء كشعاع أسود، وكان اللجام مربوطًا بإحكام حول قدمي يجذبها إلى فوق قليلًا. قال لي والابتسامة تلوح على عينيه المؤرقتين:

– لقد غرقت في النوم تمامًا أيها القروي، حتى إن جوادك ظل يجذبك لنصف فرست.

حللت اللجام عن قدمي ونهضت. التبن متناثر على وجهي، والدماء تسيل، وعلى بعد قدمين مني لاح منظر الجبهة، وكنت أرى الدخان المتصاعد من زاموسك، والأضواء تلوح هنا وهناك في أعماق الجيتو داخل المدينة، وكذلك لاح برج المراقبة ومصباحه المحطم. لاح ضوء الفجر الندي كأمواج من الكلوروفورم، وطارت قذائف خضراء فوق معسكرات البولنديين. كانت ترتعش في الهواء وتعمي العين مثل اللون الوردي الذي يظهر أسفل القمر، ثم تتلاشى.

ثم سمعت في قلب الصمت صوت عواء بعيد، وتسكعت من حولنا آثار المذبحة. قلت:

– إنهم يقتلون أحدهم. من هو؟

أجابني الفلاح:

- البولنديون في حالة هلع. إنهم يجزون أعناق اليهود.

ثم نقل السلاح من يده اليمنى لليسرى، وتشابكت لحيته تمامًا. كان ينظر لي بحنان وقال لي:

- هذه الليالي التي تمر علينا في الجبهة طويلة للغاية، كما لو أن لا نهاية لها. ويشعر المرء بالرغبة في التحدث مع أحدهم، ولكن أنَّى يجده؟

ومرَّر لي سيجارته كي أشعل بها سيجارتي.

- إنه خطأ اليهود. يريدون أن يُرضوا هذا وذاك. لن يتبقى منهم بعد الحرب سوى عدد قليل، فكم عددهم في العالم كله على أي حال؟

أجبته واضعًا اللجام على جوادي:

- تسعة ملايين.

- لن يتبقى منهم سوى مائتي ألف.

هكذا صاح الفلاح وهو يمسك بذراعي خوفًا من أن أنصرف وأتركه وحده، لكني اعتليت جوادي وتوجهت إلى مقر القيادة.

كان القائد يعد عدته بالفعل للمغادرة. جنود الخدمة واقفون أمامه في وضعية الانتباه، يوشكون على النوم وهم واقفون، وكان الفرسان يسيرون مترجلين صوب التلال الندية. همس القائد قائلًا:

- لقد حطموا عشنا.

ثم انصرف. تبعناه في الطريق إلى سيتانيك[١٠٨].

انهمر المطر ثانية، وطفت الفئران الميتة على الطرقات. أحاط الخريف قلوبنا بالفخاخ والقرى والجثث العارية الملقاة على جانبي الطريق وعند منعطفات الطرق.

وصلنا إلى سيتانيك. كنت في صحبة فولكوف الضابط المسؤول عن إيواء الجنود، وقد وجد لنا كوخًا فارغًا على أطراف القرية. قلت لصاحبة الكوخ:

– أريد خمرًا... خمرًا ولحمًا وخبزًا.

كانت العجوز جالسة على الأرض تطعم العجل الصغير الذي تخفيه أسفل الفراش. أجابتني بلا مبالاة:

– ليس لديَّ شيء[١٠٩]. إني حتى لا أذكر ذلك الوقت الذي كان لدي فيه أي شيء.

جلست مستندًا على الطاولة، وأخرجت مسدسي ثم غفوت. بعد مرور أربع ساعات فتحت عيني، ورأيت فولكوف مستندًا على حافة النافذة. كان يكتب خطابًا إلى عروسته:

"العزيزة فاليا... أتذكريني؟".

قرأت السطر الأول، ثم أخرجت علبة الثقاب من جيبي وأشعلت النار في حزمة صغيرة من القش على الأرض. توهجت النيران وبدأت

(١٠٨) قرية بولندية.

(١٠٩) مكتوبة في الأصل بالبولندية.

تتحرك صوبي. ألقت العجوز بنفسها على الشعلة وأطفأتها. قالت لي وهي تتراجع في فزع:

– ماذا تفعل يا سيد؟

التفت فولكوف ونظر إلى العجوز بعينيه الغائرتين ثم عاد لكتابة خطابه. تمتمت متثائبًا:

– سوف أحرقك أيتها العجوز... أنتِ وعجلكِ المسروق هذا!

صرخت قائلة:

– انتظر[١١٠]!

وهرعت إلى الداخل، ثم عادت بإبريق من اللبن وبعض الخبز.

لم نكن قد تناولنا سوى نصف الخبز عندما تناهت إلى آذاننا أصوات طلقات نارية كثيرة من الخارج. استمرت طويلًا وكدَّرتنا. أنهينا شرب اللبن، وغادر فولكوف إلى الساحة بالخارج ليتبين ما الأمر. قال لي من النافذة:

– لقد أسرجت جوادك. أصابوا جوادي. نصبوا مدافعهم على بعد مائة خطوة.

وهكذا تبقى لكلينا جواد واحد، هربنا عليه من سيتانيك. توليت أنا القيادة، وفولكوف من خلفي. أسرعت عربات النقل مثيرة ضجيجًا، وهي تغوص في الوحل. تسرب الصباح كما يتسرب الكلوروفورم في بناية المستشفى.

---

(١١٠) مكتوبة في الأصل بالبولندية.

قال فولكوف فجأة من خلفي:

- هل أنت متزوج؟

كنت قد غفلت لبرهة وحلمت أني مستلقٍ على فراشي، ثم أجبته قائلًا:

- فارقتني زوجتي.

وساد الصمت...

بدأ الجواد يترنح...

قال فولكوف:

- سيتداعى الجواد في غضون ٢ فرست.

ساد الصمت...

تمتم فولكوف:

- لقد خسرنا الرفقة!

وبدأ يغط في النوم. قلت:

- نعم!

* * *

خيانة

إجابة عن أسئلتك أيها الرفيق المحقق بوردينكو: رقم عضويتي في الحزب: ٢٤٠٠، وقد تم تسليمه إلى نيكيتا بالماشييف من قبل لجنة الحزب بكراسنودار. يمكنني أن أصف حياتي حتى عام ١٩١٤ أنها حياة ريفية، أعمل فيها بالزراعة في أرض والدي، ثم انتقلت من الزراعة إلى صفوف الجيش الإمبراطوري للدفاع عن المواطن بوانكاريه[١١١] وجلادي الثورة الألمانية إيبرت ونوسكيه[١١٢] الذين يبدو أنهم ناموا في أحد الأيام ورأوا في الحلم كيف يمكنهم أن يقدموا المساعدة إلى قريتي القوزاقية: قرية القديس إيفان، في قطاع كوبان. هكذا ظل الخيط يتلوى حتى قام الرفيق لينين والرفيق تروتسكي بتحويل اتجاه حربتي لتصيب البطون والأحشاء الصحيحة. منذ ذلك الوقت وأنا أحمل الرقم ٢٤٠٠ على سن حربتي الثاقب، وأجد أن كلماتك أيها الرفيق المحقق

(١١١) رايموند بوانكاريه ١٨٦٠ – ١٩٣٢ وهو مواطن فرنسي دعَّم القوات الروسية ضد البلاشفة في الحرب الأهلية الروسية.

(١١٢) سياسيان ألمانيا تولا قمع انتفاضات العمال في ألمانيا المشبعة بالأفكار الشيوعية.

بوردينكو بشأن تلك المستشفى المجهولة تثير السخرية والخزي. لم أطلق النار أبدًا على هذه المستشفى ولم أهاجمها، ولا يمكن لهذا أن يحدث من الأساس. ثلاثتنا كان مصابًا؛ بالتحديد: أنا وجولوفيتسين وكوستوف، ناهيك عن أننا كنا مصابين بحمى في عظامنا، ولذلك فإننا لم نهاجم المستشفى؛ بل كنا نبكي، وكل منا يرتدي رداء المستشفى، واقفين في الميدان وسط هؤلاء الأحرار من السكان اليهود[١١٣]! أما فيما يتعلق بالثلاث نوافذ المحطمة التي حطماناه بمسدس ضابط، فإني أقول لك بكل صدق إن الزجاج لم يكن مناسبًا للأطر المعلق عليها، فقد أتوا به من المخزن، وهو غير صالح. حتى الدكتور يِزين عندما رأى طلقتنا المريرة، أطلق ضحكات ساخرة وهو يطل من نافذة مستشفاه، وبالتالي فهذا يثبت ما ذكرته سابقًا عن تحرير اليهود في قرية كوزين. فيما يتعلق بالطبيب يِزين فإني أضيف أيضًا أيها الرفيق المحقق أنه أطلق ضحكة ساخرة عندما تقدم ثلاثتنا الجرحى -أقصد أنا وجولوفيتسين وكوستوف- لتلقي العلاج، وتحدث معنا من البداية بفظاظة منقطعة النظير. قال لنا: «على كل منكم أيها المقاتلون أن يغتسل، وعليكم أن تخلعوا ثيابكم وأسلحتكم حالًا، فأنا أخشى من أن تنشر العدوى، وسوف أحتفظ بها في المستودع». عندما أدرك المقاتل كوستوف أنه يتحدث مع وحش لا مع إنسان، تقدم إلى الأمام على ساقه المصابة ووضح له أن الوحيدين الذين يجب أن يخشوا من عدوى سيفه

(١١٣) المقصود أن الراوي يستنكر أن ينعم اليهود بالحرية، فقد تعرض اليهود في روسيا فى هذه الفترة إلى متاعب حقيقية.

الكوباني[١١٤] هم أعداء الثورة، كما أعرب المقاتل كوستوف عن فضوله بشأن المستودع، وهل يمكن أن يجد فيه مقاتلًا حزبيًّا، أم أنه سوف يجد على النقيض من ذلك مقاتلا غير حزبي. حينها أدرك الطبيب يِزين أننا يمكننا أن ندرك وقوع خيانة. استدار وتركنا سريعًا دون أن ينبس بشفة، ثم أرسلنا ثانية -مع ضحكاته الساخرة مرة أخرى- إلى حجرة أخرى مضينا إليها بأرجلنا وأذرعتنا المصابة، وكل منا يتكئ على الآخر، فجميعنا ريفيون من قرية القديس إيفان، وأقصد تحديدًا: أنا وجولوفيتسين وكوستوف....جميعنا فلاحون، ومصيرنا واحد، ومن لديه قدم مصابة استند على من لديه ذراع مصابة، ومن لديه ذراع مصابة استند على كتف الآخر. طبقًا للأوامر الصادرة مضينا إلى الردهة حيث كنا ننتظر أن نتلقى توجيهًا ثقافيًّا وتعليميًّا[١١٥]، ولكن هل تعرف ماذا كان ينتظرنا في الردهة؟ رأينا جنود الجيش الأحمر -جنودنا البواسل- يفترشون الأرض يتسلون بلعب الداما، بينما تقف الممرضات ذوات القامة المتوسطة عند النوافذ لا يفعلن شيئًا سوى النظر بعطف إليهم. عندما رأينا ذلك شُدهنا تمامًا. صحت في أحد الجرحى:

- هل انتهيتم يا رفاق من القتال؟

- انتهينا.

قالها الجريح، ثم انهمكوا ثانية في تحريك قطع اللعبة المصنوعة من بقايا الخبز. قلت للجريح:

---

(١١٤) نسبة إلى مقاطعة كوبان.

(١١٥) كان الحزب البلشفي يرسل مندوبين له يلقون توجيهات ثقافية إيدولوجية موجهة للجنود.

– لقد تركتم القتال مبكرًا جدًّا أيها المشاة، بينما العدو ينعم بكل صنوف الراحة على بعد خمسة عشر فرست من القرية، ويمكنك أن تقرأوا في جريدة «الفارس الأحمر» عن موقفنا الدولي، وحينها ستعرفون أنه إن لاحت سحابة أخرى في الأفق سيصبح الوضع خطيرًا جدًّا.

لكن أبطالنا من المشاة لم يبالوا بحديثي، فتساقطت كلماتي من آذانهم كما يتساقط روث الأغنام من صناديق نفايات الجيش، وبدلًا من أن نتبادل الحديث، قادتنا الممرضات إلى بعض الأسرة، وبدأنا ذلك الهراء ثانية عن كيف يتوجب علينا أن نُلقي سلاحنا كما لو أننا قد هُزِمنا. أزعجوا كوستوف بهذا بطريقة يصعب وصفها، وبدأ الأخير يكشف عن جرحه الذي في الكتف الأيسر الموجود فوق القلب الدامي لمقاتل وبروليتاري. عندما رأت الممرضات ذلك صمتن، لكن الصمت لم يمتد طويلًا، وسرعان ما عاودن سخريتهن تلك الصادرة عن أناس غير حزبيين[١١٦]، وبدأن في إرسال البعض بهدف الاستيلاء على ثيابنا بينما نحن نائمون، أو يفرضون علينا في أوقات التوجيه التعليمي والثقافي أن نلعب أدوارًا مسرحية في ثياب نساء غير لائقة.

إنهن ممرضات عديمات الرحمة، وقد حاولن أكثر من مرة أن ينتزعن منا ثيابنا بالخديعة عن طريق مساحيق نوم، لذلك بدأنا ننام بالتناوب، وبعين مفتوحة؛ بل إننا كنا نذهب إلى المرحاض بكامل ثيابنا وصحبة مسدساتنا. عانينا على هذا الحال لثمانية أيام، حتى انتهى بنا

(١١٦) دعمت السلطة تصوير المواطن السوفييتي بشكل مؤدلج هزلي، فلا بد له أن يتحدث ويسلك بطريقة معينة لا غيرها، وهو ما يسخر بابل هنا منه بشكل خفي.

الأمر إلى الهذيان وبدأنا نرى رؤى، واستيقظنا في النهاية في صباح الرابع من أغسطس لنرى بأنفسنا هذا التغيير الذي طرأ علينا، فقد وجدنا أنفسنا نرتدي ثياب المستشفى وأصبح لدينا أرقام كالمدانين، وفقدنا أسلحتنا وثيابنا التي حاكتها لنا أمهاتنا العجائز الواهنات في كوبان. وكما هو من الواضح فإن الشمس تشرق ببهاء، لكن مشاة الخنادق الذين يعاني منهم ثلاثتنا نحن الفرسان، يضايقوننا للغاية، وكذلك الممرضات عديمات الرحمة اللاتي صببنا لنا ذات ليلة مسحوقًا مخدرًا... إنهن الآن يهززن صدورهن النضرة، ويأتوننا بالصواني التي تحمل مشروب الكاكاو وبه كمية من اللبن تكفي لإغراق المرء! كل هذه الدوامة من المرح تجعل جنود المشاة يدقون الأرض بأقدامهم بصوت مدوٍّ يفزعنا، كما أنهم يقرصوننا من عند الخصر كما لو أننا فتيات ليل، صائحين أن فرقة الفرسان الأولى بقيادة بوديني قد انتهت هي الأخرى من القتال. ولكن لا يا رفاقي ذوي الشعر المجعد الذين أتخموا بطونهم حتى إنها ترتج في الليل كالمدافع... لم تنته فرقة فرسان بوديني من القتال بعد. كل ما فعلناه أننا استجبنا لنداء الطبيعة، ومضى ثلاثتنا إلى الساحة، ومن هناك ذهبنا بالحمى التي اكتنفتنا، وكذلك بقرحنا الزرقاء إلى المواطن بويدرمان رئيس اللجنة الثورية، الذي إن لم يكن قد تدخل في الأمر لما حدث سوء التفاهم أيها الرفيق المحقق بوردينكو، فهو الذي تسبب في توتر أعصابنا الشديد. رغم أننا لا نستطيع تقديم دليل لا يرقى إليه الشك بخصوص ما بدر من المواطن بويدرمان، لكننا عندما مررنا على مكتبه لاحظنا تقدم عمره ومعطفه المصنوع من صوف الخرفان، وعرفنا

أن من يجلس أمامنا على الطاولة هو يهودي الأصل، وكانت الطاولة مليئة بالأوراق إلى حد مفزع. كان المواطن بويدرمان ينظر هنا وهناك، وبدا بوضوح أنه لا يستطيع أن يفهم شيئًا في هذه الأوراق، التي كانت تُشعره بالسوء أكثر من السوء الذي يمكن أن يشعر به عندما يأتيه مقاتلون مجهولون لكنهم يستحقون التقدير، ويتوعدونه بسبب سوء الطعام، بينما يقاطعه موظفوه طوال الوقت مشيرين إليه إلى الأعمال المضادة للثورة في القرى المجاورة. إنهم موظفون مبتذلون للغاية يودون الالتحاق سريعًا جدًّا باللجنة الثورية دون حتى شريط أحمر. هكذا أخذنا نشرح له بصوت مرتفع علامات الخيانة التي تحدث في المستشفى، لكن المواطن بويدرمان لم يفعل شيئًا سوى التحديق فينا بعينيه المنتفختين ثم أخذ ينظر مجددًا هنا وهناك، ويربت على أكتافنا، وهو أمر لا ينم عن السلطة ولا يليق بها، ولم يتوصل إلى أي قرار، بل اكتفى بالقول: «أيها الرفاق المقاتلون... إن كنتم تشفقون على السلطة السوفييتية، اتركوا هذه البناية!». لكننا لم نستطع أن نوافق على ذلك، وطالبناه بأن يبرز لنا شهادة التحقق خاصته، وعندما لم يفعل ذلك فقدنا شعورنا تمامًا. عندما وصلنا إلى هذه الحالة خرجنا إلى الميدان الكائن أمام المستشفى، وهناك جرَّدنا فرد الميليشيا[١١٧] من سلاحه الذي يمثل تسليح فارس واحد، وحطمنا ثلاث نوافذ بائسة في المستودع والدموع في أعيننا، أما الدكتور يِزين فأمام هذا المنظر الصعب لم يفعل شيئًا سوى السخرية، وبعد مرور أربعة أيام قضى الرفيق كوستوف نحبه من مرضه!

(١١٧) في بداية الثورة البلشفية تم تشكيل قوات ميليشيا تقوم بأعمال الشرطة.

كانت الخيانة أشد ما يكدر الرفيق كوستوف على مدار حياته الحمراء القصيرة؛ تلك الخيانة التي وقفت تغمز لنا بسخرية من النافذة، وتسخر من البروليتاري الفظ، لكن هذا البروليتاري أيها الرفاق يعلم جيدًا أنه فظ، ونحن نشعر بالألم بسبب ذلك، وأرواحنا تتمزق وتشتعل بنيران سجن الجسد.

أقول لك أيها الرفيق المحقق بوردينكو إن هذه الخيانة تغمز لنا ساخرة من النافذة، وتدخل إلى منازلنا وقد خلعت حذاءها، وعلقتها على ظهرها حتى لا يصدر عنها صوت على أرضية المنزل الذي سوف تستولي عليه.

❊ ❊ ❊

قرية تشيسنيكي

احتشدت قوات الفرقة السادسة في الغابة بالقرب من قرية تشيسنيكي، وانتظرت إشارة الهجوم. لكن بافليتشينكو قائد الفرقة انتظر وصول الفوج الثاني ولم يصدر إشارة الهجوم. حينها جاءه فوروشيلوف[١١٨]، ونخس صدره بفم جواده قائلًا:

- نحن نتلكأ يا قائد الفرقة... نحن نتلكأ.

أجابه بافليتشينكو بوجوم:

- الفوج الثاني في طريقه سريعًا إلى مكان اللقاء طبقًا لأوامرك.

كرَّر فوروشيلوف:

- نحن نتلكأ يا قائد الفرقة.

ثم جذب زمامه بقوة، فتراجع بافليتشينكو عنه خطوة. ثم صاح فيه وهو يعتصر أصابعه الرطبة:

(١١٨) كليمنت فوروشيوف ١٨٨١ - ١٩٦٩ كان صديقًا مقربًا لستالين وأحد مؤسسي الجيش الأحمر.

– أستحلفك بضميرك... أستحلفك بضميرك لا تستعجلني أيها الرفيق فوروشيلوف.

– لا تستعجلني؟

هكذا تمتم كليم فوروشيلوف عضو لجنة الحرب الثورية وأغلق عينيه. كان جالسًا على جواده، بعينين مغلقتين. صمت، واضطربت شفتاه. حدَّق فيه أحد القوزاق بدهشة، وكان يرتدي صندلا وقبعة. أثارت الخيول ضجيجًا رهيبًا في الغابة كضجيج الريح، ساحقة العشب تحت أقدامها، سوَّى فوروشيلوف عرف جواده ببندقيته الماوزر، وصاح وهو يلتفت صوب بوديني:

– أيها القائد... ألق كلمة على قواتك قبل الهجوم. ها هو البولندي واقفٌ فوق الرابية كلوحة تنظر إليك ساخرة.

فى الواقع كان يمكن رؤية البولنديين عبر المنظار. امتطى المقاتلون جيادهم واحتشد القوزاق حول بوديني من كل اتجاه.

اقترب إيفان أكينفيف السائق السابق لعربة المحاكم الثورية من لحشد وصدمني بسرجه. قلت له:

– ما هذا؟ هل انضممت للصفوف يا إيفان؟ لكن لم يتبقَّ منك شيء!

– يكفيني ما تبقى منها. تعال لنسمع ماذا يقول.

تقدم بجواده وشق طريقه حتى اقترب من بوديني. ارتجف الأخير وقال بهدوء:

– أيها الرفاق... نحن في وضع سيئ. نحن في حاجة للنصر.

– إلى وارسو!

هكذا صاح القوزاقي المنتعل صندل، وقبعة فوق رأسه، والضراوة تلوح في عينيه، وقد لوَّح بسيفه في الهواء. حينها صاح فوروشيلوف هو الآخر:

– إلى وارسو!

ووقف جواده على قدميه الخلفيتين، ثم اندفع كالريح في قلب القوات، وصاح بحماسة:

– أيها المقاتلون.. أيها القادة... في موسكو عاصمتنا القديمة... نحن نناضل ضد قوة غير مسبوقة. أول حكومة عمال وفلاحين في العالم تأمركم الآن أيها القادة والمقاتلين أن تهاجموا العدو وتحققوا النصر.

– استلوا سيوفكم!

هكذا صاح بافليتشينكو من خلف القائد، وشفتاه القرمزيتان تلمعان وسط الصفوف. كان معطف القائد الأحمر القوزاقي ممزقًا، وقد تشوه وجهه الممتلئ، ثم أعطى التحية العسكرية لفوروشيلوف بحد سيفه الماضي.

قال قائد الفرقة السادسة لاهثًا ومحدقًا في من حوله:

– انصياعًا لقسمي وواجبي الثوري، أود أن أبلغ المجلس الحربي لفرقة الفرسان الأولى أن الفوج الثاني في طريقه إلى مكان اللقاء بأقصى سرعة ممكنة.

- حسنًا.... واصل.

هكذا أجابه فوروشيلوف ملوحًا بيديه، ثم جذب زمام الجواد، وتحرك بوديني معه. مضا كلاهما على جواده الطويل الضارب إلى الحمرة، يرتديان معطفين متماثلين، وسراويل زرقاء مزخرفة باللون الفضى. صاح المقاتلون وتحركوا من خلفهم، ولمع الصلب الشاحب في قيح شمس الخريف، لكني لم ألمس الإجماع في صيحات القوزاق، ودخلت أكثر إلى عمق الغابة صوب محطة التموين في انتظار الهجوم.

وجدت هناك أحد جنود الجيش الأحمر المصابين مستلقيًا في حالة هذيان شديدة، بينما كان القوزاقي المشاكس ستيبكا دوبليشيف ينظف "الإعصار"، وهو جواد أصيل لقائد الفرقة، وحسب ما دُوِّن في الدفاتر عنه فإنه من لوليوشا. كان الجريح يهذي عن امرأة تُدعى شويا، وعن بقرة صغيرة وبعض الخيوط الكتانية. أما دوبليشيف فانشغل بإنشاد أغنية حتى يتركه يهذي كما يشاء. كانت الأغنية عن جندي مراسلة وامرأة جنرال سمينة، وكان غنائه يتعالى أكثر فأكثر وهو يلوح بفرشاة الغسيل التي ينظف بها الجواد. قاطعته ساشكا... ساشكا البدينة، فتاة الفرقة كلها! اقتربت من الصبي بجوادها ثم قفزت من عليه إلى الأرض. قالت له:

- هل سنفعلها إذَنْ؟

أجابها دوبليشيف موليًا لها ظهره:

- ابتعدي عني.

وأخذ يجدل عرف جواده «الإعصار». حينها قالت ساشكا:

– هل ستثبت على حديثك يا ستيبكا أم أنك مجرد شخص تافه؟

– ابتعدي عني. سوف ألتزم بكلمتي.

كان قد جدل كل خصلات الشعر الموجودة في عرف الجواد، ثم صاح فيَّ فجأة بيأس:

– حسنًا يا كيريل فاسيليتش.. انظر كيف تضايقني هذه المرأة! لا يمكنك أن تتخيل ماذا كان عليَّ أن أتحمل طوال شهر كامل. أينما ذهبت وجدتها أمامي، وأينما توجهت اعترضت طريقي. طوال الوقت تريدني أن أتركها في جولة بهذا الجواد، بينما يقول لي القائد كل يوم «بصحبة جواد كهذا يا ستيبكا سيطلب منك الكثيرون أن تسمح لهم بامتطائه قليلًا، لكنك لا يمكنك أن تفعل ذلك قبل أن يبلغ الجواد الرابعة».

تمتمت ساشكا قائلة وهي تشيح بظهرها:

– أراهنك أنك لن تترك أحد يمتطيه حتى يبلغ الخامسة عشر.

ومضت صوب جوادها، وأمسكت بالزمام واستعدت للرحيل.

صلصلت المهاميز على حذائها طويل الرقبة، وكانت جواربها الرقيقة ملطخة بالأوساخ ومغطاة بالتبن، وتأرجح صدرها الهائل بقوة أثناء الحركة. قالت في نفسها وهي تهمز الجواد بحذائها استعدادًا للمغادرة:

– وأنا الذي أحضرت روبلًا فضيًّا معي! جئت به وسأعود به.

وأخرجت نصفي روبل جديدين، وأخذت تلعب بهما على راحة

يدها ثم أخفتهما ثناية بين ثنايا صدرها. حينها قال دوبليشيف دون أن يشيح ببصره عن العملات الفضية وقد اقتاد الجواد صوبها:

- أسنقوم بالأمر؟

اختارت ساشكا بقعة منحدرة ووضعت جوادها هناك. قالت لستيبكا وهي تقود «الإعصار» صوب البقعة المناسبة:

- يبدو أنك الوحيد الذي لديك جواد فحل غير مخصي. فرسي على الجبهة، ومنذ عامين لم تضاجع جوادًا، فقلت في نفسي لماذا لا تحظى بدماء جيدة؟

أنهى ساشكا عمله مع الجواد ثم اقتاد فرسها نحوه. همست ساشكا وهي تقبل فم فرسها الرطب المبقع، من حيث تبلل اللجام باللعاب:

- هيا يا حلوة... لقد نلنا مرادنا.

وأخذت تلامس بوجنتها فم فرستها، وتنصت بانتباه للضجيج الآتي من الغابة. قالت بصرامة والتفتت صوبي:

- الفوج الثاني في طريقه. علينا أن نرحل يا ليوتوف.

حينها صاح دوبليشيف والكلمات تقف في حلقه:

- ترحلين أو لا ترحلين أنا لا أبالي على الإطلاق. أعطيني أيتها الشيطانة المال من أجل الجواد.

تمتمت ساشكا وهي تعتلي فرستها:

- مالي سيظل معي دائمًا.

تبعتها وعدنا بجوادينا سريعًا، وصيحات دوبليشيف تلاحقنا وكذلك بعض الطلقات التي أطلقها.

- انظر ماذا فعلت!

هكذا كان الصبي القوزاقي يصيح وهو يركض بكل ما لديه من قوة في الغابة.

كانت الرياح تقفز بين الغصون كأرنب مجنون، بينما تندفع قوات الفوج الثاني بسرعة بين أشجار البلوط الجاليسيانية، وتتصاعد سحابة رقيقة من التراب من حركة المدافع فوق الأرض كما لو أنها تتصاعد فوق كوخ صغير في سلام. ثم نلنا الإشارة من القائد ليبدأ هجومنا الذي لا يُنسى على قرية تشيسنيكي.

* * *

بعد المعركة

فيما يتعلق بنزاعي مع أكينفييف، فقد حدث الأمر على النحو التالي:

في الواحد وثلاثين من الشهر تم الهجوم على قرية تشيسنيكي. احتشدت القوات في الغابة بالقرب من القرية، وفي السادسة مساءً انقضت على العدو. كان العدو في انتظارنا على تل مرتفع على بعد ٣ فرست. قطعنا هذه المسافة على جيادنا المنهكة إلى أقصى حد، وما إن وصلنا التل حتى رأينا حائطًا من الموتى... رأينا ثيابًا عسكرية سوداء ووجوه شاحبة. كانوا قوزاقًا قد خاننا في بداية الحرب مع البولنديين، واجتمعوا معًا تحت قيادة ياكوفليف. شكَّل قائد القوزاق قواته على شكل مربع وكان في انتظارنا وسيفه في غمده، وسنة ذهبية تلمع في فمه، ولحيته السوداء تستريح على صدره، كما لو أنها أيقونة فوق صدر جثمان أحد الموتى. أطلق العدو مدافعه من على بعد عشرين قدم، وتساقط المصابون من بين صفوفنا. سحقناهم أسفل جيادنا ونحن ننطلق صوب العدو، لكننا لم نستطع أن نلتف حول المربع الذي شكله العدو، وحينها بدأنا نهرب.

هكذا حقق قوزاق سافينكوف نصرًا قصير الأمد على الفرقة السادسة، وقد حققوا هذا النصر لأنهم لم يحولوا وجوههم عن جحافل عدوهم. صمد قائدهم هذه المرة ونحن الذين هربنا، دون أن نلطخ دماءنا بدماء العدو الخسيسة.

خمسة آلاف مقاتل... هربنا جميعًا عبر المنحدر دون أن نكون مطاردين من أحد، فقد ظل العدو فوق التل. لم يكن يثق في هذا النصر غير المحتمل الذي حققه، لذا لم يحسم أمره بمطاردتنا. هذا ما أبقانا على قيد الحياة، وهربنا عبر الوادي دون خسائر حيث كان مفوضنا العسكري فينوجرادوف في انتظارنا، يتخبط على فرسه وهو يحاول أن يعيد القوزاق الفارين إلى المعركة. عندما رآني صاح:

– ليوتوف! أعد هؤلاء الجنود إلى المعركة، وإلا انتزعت روحك منك!

انهال فينوجرادوف بمقبض بندقيته الماوزر على جواده المهتاج، وهو يجمع ويصيح في الجنود. فككت منه وتوجهت صوب جوليموف القرجيزي الذي لم يكن على مبعدة مني. صحت فيه:

– جاليموف... استدر بجوادك وهيا عد إلى هناك.

أجابني وهو يتنحى عني:

– عُد أنت بجوادك!

نظر إليَّ بعداء، وأطلق رصاصة لامست تقريبًا شعري فوق أذني.

تمتم جاليموف وهو يمسكني من كتفي:

- عُد أنت بجوادك.

وحاول أن يستل سيفه بيده الأخرى. كان السيف عالقًا في جرابه، فارتعش القرجيزي وأخذ ينظر حوله. أمسك بكتفي بقوة وأخذ يُقرِّب رأسه مني أكثر فأكثر، وكرَّر بصوت مسموع:

- تقدم أنت! وسوف أتبعك.

ودفع صدري بمقبض سيفه على نحو بسيط. شعرت بالدوار من اقتراب الموت وإحكام قبضته. دفعت وجه القرجيزي بعيدًا عني براحة يدي، وكان أكثر سخونة من حجر تحت أشعة الشمس، وحفرت بأظافري عميقًا على وجهه بقدر ما أستطيع. شعرت بقطرات الدماء الدافئة تنساب أسفل أظافري وتدغدغها، فابتعدت عن جوليموف لاهثًا كما لو أني قطعت طريقًا طويلًا. خبا جوادي -صديقي المخلص- بطيئًا وقد أنهِك إلى أقصى حد. مضيت دون أن أدري إلى أين... مضيت دون أن ألتفت حتى التقيت بفوروبيوف قائد الفرقة الأولى. كان يبحث عن ضباط الإيواء، لكنه لم يجدهم. وصلنا معًا إلى قرية تشيسنيكي، وجلسنا هناك على إحدى الدكك بجانب أكينفييف الحوذي السابق لعربة المحاكم الثورية. مرت ممرضة الكتيبة الواحدة والثلاثين من أمامنا، وجلس اثنان من القادة معنا على الدكة صامتين يغالبهما النعاس. أحدهما مصاب، يهز رأسه دون قصد، غامزًا بعين منتفخة. مضت ساشكا إلى المستشفى الميداني لتبلغ عن حالته، ثم عادت إلينا، وهي تجذب جوادها من خلفها، وكان الجواد يقاوم ويغرس قدمه في طين الأرض. قال فوروبيوف لها:

- إلى أين تبحرين إذَنْ؟

أجابته ساشكا وهي تضرب جوادها من عند البطن:

- لن أجلس معك.... لن أجلس معك!

صاح فيها فوروبيوف ضاحكًا:

- ماذا تعنين؟ أم أنكِ غيَّرتِ رأيكِ بشأن شرب الشاي مع الرجال؟

- غيَّرت رأيي فيما يخصك أنت!

والتفتت بظهرها للقائد، وألقت بالزمام بعيدًا وقالت:

- لقد غيَّرت رأيي يا فوروبيوف فيما يتعلق بشرب الشاي معك، بعد أن رأيت بطولتكم اليوم، وكم كنت مثيرًا للخزي أيها القائد!

تمتم فوروبيوف:

- وعندما رأيتِ ذلك لماذا لم تطلقي النار على العدو و...

- أطلق النار؟

هكذا صاحت ساشكا في يأس وهي تمزق الضمادة الطبية من يدها وتقول:

- بما كان يتوجب عليَّ أن أطلق النار؟ بهذه اليد المصابة؟

وهنا اقترب الحوذي السابق لعربة المحاكم الثورية أكينفييف منا، وكان لديَّ حساب لم أصفه معه. قال بلطف:

- لم يكن بإمكانكِ إطلاق النار يا ساشكا، ولا أحد يلومكِ، لكني ألقي بالذنب على أولئك الذين يتخبطون أثناء المعركة، ولا يستطيعون حشو مسدساتهم بالرصاص.

وصاح فيَّ فجأة، والاضطراب يشيع على وجهه:

– لقد كنت معنا في الهجوم، لكنك لم تضرب طلقة واحدة، فما السبب؟

– اغرب عن وجهي يا إيفان.

بهذا أجبته، لكنه لم يتنحَّ عني، بل اقترب أكثر، يتلوى كالمصروع، وقال وهو يدور على فخذه المصاب:

– صحيح أن البولنديين أطلقوا عليك النار، لكنك لم تطلق، فما السبب؟

أجبته بوقاحة:

– نعم... أطلقوا عليَّ النار ولم أطلق عليهم!

فهمس وهو يتراجع قليلًا:

– إذَنْ أنت جبان!

قلت له بصوت أعلى:

– إذَنْ أنا جبان، فما شأنك بذلك؟

صاح إيفان بوحشية:

– شأني أن تدرك جيدًا أنك جبان، فالجبان لديَّ يمكن أن نطلق عليه النار... ذلك الجبان الذي يؤمن بالله!

ولم يتوقف القوزاقي عن الصياح بشأن الجبناء واحتشد الناس من حوله. ابتعدت عنه لكنه ظل يطاردني، ثم ضربني بقبضته على ظهري، وهمس في أذني بصوت خفيض:

- لم تشحن مسدسك بالرصاص.

وحاول أن يمزق فمي بأصابعه الضخمة قائلًا:

- أنت تؤمن بالله أيها الخائن!

أخذ يمزق فمي بأصابعه، فدفعت هذا المصروع بعيدًا عني وضربته على وجهه. سقط أكينفييف على الأرض، وانهمرت منه الدماء بينما يتساقط.

في هذه اللحظة اقتربت منه ساشكا وثدياها يترجرجان أمامها. سكبت الماء على إيفان، وأخرجت سنًّا طويلًا مكسورًا كان يرتج داخل فمه كشجرة بتولا وسط طريق فارغ. قالت ساشكا:

- لا تفعل الديوك شيئًا سوى دق بعضها البعض بالفم. عندما أمر بيوم كهذا اليوم وأمور مثل تلك التي واجهناها، أشعر أني لا أريد شيئًا سوى أن أغمض عيني.

قالت ذلك بأسى واصطحبت إيفان معها، بينما أخذت أتسكع في قرية تشيسنيكي أسفل أمطار جاليسيانية لا تكل ولا تمل.

كانت القرية غارقة بالمياه، متورمة، يتدفق الطين من جروحها البليدة. لمع النجم الأول من فوق رأسي ثم غاب بين السحب. قرع المطر أشجار الصفصاف ثم خفت ضجيجه، وطار المساء صوب السماء كسرب طيور صغير، وتوَّجني الظلام بإكليله الندي. كنت منهكًا للغاية، أئن تحت ثقل إكليل الموت، فمضيت أتسول من القدر أن يمنحني أبسط قدرة ممكنة؛ القدرة على قتل إنسان!

أغنية

عندما استقر بنا الأمر في قرية بودياتيتشي، كان من نصيبي أن أقيم عند عجوز شريرة. كانت أرملة فقيرة. كسرتُ أقفالًا كثيرة داخل منزلها، لكني لم أجد أي طعام.

لم يتبق لي شيء سوى الدهاء والحيلة، فعدت ذات يوم مبكرًا وقت الشفق، ورأيت كيف كانت تغلق باب الموقد الذي كان لا يزال دافئًا. كانت رائحة حساء الشي تملأ الكوخ، وقد يكون هناك بعض اللحم داخل الحساء. شممت رائحة اللحم داخل حسائها فعلًا، فوضعت مسدسي على الطاولة لكن العجوز أنكرت كل شيء، ولاح الاضطراب العنيف على وجهها وعلى أصابعها القذرة، واكفهرت وهي تنظر إليَّ بخوف وكراهية عجيبة! لكن لم يكن من الممكن لشيء أن ينقذها من بين براثني، وكنت على وشك أن أجعلها تعترف تحت تهديد السلاح، لولا أن منعني عن ذلك ساشكا كونيايف، أو ساشكا المسيح كما نطلق عليه.

دخل الكوخ حاملًا أكورديونه الصغير، وقد ارتدت قدماه الرائعتان حذاءً مميزًا. وقال لي:

- لننشد أغنية!

ونظر إليَّ بعينيه الزرقاوين، الثلجيتين الناعستين.

- لننشد أغنية!

كرَّرها مرة أخرى وجلس على الدكة وبدأ في العزف. تصاعدت النغمات العميقة وتناهت إلى أذني كما لو أنها تأتي من بعيد، ثم توقف القوزاقي عن العزف، وملأ الاشتياق عينيه الزرقاوين. نظر إليَّ وعرف ما الذي يمكنه أن يرضيني، وبدأ في عزف أغنية كوبانية[١١٩]. أنشد قائلًا: «نجم الحقول... نجم الحقول الذي يمر فوق منزلي ويد أمي... نجم حزين!»...

كنت أحب هذه الأغنية، وكان ساشكا يعرف ذلك لأن كلينا سمعها للمرة الأولى في عام ١٩١٩ في قرية قوزاقية على ضفاف الدون تُدعى كاجالنيتسكايا. علمنا إياها صياد من هناك كان يصطاد داخل المياه المحمية كان يمكننا أن نرى بيوض السمك وعددًا هائلًا من أعشاش الطيور. كان السمك يتكاثر على السطح بأعداد مذهلة، حتى إن المرء كان بإمكانه أن يأخذ منه ما يشاء بأي قفة أو حتى بيده، وإن وضعت المجداف في الماء، فسيمسك به السمك ويأخذه بعيدًا. رأينا ذلك بأعيننا. لن ننسى أبدًا المياه المحمية في كاجالنيتسكايا. كافة السلطات قد حرَّمت الصيد هناك، وهي على حق في ذلك، ولكن في عام ١٩١٩ كانت الحرب في أوجها، وحينها قام ياكوف الصياد الذي كان يقوم بالصيد غير الشرعي

(١١٩) نسبة إلى مقاطعة كوبان.

داخل المياه المحمية بإعطاء ساشكا المسيح الذي كان ينشد للقوات أكورديونًا صغيرًا حتى نشيح بأبصارنا عن نشاطه غير الشرعي. هو من علَّم ساشكا أغانيه. كثير منها كانت أغنيات قديمة مفعمة بالعاطفة، ولذلك أشحنا ببصرنا عن صيده في المياه المحمية، فقد كنا في حاجة لأغانيه. وقتها لم يكن أحد يرى نهاية لهذه الحرب، وكان ساشكا وحده هو من يخفف من صعوبة الطريق بالأغاني والدموع. كان قدر دموي يتبعنا. رافقتنا الأغاني في طريقنا. هكذا كان الأمر في كوبان وفي حملاتنا ضد الخُضر[١٢٠]، وكذلك في الأورال وتلال القوقاز وحتى يومنا هذا. نحن في حاجة إلى الأغاني، فلا أحد يرى نهاية للحرب، وساشكا المسيح منشدنا ما زال لم يحن موعد موته بعد.

فى هذه الليلة أيضًا التي كشفت فيها غش السيدة العجوز المتعلق بالحساء واللحم، كان ساشكا هو من استطاع أن يُهدِّئ من حدة غضبي بصوته الناعم المؤثر. أنشد قائلًا: «نجم الحقول... نجم الحقول يسطع فوق منزل أبي، وأمي تمد يدها الحزينة».

استمعت له متمددًا في الركن على الفرشة المهترئة. اخترق الحلم عظامي، وبعثر التبن الفاسد أسفل جسدي، وعبر هذا الشلال الساخن المنهمر للحلم لم أكن أميز العجوز إلا بصعوبة بالغة. كانت تقف عند الحائط تُسند وجنتها الذاوية بيدها. أحنت رأسها ووقفت ساكنة تمامًا

(١٢٠) بعض المقاتلين الفارين من الجيش الإمبراطوري، وقد شكلوا مجموعات معًا. حاول البلاشفة (الحمر) والبيض (أنصار النظام القديم) أن يضموهما تحت جناحهما، وكان يُطلق عليهم الخضر؛ لأنهم كانوا يختبئون في الغابات.

عند الحائط، ولم تفارق مكانها إلا بعدما أنهى ساشكا غنائه. انتهى ساشكا ونحَّى الأكورديون جانبًا، وتثاءب، وانفجر في الضحك كما يفعل بعدما يستيقظ من نوم طويل، وعندما لاحظ الفوضى تعم كوخ الأرملة نظَّف الدكة مما يعتريها من قاذورات، وأتى بجردل مليء بالماء. حينها قالت له وهي تحك ظهرها في الباب وتشير لي:

- أرأيت يا حبيبي ماذا فعل رئيسك؟ لقد أتى إلى هنا ليصيح فيَّ ويدق الأرض بقدمه وينزع كافة الأقفال، ويصوب سلاحه إليَّ.... إنها خطيئة في حق الله أن يصوب سلاحه إليَّ، فأنا على أي حال امرأة!

ثم حكَّت ظهرها ثانية في الباب، وغطَّت ابنها بمعطف من جلد الغنم. كان الابن يغط في النوم أسفل الأيقونة على فراش واسع، مغطى ببعض الخرق والأسمال. كان الصبي أبكمَ أطرشَ، لا تفارق الرعشة جسده، وله رأس أبيض متورم وقدمان عملاقتان تشبهان قدما فلاح بالغ. جففت أمه أنفه القذرة وعادت إلى الطاولة. حينها قال لها ساشكا وهو يهز كتفيها:

- يا امرأة... إن كنتِ تريدين فيمكنني أن أعتني بكِ حقًّا.

لكنها بدت كما لو أنها لم تسمع كلمة منه. قالت له وهي تسند يدها على وجنتها:

- لم أرَ أي حساء شِي على الإطلاق. لقد فارقني الحساء، والناس لا يقابلونك سوى بالحساء، وحتى عندما يجيئني رجل لطيف، وتسنح لي الفرصة أخيرًا بالاستمتاع، أشعر أني حقيرة للغاية، فلا أستمتع حتى بالخطية!

أثار نحيبها الكآبة بداخلي، وتمتمت بشيء وهي تدير ابنها الأبكم الأطرش صوب الحائط. استلقى ساشكا بجانبها على الفراش المهترئ، بينما حاولت أن أغفو، وحاولت أن أنغمس في أحلام سعيدة لأنام وسط أفكار جميلة.

❊ ❊ ❊

ابن الحاخام

أتذكر جيتومير يا فاسيلي؟ أتذكر نهر تيتيريف يا فاسيلي، وهذه الليلة حينما زحف يوم السبت الفتى مع الغروب ساحقًا النجوم بعقبه الأحمر؟

نثر قوس القمر الرفيع أضواءه على صفحة مياه تيتيريف السوداء. أتذكر جيدالي المضحك مؤسس الإنترناشيونال الرابعة[١٢١]، حينما اقتادنا إلى الحاخام موتاليه براتسلافسكي لأداء الصلاة مساءً؟ ما زلت أذكره وهو يهز ريش قبعته الإسطوانية المصنوعة من التبن وسط دخان المساء الأحمر، بينما يغمز تلامذة الحاخام الحمقى بأعينهم في الغرفة، بينما يئن اليهود ذوو الأكتاف العريضة وهم مائلون على كتب الصلاة، ومهرج تشيرنوبيل[١٢٢] العجوز واقفٌ بين شيوخ الحسيديين يلعب بالعملات المعدنية داخل جيبه المهترئ ويتعالى طنينها.

أتذكر هذه الليلة يا فاسيلي؟ كانت الجياد تصهل خارج النوافذ، والقوزاق يصيحون. حينها تثاءبت الحرب خارج النافذة، وواصل

(١٢١) راجع قصة جيدالي.

(١٢٢) مدينة أوكرانية.

الحاخام موتالي براتسلافسكي الضغط على رداء الصلاة الخاص به بأصابعه القذرة وهو واقف صوب اتجاه الشرق يصلي، ثم هفهفت ستائر الغرفة، ورأينا تحت بريق لهيب الشموع الجنائزي مخطوة التوراة، ملفوفة بقماش أرجواني مخملي والحرير الأزرق، ومن فوق التوراة الوجه المذعن الهامد الرائع لإيليا ابن الحاخام، وهو العاهل الأخير من هذه السلالة!

اليوم هو الثالث يا فاسيلي منذ أن فتح الجيش الثاني عشر جبهة جديدة في كوفيل، ورعدت في المدينة أصوات مدافع المنتصرين المليئة بالازدراء. ارتجفت قواتنا وزحفت إليها الفوضى. زحف قطار البوليت أوتديل وسط الحقول الميتة، وفي إثره حشد المقاتلين من الفلاحين المصابين بالتيفوس يدفعون أمامهم نعشًا كالمعتاد به جثة جندي. كانت حشود القوات تركض خلف آثار القطار، ويتساقط الأفراد ويتعرضون للضرب بأعقاب البنادق. تقدمت القوات للأمام لاهثة في صمت. بعد أن قطعوا اثني عشر فرست، وعندما لم يعد لديَّ المزيد من البطاطس لألقي بها إليهم، ألقيت لهم حزمة من أوراق تروتسكي، لكن واحدًا منهم فقط هو من تناول حزمة الأوراق بيده القذرة الميتة. عرفته.. إنه إيليا... ابن حاخام جيتومير. عرفته على الفور يا فاسيلي. كان أمرًا مؤلمًا للغاية أن أرى هذا الأمير وقد فقد سرواله، وظهره يكاد يتحطم من ثقل حقيبته العسكرية حتى إننا خالفنا الأوامر وجذبناه معنا إلى عربة القطار. ركبتاه عاريتان واهنتان كركبتي عجوز، تصطكان بدرجات العربة المعدنية الصدئة. تولى اثنان من الكتبة ممتلئًا الجسد

ذوو السترات الزرقاء البحرية جذب جسده الواهن الطويل. وضعناه في ركن قسم التحرير بالقطار. قام بعض القوزاق الذين يرتدون سراويلَ عسكرية حمراء بتعديل ثيابه قدر الإمكان، بينما حدقت الآنسات ذوات السيقان المتقوسة البليدة في أعضائه الجنسية ببرود.. تلك الأعضاء الهزيلة المجعدة لهذا الرجل الذي ينحدر من الجنس السامي. أما أنا الذي شاهدته ذات يوم في ليلة من ليالي التسكع، أخذت أجمع أغراض الجندي الأحمر إيليا براتسلافسكي في صندوقي الخاص.

وضعت كل أغراضه معًا بلا ترتيب: أوراق الأوامر العسكرية، وكذلك تذكارات الشاعر اليهودي. استلقى لينين وموسى بن ميمون بجانب بعضهما البعض... تمثال معدني لوجه لينين، بجانب صور فاترة لموسى بن ميمون من خيوط الحرير. كانت هناك أيضًا خصلات شعر نسائية موضوعة داخل كتاب توصيات مؤتمر الحزب السادس، وسطور ملتوية بالكتابة العبرية القديمة داخل منشورات شيوعية. شعرت بقطرات المطر الحزينة الشحيحة تتساقط عليَّ عندما رأيت صفحات من سفر نشيد الأنشاد بجانب ذخيرة مسدس. غسلت قطرات الأمطار التراب العالق بشعري، وقلت للشاب الواهن الراقد على فرشة رثة في ركن الغرفة:

– منذ أربعة شهور مضت في مساء أحد أيام الخميس، اصطحبني جيدالي العجوز إلى أبيك الحاخام موتالي، لكنك وقتها لم تكن بالحزب يا براتسلافسكي.

أجابني الصبي وهو يخمش صدره بأظافره ويتلوى من فرط الحمى:

- كنت وقتها في الحزب، لكني لم أستطع حينها أن أفارق أمي.

- والآن يا إيليا؟

همس قائلًا:

- أصبحت أمي جزءًا من الثورة، ثم جاء خطابي... الخطاب «ب»، وأرسلني الحزب إلى الجبهة.

- وانتهى بك الأمر في كوفيل يا إيليا؟

حينها صاح في يأس:

- انتهى بي الأمر في كوفيل! الكولاك الملاعين هم من فتحوا هذه الجبهة. توليت قيادة قوات مختلطة، لكن الوقت كان قد تأخر. لم يكن لديَّ ما يكفي من الذخيرة.

مات إيليا قبل أن يصل إلى روفنو. مات الأمير الأخير بين أوراق شعره وتمائمه وأسماله. دفناه في محطة مهجورة، وكنت أنا من صاحبت أخي وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة... أنا الذي بالكاد يمكنه أن يقبل في جسده العجوز سكنى عواصف خيالاته!

* * *

جريشوك

انتهت رحلتنا الثانية إلى القرية على نحو سيئ. مضينا إلى هناك لنحصل على بعض العلف، وعدنا في منتصف اليوم. كان ظهر جريشوك يهتز بهدوء على مرأى من عيني. قبل أن نصل مباشرة إلى القرية ترك العنان من يده بحذر، وتنهد، وأخذ ينزلق في جلسته. استلقى على ركبتي ومدَّد جسده بطول العربة. ارتجت رأسه الباردة بهدوء، وخطت الجياد بخطوات بطيئة، وغطى جريشوك وجهه بقطعة قماش صفراء صغيرة كالكفن ليستريح.

– لم أتناول شيئًا.

كانت هذه إجابته على صيحتي الفزعة وهو يغمض عينيه المنهكتين.

هكذا مضينا نحو القرية، وجسد الحوذي يرتج بطول العربة.

عندما وصلنا إلى المنزل أطعمته بعض الخبز والبطاطس. تناول طعامه بتكاسل شديد، فكان يغفو ويهز نفسه ليفيق ثانية، ثم خرج إلى منتصف الردهة، وبسط يديه ونام على الأرض ووجهه إلى أعلى.

قلت له متنهدًا:

- إن لم تقل لي شيئًا، فكيف يمكنني أن أساعدك في ألمك يا جريشوك؟

ظل صامتًا، وأدار ظهره صوبي. لم أعرف شيئًا إلا عندما اكتنفنا الليل ونمنا معًا على التبن نستدفئ ببعضنا البعض، وحينها عرفت فصلًا من حكايته البكماء.

عمل بعض الأسرى الروس ببناء التحصينات الألمانية على ساحل البحر الشمالى. إبان وقت الحصاد جمعوهم معًا وأرسلوهم للعمل في قلب ألمانيا. أرسلوا جريشوك إلى أحد المزارعين المجانين، وكان يعيش وحيدًا. جنونه كان في صمته الدائم. علَّم جريشوك بالضرب والجوع أن يفهم ما يريده منه بالإشارات. مضت أربعة أعوام وهما يعيشان في صمت وسلام، ولم يتعلم جريشوك اللغة الألمانية لأنه ببساطة لم يسمعها. بعد اندلاع الثورة الألمانية[١٢٣] عاد إلى روسيا. ودَّعه سيده حتى أطراف القرية. توقفا عند الطريق الرئيس، وأشار الألماني إلى كنيسته... إلى قلبه... إلى الأفق الأزرق الفارغ الواسع بلا حدود. أمال رأسه الشعثاء الشيباء المجنونة على كتف جريشوك. احتضنا بعضهما في صمت لبرهة، ثم لوَّح الألماني بيديه، وعاد سريعًا إلى منزله بخطوات واهنة متعثرة.

* * *

(١٢٣) المقصود الثورة التي اندلعت في نوفمبر ١٩١٨ ولم يحالفها النجاح.

أرجاماك

قررت الالتحاق بالصفوف على الجبهة. التوت قسمات وجه قائد الكتيبة عندما سمع عن الأمر. قال لي:

– إلى أين تخال نفسك ذاهبًا؟ إن فتحت فمك هناك سيقضون عليك في لمح البصر.

أصريت على موقفي. لم أكتف بذلك. وقع اختياري على أكثر الكتائب انغماسًا في المعارك؛ الكتيبة السادسة. ألحقوني بالفوج الرابع والفرقة الثالثة والعشرين من الفرسان. كان الفوج تحت قيادة باولين، وهو ميكانيكي سابق بمصنع ببريانسك، وهو صغير العمر ... صبي تقريبًا، وقد أطلق لحية ليبدو أكبر عمرًا، وتلوح فيها بعض الشعيرات الرمادية. حتى بلوغه الثاني والعشرين من العمر لم يظهر ما يكدر من صفوه. أثبتت هذه الخاصية الموجودة في آلاف ممن يدعون «باولين» أنها كانت سببًا هامًّا من أسباب انتصار الثورة. كان باولين إنسانًا صلبًا عنيدًا لا يوافق بسهولة على أي شيء، وكان مصيره قد حُسِم، ولم تساوره أي شكوك بشأن صواب هذا الطريق. لم يجد صعوبة في الحرمان من شيء، فهو يمكنه حتى أن ينام واقفًا. كان ينام وهو يسند يدًا

على الأخرى، وعندما يستيقظ لا يمكن أن نلاحظ اختلافًا واضحًا بين نومه ويقظته.

لم يكن أحد يعمل تحت إمرته ويتوقع أن يُبدي له باولين أي رحمة. بدأت خدمتي معه بنجاح كبير ملحوظ، فقد منحوني جوادًا. لم تكن هناك أي جياد، لا لدى قوات الاحتياط ولا لدى الفلاحين. كان الأمر بمحض الصدفة. قام تيخومولوف القوزاقي بقتل اثنين من الضباط الأسرى دون إذنٍ. كان قد حصل على أمر بمرافقتهما إلى القيادة، فمن الممكن أن يحصلوا هناك من الضباط على معلومات قيمة، لكن تيخومولوف لم يصل بهما إلى هناك، وقرَّر القوزاق محاكمته أمام المحاكم الثورية، ثم غيَّروا رأيهم، فقد توصل القائد باولين إلى عقوبة أصعب من أي عقوبة يمكن للمحاكم الثورية أن تأمر بها. لقد استولى على جواد تيخومولوف المدعو أرجاماك، وأرسل تيخومولوف إلى قطار النقل.

لا يمكن لأحد أن يتحمل العذاب الذي عانيته ذات مرة مع أرجاماك. أتى تيموخولوف بالجواد من المنزل. كان الجواد مدربًا على الخبو على الطريقة القوزاقية، وعلى عدوة قوزاقية محددة، سريعة ومفاجئة وصعبة. كانت خطوة أرجاماك طويلة ممتدة عنيدة. خرج بي من الصف بهذه الخطوة الشيطانية، ووجدت نفسي قد ابتعدت عن القوات، وفقدت قدرتي على التوجيه، وهمت بعدها ليوم كامل بحثًا عن الاتجاه الصحيح، لينتهي بي الأمر في أرض العدو، وقضيت ليلتي عند الوادي، وقد حاولت أن أتمكن من المكوث هناك رغم أنه قرب العدو، لكني لم أنجح في ذلك، فقد طردوني من هناك. كل ما تعلمته

بشأن الفروسية كان بسبب أني إبان الحرب الألمانية[١٢٤] خدمت في وحدة مدفعية مصاحب للكتيبة الخامسة عشر. قضينا أغلب الوقت عند عربات الذخيرة، ونادرًا ما شاركنا في الغارات. لم يكن بإمكاني أبدًا أن أتواءم مع قسوة وسرعة وعنف حركة أرجاماك. لقد ورَّث تيخومولوف جواده كافة عفاريته. كنت أرتج كشوال فوق متن الجواد الطويل العنيد. حطَّمت ظهره بعنف، وما زالت أماكن القرح بادية على ظهره، يتغذى عليها ذباب يبدو كما لو كان معدنيًّا. أحاطت الدماء السوداء بخاصرتي الجواد. هذه الضربات العاجزة التي وجهتها له جعلته يتعثر في خطوه، وتورمت أقدامه الخلفية فبدأت تصطدم بسير العربة، فزاد تورمها حتى أصبحت كقدمي فيل. وهن أرجاماك بشدة، ولاحت لهيب خاص في عينيه.. لهيب جواد معذب... لهيب الجنون والعناد، ولم يعد يقبل أن أسرجه.

قال قائد الكتيبة:

- يبدو أنك قضيت على هذا الجواد ذي الأربع أعين!

ولم يقل القوزاق شيئًا في حضوري، لكنهم أعدوا أنفسهم من خلف ظهري كما تفعل الحيوانات المفترسة بهدوء بليد غدَّار. لم يطلبوا مني حتى بعدها أن أكتب إليهم الخطابات كما كانوا يفعلون سابقًا.

استولى جيش الفرسان على نوفوجراد فولينسك. في غضون يوم كان علينا أن نقطع مساحة تتراوح بين ستين وثمانين كيلو مترًا. اقتربنا

(١٢٤) المقصود: الحرب العالمية الأولى.

من روفنو، وأُلغيت أيام الراحة. في كل ليلة يراودني الحلم ذاته. أندفع سريعًا على متن أرجاماك، وهناك نيران مشتعلة على جانب الطريق، والقوزاق يعدون لأنفسهم الطعام. أمر بالقرب منهم، وهم لا يرمقونى بنظرة واحدة. قليل منهم يلقي عليَّ التحية، ولا ينظر لي الآخرون على الإطلاق فأنا لا أثير انتباههم. ماذا يعني ذلك؟ إن لا مبالاتهم تشير إلى أنه ما من شيء مميز على وجه الخصوص في عدوي بالجواد. أقود الجواد كما يقود الآخرون، لذا فما من شيء يجعل الآخرين ينظرون إليَّ. أعدو سريعًا بالجواد والسعادة تغمرني. إن عطشي إلى الشعور بالسعادة والسلام لم يكن يُسدَّد أبدًا إبان اليقظة، وهذا ما يزيد من قوة أحلامي.

لم يكن هناك أثر لتيخومولوف. كان يراقبني من مكان ما على أطراف الحملة، مع حركة العربات الخرقاء المليئة بالأسمال.

ذات يوم قال لي قائد الكتيبة:

– باشكا تيخومولوف يتساءل طوال الوقت ما خطبك.

– وما مشكلته معي؟

– يبدو أن لديه مشكلة معك.

– هل يعتقد أني قد أسأت إليه؟

– ولماذا يظن ذلك؟

– يبدو أنك قد فعلت ذلك.

تبعتني كراهية باشكا عبر الغابات والأنهار. شعرت بها تلامس

جلدي، وارتجفت. ثبَّت عينيه الداميتين على تحركاتي. سألت باودين:

- لماذا تعتبرني عدوًّا لك؟

عبر بالقرب مني متثائبًا، وقال دون أن يلتفت إليَّ:

- إنها مشكلتك أنت.

التئمت جروح أرجاماك قليلًا، ثم تفتحت ثانية. وضعت ثلاث بطانات أسفل السرج، ورغم ذلك لم أستطع أن أقوده على نحو سليم، فالجروح لم تلتئم. كنت أشعر بالضيق من معرفتي أني جالس على جروح مفتوحة.

كان هناك أحد القوزاق من كتيبتنا، لقبه: بيزيوكوف، صديقًا لتيخومولوف، وكان يعرف أبوه هناك في تيريك. قال لي ذات مرة:

- أبو باشكا يحب تربية الجياد، وهو فارس مغوار حقًّا. ينظر قطيعًا من الجياد، ويختار جوادًا، فيأتون إليه به على الفور. يقف في مواجهة الجواد مباشرة على قدمين ثابتتين ويحدق فيه. ما الذي يحتاجه الجواد؟ هذا ما يحتاجه... ويسدد ضربة بين عينيه، فينتهي أمر الجواد. لماذا قضيت على الجواد يا كاليسترات؟ يقول: لديَّ رغبة شديدة في امتطاء هذا الجواد، لكن ذلك ليس مقدرًا لي... أقول لك إنه فارس مغوار حقًّا.

وها هو أرجاماك الذي تمكن من البقاء حيًّا مع أبي باشكا الذي اختاره، قد انتهى أمره بين يديَّ. كيف يمكن أن ينتهي الأمر؟ وضعت كثيرًا من الخطط، ولكن الحرب حرَّرتني من عبء التفكير.

هاجم جيش الفرسان روفنو، واستولى على المدينة فعلًا. قضينا

فيها يومين كاملين، وفي الليلة التالية اشتبكوا معنا بهدف إعطاء الفرصة لقواتهم بإتمام الانسحاب. نجحت مناوراتهم، واستطاعوا الاحتماء بالإعصار والمطر المنهمر بقوة، والعاصفة الرعدية الصيفية الشديدة التي غمرت العالم بأمطار سوداء. فارقنا المدينة ليوم كامل. خلال هذه المعركة الليلية خسرنا دونديتش الصربي أشجع الشجعان. في خلال هذه المعركة أيضًا قاتل باشكا تيموخولوف. هجم البولنديون على قافلة النقل خاصته. كان المكان مسطحًا ولا يوجد ما يمكن الاحتماء به. وضع باشكا العربات على صف هجوم لا يعرفه أحد سواه. لا بد وأنها الطريقة التي كان الرومان يرتبوا بها عرباتهم. تبقى مع باشكا مدفع رشاش. لا بد وأنه قد استولى عليه في وقت ما وأخفاه لحين الضرورة. بهذا المدفع صدَّ الهجوم الذي شُنَّ عليه، وأنقذ المؤن، وخرج بالقافلة كلها سالمة عدا عربتين فقط أصاب الرصاص جيادهما.

بعد هذه المعركة بعدة أيام قالوا لباولين في مقر القيادة:

– هل تنوي أن تعاقب المقاتلين؟

– لا بد وأن يكون هناك سبب واضح... أليس كذلك؟

– احذر... ستورط نفسك.

لم يعلن العفو عن باشكا، لكننا علمنا أنه عائد لا محالة. عاد فعلًا إلينا يرتدي كلوشه على قدميه العاريتين. كانت أصابعه مبتورة، وتظهر مكانها ضمادات متسخة. كانت الضمادات تتدلى من قدمه وكأنها رداء يتدلى من صاحبه. وصل باشكا إلى قرية بوداتيتشي، وظهر في الميدان أمام الكنيسة حيث ربطنا جيادنا. كان باولين جالسًا على عتبة الكنيسة

غامرًا قدميه في دلو مليء بالماء. كانت أصابع قدميه قد تعفنت. بدت الأصابع وردية اللون، كلون الحديد قبل أن يُطرق لدى الحداد. انزلقت خصلة شعر صغيرة كتانية على جبهته. أشعَّت بناية الكنيسة وقرميدها بحرارة الشمس الساخنة. كان بيزياكوف واقفًا بحانب باولين، واضعًا في فمه سيجارة أشعلها. مضى تيخومولوف ومن خلفه قافلته المهترئة صوب الجياد، وتمرغ كلوشه في الوحل. مدَّ أرجاماك عنقه الطويل، وصهل استقبالا صاحبه، بصوت خفيض مستغيثًا كما يفعل جواد في الصحراء، وظهرت بوضوح رائحة قرحه المتعفنة الموجودة بين ثنايه لحمه الجريحة. وقف باشكا بجانب الجواد، ثم قال فجأة بصوت مسموع:

– هكذا الأمر إذَنْ؟

فتقدمت إلى الأمام وقلت له:

– دعنا نتصالح يا باشكا. أنا سعيد بعودة الجواد إليك، فأنا لا أستطيع التعامل معه. أتصالحني؟

قال قائد الكتيبة من خلفي والسيجارة في فمه:

– لم يحن بعد موعد عيد القيامة حتى يتصالح الناس.

كان سرواله مفكوكًا، وقميصه مفتوح يلوح من خلفه صدره النحاسي، وهو جالس على عتبة الكنيسة. ثم تمتم بيزيوكوف رفيق تيخومولیكوف الذي يعرف والده كاليسترات.

– هيا تصالح معه يا باشكا، وقبِّله ثلاث مرات[١٢٥]. إنه يرغب في ذلك.

كنت وحدي وسط أولئك الناس الذين لم أستطع أن أحظى بصداقتهم. ظل باشكا واقفًا أمام جواده كما لو أنه مغروس في الأرض، بينما كان أرجاماك يتنفس بقوة وحرية، ويمد وجهه صوب صاحبه.

كرر القوزاقي:

– هكذا الأمر إذَنْ؟

ثم التفت صوبي بحدة وقال بحسم:

– لن أتصالح معك.

ومضى يجر كلوشه في الشارع الجيري المطفي، وضمادات قدمه تمتلئ بتراب الميدان القديم. تبعه أرجاماك كالكلب خلف صاحبه، والزمام يتأرجح أسفل فكه، وقد انحنى عنقه الطويل صوب الأسفل، وواصل باولين نقع قدمه المتعفنة ذات اللون الوردي الذي يشبه لون الحديد قبل أن يطرق في الدلو.

قلت للقائد:

– لماذا تعاملني كعدو؟ ما الذنب الذي ارتكبته؟

أجابنى قائلًا:

– يمكنني أن أفهمك جيدًا... أفهمك تمامًا. ما تسعى إليه هو أن

(١٢٥) عادة روسية حيث يقبل الفردان بعضهما ثلاث مرات "باسم الآب والابن والروح القدس" دلالة على الصداقة.

تعيش دون عداوات... هذا كل ما تتمناه.

تمتم بيزيوكوف وهو يلتفت بعيدًا:

- تصالح معه.

لاحت بقعة حمراء متوقدة فوق جبهة باولين، والتوت قسمات وجهه، وقال لي بصوت لاهث:

- سينتهي بك الأمر على هذا الحال إلى الشعور بالملل. عليك اللعنة!

اضطررت إلى فراق الكتيبة. انتقلت إلى كتيبة القائد (ب)، ومضت الأمور هناك على نحو أفضل. مهما كان الأمر فقد علمني أرجاماك طريقة فروسية تيخومولوف. مرت شهور، وتحقق حلمي. توقف القوزاق عن ملاحقتي أنا وجوادي بنظراتهم.

* * *

القبلة

في بداية شهر أغسطس أرسلتنا قيادة الجيش إلى بودياتيتش من أجل إعادة تشكيل الصفوف. كان البولنديون قد استولوا عليها في بداية الحرب، لكننا سريعًا ما استعدناها. اقتحمت فرقتنا القرية فجرًا، ووصلت أنا إليها ظهرًا. انتهت سريعًا أماكن الإقامة الجيدة، وانتهى بي الأمر للسكن في شقة أحد المدرسين. كان عجوزًا مقعدًا، يجلس على مقعده في غرفة واطئة بين دلاء مليئة بثمار الليمون، يرتدي قبعة تيرولية مزينة بريشة، بلحية رمادية تصل إلى صدره، مليئة برماد السجائر. عيناه تومضان وتغمزان، فيبدو كما لو أنه يريد شيئًا. اغتسلت وغادرت صوب مقر القيادة، ولم أعد سوى في المساء. أعد لي جندي الخدمة ميشكا سوروفتسيف تقريرًا كاملًا عن الوضع، وهو قوزاقي حاذق من أورينبرج. تبين أن العجوز ليس وحده هنا، فهو بصحبة ابنته يليزافيتا ألكسيفينا توميلينا، وابنها الذي يُدعى هو الآخر ميشا البالغ من العمر خمسة أعوام. الابنة أرملة لضابط قد قضى نحبه في الحرب الألمانية، وهي امرأة محترمة، ولكن طبقًا لسوروفتسيف، فإنها سوف تمنح نفسها للشخص المناسب.

- يمكنني ترتيب الأمر.

قالها ومضى إلى المطبخ، وتعالت هناك أصوات الأطباق، وكانت تساعده في أعمال المطبخ. بينما هما منشغلان في إعداد الطعام ظل سوروفتسيف يحكي لها عن شجاعتي، وكيف طرحت ضابطين بولنديين في المعركة، وكم تحترمني السلطة السوفييتية. استجابت له توميلينا وبادلته الحديث بصوتها الهادئ المتحفظ، ثم سألها سوروفتسيف عند الانصراف:

- أين تنامين؟ حري بكِ أن تنامي بالقرب منا نحن الأحياء.

وأتى إليَّ ببيض مطهو في طبق ضخم ووضعه أمامي على الطاولة. ما إن جلس حتى قال:

- إنها موافقة، لكنها لم تعلنها بعد.

في هذه اللحظة تناهت إلى آذاننا أصوات همس وخطوات حذرة في المنزل. لم يتسنَّ لنا الوقت كي نتناول طعامنا، فقد دخل المنزل بعض الكهول على عكاكيزهم، وبعض العجائز يرتدين أوشحة حول رؤوسهن. جروا فراش ميشا الصغير إلى غرفة الاستقبال حيث غابة الليمون بجوار مقعد العجوز. هؤلاء الضيوف العجائز كانوا على استعداد للدفاع عن شرف يليزافيتا ألكسيفنا، وقد احتشدوا معًا كقطيع من الغنم في أجواء سيئة، وسدَّوا الباب بالمتراس، وظلوا طوال الليل يلعبون الورق ويثيرون ضجيجًا مزعجًا، ثم يصمتون قليلًا بعد تعالي الهمسات. لم أستطع النوم من فرط الإحراج والارتباك، وانتظرت شروق الشمس.

عندما التقيت بتوميلينا في الردهة قلت لها:

- ليكن في علمك... ليكن في علمك أني تخرجت من كلية الحقوق، وأني واحد من أولئك المدعوين «طبقة المثقفين».

تسمرت في مكانها، وذراعاها يتدليان من جسدها، وكانت ترتدي رداءً منزليًّا قديم الطراز مشدودًا على خصرها الضيق. نظرت إليَّ مباشرة دون أن تطرف بعينيها الزرقاء والدموع تلمع داخلها.

بعد مرور يومين كنا قد أصبحنا أصدقاء. عاشت أسرة المعلم في جهل وخوف لا حد لهما.. لقد كانت أسرة أناس طيبين ضعفاء. أوحى إليهم بعض الموظفين البولنديين أن روسيا قد غزتها البربرية، وأحرقتها النيران، كما حدث ذات يوم في روما. تملكتهما فرحة طفولية مشوبة بالخوف عندما حكيت لهما عن لينين وعن موسكو ومسرحها الفنى... موسكو التي يتشكل فيها مستقبل جديد. في المساء كان يزونا جنرالات بلاشفة يبلغون من العمر اثنين وعشرين عامًا، ذوو لحيات حمراء شعثاء. كنا ندخن سجائر موسكوفية، ونتناول العشاء الذي تعده يليزافيتا ألكسيفنا من المؤن العسكرية التي نزودها بها، وننشد أغاني الطلبة. يستمع العجوز على مقعده إلى تلك الأغاني بنهم، وتهتز قبعته التيرولية على إيقاع الأغنية. عاش العجوز طوال هذه الأيام على أمل مفاجئ غامض عاصف، وحتى لا يعكر شيء من صفو سعادته حاول ألا يلحظ شيئًا فينا من الدهاء والتعطش للدماء والبساطة الذين كنا نحسم بهما كل الأمور في العالم في هذا الوقت.

بعد أن أحرزنا النصر على البولنديين، قرَّرت العائلة أن تنتقل إلى

موسكو، فهناك يمكننا أن نعالج العجوز عند طبيب شهير، ويمكن ليليزافينا أن تدرس في موسكو، أما ميشا فسوف نرسله إلى تلك المدرسة التي ذهبت إليها أمه ذات يوم في باتريارخي برودي. كنا متيقنين أن المستقبل لنا بشكل قاطع، وأن الحرب ما هي إلا نوع من الإعداد العاصف للسعادة؛ تلك السعادة التي تشكل العامل الأهم في شخصيتنا. لم يتبق شيء لنحسمه سوى التفاصيل الدقيقة، وكنا نقضي الليالي في مناقشتها... تلك الليالي العظيمة التي كانت تومض فيها بقايا الشمع السائل على زجاجات الخمر العكرة. كانت يليزافيتا ألكسيفنا تستمع إلينا في صمت. لم أرَ أبدًا من قبل مخلوقًا أكثر قلقًا وحرية وخوفًا منها. كان سوروفتسيف الماكر يقودنا في الأمسيات في السيارة الصغيرة التي استولى عليها في كوبان إلى الرابية حيث يلمع المنزل البعيد لآل جونسيروفيسكي تحت لهيب الغروب. وتركض الجياد النحيلة لكن الأصيلة في الوقت ذاته بأعنتها الحمراء، ويخفق القرط المستهتر في أذن سوروفتسيف، وتلوح الأبراج العالية من بقعة غطتها الزهور الصفراء. رسمت الحوائط المهدمة خطًّا متقوسًا متورمًا بلون الدم على صفحة السماء، وأخفت شجيرات النسرين ثمارها، ولمعت تلك الدرجة الزرقاء المتبقية من السلم، الذي كان يصعد عليه الملوك البولنديون ذات يوم. ذات مرة كنا جالسين هناك، وجذبت إليَّ رأس يليزافيتا ألكسيفنا، وقبلتها. ابتعدت عني ببطء، ونهضت من مكانها واستندت على الحائط. ظلت واقفة دون حركة، ورأيت شعاعًا مغبرًا من الضوء متوهجًا حول رأسها الدائخة، ثم جفلت وكأنها تستمتع

لشيء ما. رفعت تومولينا رأسها، وابتعدت عن الحائط، ومضت تحث الخطى... ركضت تهبط الرابية. ناديت عليها لكنها لم تجبنى. بالأسفل رأينا سوروفتسوف بوجنته الحمراء ممددًا بطول العربة. في المساء، وعندما مضى الجميع للنوم تسللت إلى غرفة يليزافيتا ألكسيفنا. كانت منهمكة في القراءة، والكتاب بعيد عنها بطول يدها. استندت يدها على الطاولة وبدت كما لو أنها ميتة. طرقت الباب فالتفتت صوبه ونهضت من مكانها. قالت وهي تنظر إليَّ وتمد ذراعيها الطويلين العاريين وتمسك وجهي بيديها:

– لا... لا يا عزيزي.

ومنحتني قبلة طويلة صامتة بدت وكأن لا نهاية لها. أبعدنا صوت الهاتف في الغرفة المجاورة عن بعضنا البعض. كان أحد الضباط من القيادة. قال لي:

– نحن ننسحب. احضر حالًا عند قائد الفرقة.

ركضت سريعًا إلى هناك وأنا أرتب أوراقي دون حتى أن أرتدي قبعتي. رأيتهم يخرجون الجياد من الساحة، وتتعالى صيحات الفرسان في الظلام. قال لي قائد الفرقة وهو يربط أزرة معطفه أننا عرفنا أن البولنديين يخترقون الآن الجبهة بالقرب من لوبلين، وأن الأوامر قد صدرت لنا بالقيام بمناورة جانبية. سوف تنتظم كافة القوات في غضون ساعة. تتبَّعني العجوز المستيقظ لتوه بنظراته بقلق شديد عبر فروع شجر الليمون. قال لي وهو يهز رأسه:

– قل لي أرجوك إنك ستعود.

أما يليزافيتا ألكسيفنا فقد ارتدت سريعًا معطفها فوق رداء منزلها المصنوع من الباتسيستا، وخرجت لتودعنا حتى الشارع بالخارج. أسرعت القوات في قلب الظلام. عند منعطف الطريق صوب الحقل استدرت، ورأيت يليزافيتا توميلينا تنحني على صبيها الواقف أمامها تُعدِّل له من ثيابه، والضوء المرتعش المشتعل على حافة النافذة يلمع فوق عظام مؤخرة رأسها الرقيقة.

قطعنا مائة كيلو متر دون أن نحظى براحة حقيقية، واجتمعنا في مقر الفرقة الرابعة عشر، وانخرطنا في القتال والانسحاب. كنا ننام فوق متون جيادنا، وعندما كنا نستريح كنا نتساقط على الأرض ونربط الجياد بحبل إلى أقدامنا، فتجذبنا ونحن نيام صوب الحقول. حلَّ الخريف، وانهمرت الأمطار الجاليسيانية بصوت خفيض. كنا نجتمع في مجموعات صامتة غير منظمة، ونراوغ وندور، وأحيانًا نجد أنفسنا محاطين بالبولنديين، ولكن سرعان ما نراوغهم ونهرب ثانية. فارقنا شعورنا بالوقت. عندما خيَّمنا ذات ليلة في كنيسة توشينسكي لم ألحظ أننا على بعد ١٠ فرست فقط من بودياتيتشي. ذكَّرنى سوروفتسيف وتبادلنا النظرات. قال بمرح:

– المشكلة أن الجياد منهكة للغاية. لولا ذلك لمضينا إلى هناك.

أجبته قائلًا:

– مستحيل أن نمضي ليلًا. سيلاحظون غيابنا.

ومضينا فعلًا... ربطنا على سروجنا هدايا للضيوف... أخذنا معنا بعض السكر، ومعطفًا من الفرو، وحملًا حيًّا يبلغ من العمر أسبوعين. شققنا طريقنا عبر الغابة الندية المرتجفة، وتاهت نجمة فولاذية فوق

قمم أشجار البلوط. وصلنا إلى القرية في أقل من ساعة، ووجدناها قد احترقت تمامًا من مركزها، وامتلأت بعربات شاحبة من الغبار الذي يغطيها، وبمدافع وعدد جياد مكسورة. لم أهبط من على متن جوادي وطرقت على نافذة معينة. طارت سحابة بيضاء عبر الغرفة. خرجت تومولينا إلى الردهة بالخارج بنفس الرداء المصنوع من الباتيستا برباطها المفكوك. أخذت يدى بيديها المتقدة وأدخلتني إلى المنزل. رأيت ثيابًا رجالية داخلية معلقة على أفرع الليمون، والغرف قد امتلأت بأناس مجهولين حتى لم تعد هناك أي مساحة، كما لو كنا في مستشفى. برزت أقدامهم المتسخة، وكانوا يطلقون شخيرًا مرتابًا من أفواههم المتصلبة، ويتنفسون بصوت عال، وبطريقة نهمة وكأنهم سيلتهمون الهواء. كان المنزل مشغولًا بلجنة غنائم الحرب، ووجد آل تومولين أنفسهم قد طُرِدوا إلى غرفة واحدة.

سألتنى يليزافيتا ألكسيفنا وهي تضغط على يدي:

– متى ستأخذنا بعيدًا عن هنا؟

استيقظ العجوز، وهز رأسه، وعانق الطفل ميشا الحمل الصغير، وهو يضحك ضحكًا سعيدًا صامتًا. وقف سوروفتسيف عابسًا، واضعًا يديه داخل جيوب سرواله القوزاقي، بينما يصدم مهمازه العملات المعدنية الموجودة داخل الجيب فتطلق صوتًا. لم يكن هناك مجال للاختباء في أي مكان داخل هذا المنزل المعبأ بلجنة غنائم الحرب، فمضيت أنا وتومولينا إلى السقيفة الخشبية التي يخزنون فيها البطاطس وعوارض خلايا النحل شتاءً. في هذه السقيفة الصغيرة رأيت ذلك الطريق

المحتوم المهلك الذي بدأته تلك القبلة في قلعة آل جونسيوروفسكي.

قبل حلول الفجر بقليل طرق سوروفتسيف باب السقيفة. قالت يليزافيتا ألكسيفنا وهي تنظر بعيدًا:

– متى ستأخذنا بعيدًا عن هنا؟

صمتُ، وتوجهت إلى المنزل لأودع العجوز قبل أن أنصرف. قال سوروفتسيف معترضًا طريقي:

– ليس هناك وقت لذلك. هيا أسرج جوادك ولنمض.

ودفعني إلى الشارع، وحرَّك الجواد. مدت توميلينا إليَّ يدها الباردة. ونظرت إلى الأمام مباشرة كما تفعل دائمًا. مضت الجياد سريعًا، فقد استراحت طوال الليل. لاحت قرص الشمس المشتعل من بين أشجار البلوط المتشابكة، وملأت بهجة الصباح كياني كله.

وصلنا إلى أرض مقطوعة الأشجار. التفت بجوادي وصحت في سوروفتسيف:

– كان بإمكاننا أن نمكث قليلًا هناك. لقد أتيتني مبكرًا للغاية!

– لم يكن الوقت مبكرًا.

هكذا أجابني وهو يقترب مني ويشيح بيده فروع الشجر الندية وأكمل:

– لولا الرجل العجوز لجئتك مبكرًا عن ذلك. كان يتحدث، ثم اهتاج فجأة، وأخذ يقرقر، وتهاوى على الطاولة. هرعت إليه لأنظر ماذا حلَّ به، فوجدته ميتًا.

انتهت حدود الغابة. مررنا بحقل محروث لا يلوح فيه طريق. انتصب سوروفتسيف فوق ركابه لينظر إلى كلا الجانبين، وأطلق صفيرًا وهو يشير إلى الاتجاه الصحيح ثم توجه بجواده إليه.

وصلنا في موعدنا. كان الرجال قد استيقظوا لتوهم. أشرقت الشمس الدافئة لتعدنا بيوم حار. في هذا اليوم تحديدًا عبرت فرقتنا حدود مملكة بولندا السابقة.

❊ ❊ ❊